

بِحَسْبِ مَا فِي الْغَيْظِ تَأْتِي سُبْحَانَ

الزِّيَادَات



رجب ١٢٢٢ هـ

أغسطس إلى سبتمبر ١٥١٧ م
• (مقتطف "٢" من مشاهدات الرحالة
البندي في اسكوتشي جانتى، الذى زار
القاهرة أكثر من مرة فى القرن السادس
عشر الميلادى أثناء طوافه بالعالم.
تسجيل هذه المشاهدات أحوال القاهرة ..
خلال شهر أغسطس ١٥١٧ ميلادى ،
الموافق رجب ١٢٢٢ هـ

تضطرب احوال الديار المصرية هذه الأيام ، وجه القاهرة غريب
عنى ، ليس ما عرفته فى رحلاتى السابقة ، احاديث الناس تغيرت ،
اعرف لغة البلاد ولهجاتها ، ارى وجه المدينة مريضا يوشك على
البكاء ، امرأة مذعورة تخشى اغتصابها نحر الليل ، حتى السماء
نحيلة زرقاء ، صفاؤها به كدر ، مغطاة بضباب قادم من بلاد
بعيدة ، اذكر قرى الهند الصغيرة إذ يدركها الوباء ، ينقل هواؤها
بالرطوبة ، الليلة ، تنتظر البيوت امرا قد يأتى غدا او بعد غد ، اصغى إلى وقع
حواقر تصطدم بحجارة الطريق ، تبعد ، تنأى ، اطل من مشربية البيت محاذرا
ان يرانى احد ، اطل والظلام يلف البيوت ، لا ارى مؤذنة جامع السلطان الغورى
الجديد ، لم تمض سنوات على بنائه ، لم اره عندما جئت هنا آخر مرة قبل رحيلى
الطويل إلى الشرق ، سمعت باستعدادات تجرى لبنائه ، تشييد القبة الضخمة
المواجهة له ، اطل براسى قليلا ، اخاف انفتاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب ،
إذ يجدونى افرنجيا ، يدفعون بى إلى اللوت بلا مطكمة ، لا استجواب ، لا سؤال ،
من انا ، من اين جئت !! لن تتاح الفرصة لأخبرهم ، لاقنعهم ، إننى أعرف الوالى
الامير كرتباى ، معرفة شخصية ، بل اننى اصغيت مرتين إلى متولى حسبة
القاهرة ، الزينى بركات بن موسى ، إنه صاحب مناصب عديدة ايضا ، ومسئول عن
حفظ الامن والنظام ، لو رأتى فسيتذكرنى ، اعرف انه لا ينسى وجها عبيرا رآه مرة
واحدة ، حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة اعوام ، على اية حال سابقى
الليلة ، بالتاكيد لن انجو من العسس ، المنسر ، الممالك ، بيوت المدينة كلها
مغلقة ، مرعوشة تود لو توارت ، تهفو إلى الامان المرجو ، شموع بيتى مطفأة ،
أخشى تراقص الضوء فى أحداق العيون المتلصصة ، قبيل العصر مشيت من
الحسينية ، فى صدرى نفس الحنين الذى يجيئنى كلما نزلت بلدا ، كلما عدت إلى

مدينة زرتها من قبل ، افضى اياما قبل اتصالي بمعارفي من اهلها ، اجوبها من اعلى إلى اسفل ، اسعى وراء اخبار من اعرفهم . ارثى الذين ذهبوا . ارى اليوم الذى فارق فيه الواحد منهم ديننا ، اسأل نفسي ، اين كنت عندئذ ؟؟ فى اى مدينة ؟؟ القى البعض صدقة ، الفتح نراعى على عادة اهل البلاد ، اقبل كتفه ويقبل كتفى ، اراجع لاثامله ، اعود لاحتضنه من جديد ، اذكر انه لم يتغير إن كان متقدما فى السن ، ان الصحة تطل من عينيه ، يغمغم بحمد لله ويشكره ، يحلف ايمانا مغلظة ليصحبني إلى داره فامضى ، تجلس فى غرفة الضيافة ، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة صغيرة بها ريحان وفل ، تتوسطها نافورة صغيرة ارضيتها مرصعة بالرخام الملون الجميل ، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجيء ضيف ، لكن اليوم طل تجوالى ، لم ألق واحدا من اصحابى القدامى ، ربما تغيروا ، سمعت من العملة ان كثيرا من اعيان الناس ، والمشايخ ، نقلوا الثمين الغلى من ثيلهم وحوائجهم إلى الامكن البعيدة المجهولة ، رحلوا عيالهم الى الأرياف ، هجروا بيوتهم وسكنوا المزارات ولسالى الموتى ، سمعت بكثرة الإشاعات ، كل إنسان يقول ما يحلو له ، اى شخص يدخل فيما يعنيه وما لا يعنيه ، وطالب البعض بضرورة تدخل الامير طومانباى نائب الغيبة لإسكات الألسنة ، قال البعض هذا مستحيل فالتقاطع لاخبار معناه ان حدنا فظليعا لا تجرؤ على التكثير فيه وقع ، صاح البعض ، وهل يقع فعلا ما لا نجرؤ على الظن به ؟ لايمكن ، جيش السلطان من فرسان الإسلام وحماته ، كل فارس منهم مقوم بالف من العثمانية وكما غلبهم الأشرف قايتباى فلا بد من هزيمتهم على يد الغورى ، يقول آخر ، إذا صح هذا فلماذا لم تصل رائحة من الأخبار المفرحة ، لم تنق البشائر ، ولا الطبلخاناه ، كيف تصدق ان شيئا لم يقع ، لم يحدث ، حتى الامور هنا مضطربة ، فى المقهى عدل رجل وضع عملته ، سال ، هل رأى احدكم الزينى بركات بن موسى منذ اول امس ؟ نزل صمت معيق يحذر ، اسندت وعاء الفخار السلخن ، لم تشرب إلا رشقة من الحلبة ، ما الذى جرى للزينى بركات بن موسى ؟ إذا لم يجر ، فأى إشاعات تتردد حوله ؟ نظر إلى صاحب السؤال ، خمنت انه ربما يعمل فى خدمة جامع ، يتاجر فى الكتب القديمة ، ربما طالب يدرس العلم فى الأزهر ، لهجته ، اسلوبه ، يوحيان بمهنة من هذه ، كلما رايت رجلا لا اعرفه ، اسأل نفسي ، اى مهنة يعمل ؟ فى اى مكان اقام ؟ الصين ، الهند ، او صحارى الحجاز ، طل سكوته ، قال أحد الحضور ، فعلا لم تروا منذ ثلاثة ايام ، قال آخر .. بل خمسة ، كل منهم يقطب جبهته ، يحاول التذكر ، حتى انا قلت لنفسى ، فعلا لم ار الزينى خلال الايام التى قضيتها هنا ، الزينى يراه اهل القاهرة يوميا ، ولو مرة واحدة ، تنق الطبلخاناه امامه ، يمشى السعاة فى ركابه ، الزينى دائم التفتيش على اسعار البضائع ، يتعقب لوكار الفساد ، مشى الناس فى الطرقات ، له قواعد لا بد من مراعاتها ، الالتزام بها ،

أحيانا يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة ، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات
 لتزاييد عبث الممالك في بعض الفترات ، آخر زيارتي لمصر ، رايت الزيني بركات
 قويا عليا ، لا ادري كيف صارت به الحال ؟ ثلاث سنوات تغير الإنسان حقا . رايت
 الزيني ينزل بنفسه ، يناقش باعة الحلوى ، والأجبان ، والبيض ، يقف وقتنا طويلا
 مع الفلاحات بائعات الدجاج والأوز والأرانب والبط ، يسعر الأصناف بنفسه ، يجرس
 المخالفين في المدينة ، اعرف رضاه الناس عنه ، حبهم له ، اذكر ما كتبه عنه بعد
 لقائي الأول به ، رايت رجالا كثيرين ، بربرا وهنودا وإيطاليين وحكاما من بلاد الغال
 والحبيشة والأصمى شمال الدنيا ، لكنني لم ار مثل بريق عينيه ، لمعانها ، خلال
 الحديث تضييقان ، حدقتي قط في سواد ليلي ، عيناه خلقتا لتنتلذا في ضباب البلاد
 الشمالية ، في ظلامها ، عبر صمتها المطبق ، لا يرى الوجه والملاح ، إنما ينفذ إلى
 قاع الجمجمة ، إلى ضلوع الصدر ، يكشف المخبا من الآمال ، حقيقة المشاعر ، في
 ملامحه نكاه براق ، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدنى الروح منه ، في نفس الوقت
 تبعث الرهبة ، سألني عن بلاد رحلت إليها ، كيف ألفت فيها ؟؟ كيف تعاملت مع
 أهلها ؟؟ حرية النساء في بلاد الفرنجة ؟؟ استفسر عن العدل في الرعية ، وطرق
 البريد في الهند ، وذكر أسماء مشايخ في جدة ومكة ، وأعيان من دمشق ، قلت انني
 لم اذهب إلى جدة لكنني زرت مكة ، والفت في دمشق ، كتب لي أسماء وعدته بالسؤال
 عن اصحابها ، وقتها سمعت حادثة طريفة فصل فيها الزيني بنفسه ، حدث ان ارسلت
 جارية رومية بيضاء إليه تستغيث به ، قيل انها لم تتجاوز الخامسة عشرة ، اشترها
 من سوق الجوارى رجل كبير السن ، يعمل في استغلال ماء الورد ، ضخم الجثة ،
 فهم ، كثير الأكل ، كثير التكاكح ، ومنذ شرائه الجارية الرومية البكر الحسنة ، تفرغ
 لها تماما ، هجر معلمه ، لم يعد يخرج من بيته ، لا يمضي إلى الصلاة ، بل ياتيها
 كلين العشرين في اوقات متعددة ومختلفة من النهار ومن الليل ، حتى زعموا - واطنه
 تشنيع من العامة - ان صواتها يعلو خارج البيت ، فيسمعه المارة بوضوح ، يبدا
 حادا ، يسمع جرى اقدام ، يسود صمت لا يستمر كثيرا حتى يعود بعد قليل من
 جديد ، شهد الجيران بهذا ورهقوا لها ، تساعطوا فيما بينهم متى تنام البنت إذ ان
 صوتها لا يهدأ ليلا ولا نهارا ، قالها الرجال بحسد ، لم ترتفع عيونهم عن باب البيت
 الذي لم يفتح اسبوعا كاملا ، وصار الشبان يرقبون المشربيات ، وإذا تعلقو صرخات
 البنت ، يتضاحكون ويتغامزون ، ويشد بعضهم شعر بعض ، وقال سقاء يحمل الماء
 إلى البيت - استدعاه الزيني إلى الشهادة - انه سمع باذنيه صراخ الجارية في
 الحرمك ، قال انه رآها مرة تطل من نافذة المشربية المطلة على فناء البيت الداخلي ،
 منقوشة الشعر ، خرج يهز رأسه متعجبا مما رأى ، المهم إنها عندما استغلت
 بالزيني بركات ، ارسلت له خادما صغيرا ، قام الزيني لغوره ، شاور العلماء في الامر .

تباحث معهم ، وافقني شيخهم بصحة ما ينوي الزيني القيام به ، هنا توجه الزيني إلى بيت الرجل - إسمه العطار فيما أنكر - كبس البيت ، هاج الرجل واصل يزعق غاضبا ، ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم ، قبض عليه الزيني ، أمر ببطحه أرضا ، كشفوه فقبل انهم روعوا لمناظره ، واقسم شيخ الحنفية انه لم ير شيئا كهذا في حياته من قبل ، قال الزيني ، البنت تصفرك بأربعين سنة ، اليس حراما ان تؤذيها .. وبهذا ايضا ؟ ضربه خمسين عصا ، ثم أمره باعتاقها ، وفعلا ، اعتاقها الرجل مرغما ، لكنه لم ينس ما فعله الزيني به ، أصيب بحسرة كبيرة على فراقه البنت ، بدا يظهر في الحارات زائغ العينين ، ممزق الثياب ، ريقه يسيل ، يبحث عن شيء مجهول ضائع ، لا يذكرها باسمها ، إنما ينادى شيئا يرفض الإفصاح عنه ، كلما ظهر في مكان صاح عليه العلة ، ضربوه على موضع عورته ، ضحكوا وسخروا منه ، بينما تدور عيناه ، تبحثان عن الأمر العزيز المفقود ، وسمعت ممن أثق به ، ان الشيخ العطار هذا لم يقرب امرأة في حياته قبل البنت ، لم يتزوج ، طوال حياته ، يعول أمه وأخته ، وعندما تزوجت صغرى شقيقاته أصبح وحيدا ، بدا يقتصد ثمن هذه الجارية لمدة اعوام عديدة ، جارية معينة رسم صورتها وهيئتها في ذهنه بعناية ، بيضاء كطبق الفضة ، نهذاها كرتان من الملبين ، لهما ملمس الحرير ، حلم بها سنوات حتى عثر عليها ، لم تطل فرحته بها ، أخذوها منه ، انتزعوها انتزاعا ، فيا فرحة ما تمت كما يقول عامة مصر ، اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات ، أكد جمع منهم صحة ما قام به ، خاصة ان البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك ، وراى فريق آخر ، انه تدخل في أخص امور الناس ، وان احدا من الخلق لا يامن على بيته ، او عياله بعد الآن ، خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفي استغاثت البنت بالزيني بركات ، إنما استطاع الزيني معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على ادق ما يجري في البيوت والزوايا ، قيل ايضا ان العطار مظلوم وليس عنيقا ، وتسأل الرجال هل توجد امرأة تكره هيئة رجل كهية العطار ، البنت فعلا لعب وكرهته ، استغاثت بالزيني بركات لتهرب منه لسبب خفي عندها ، وبقي شعور خفي بالرهبة في اعماق الناس ، تعجبوا لمهارة المحتسب ، قدرته على النقل إلى ادق الامور التي تخص البيوت ، وهذا مالم يتفق لغيره قط ، قيل بوجود فرقة خاصة من اشداء البصامين تتبعه شخصا ، لا يعرف من رجالها مخلوق ، اين يعيشون ، كيف يعملون ، هذا امر خفي لا يجرى به إنسان ، وهذه لا علاقة لها بفرقة بصاصي السلطنة التي يرأسها رجل عتي معروف ، المهم ، سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة ، رأيته بعيني وهو يلف الحوارى ، يقف بين الحين والحين ، يزعق في الفراغ منهالا بالسباب والشتائم على شخص لا يذكر إسمه أبدا ، وقيل انه يصنع تماثيل صغيرة من الورق يحرقها يوميا قبل نومه ، ويتلو عليها تعلويز خاصة ، وظل على حاله حتى كان

من أمره ما كان ، وما سنذكره في حينه ، أعود إلى الرجال في دكان الشاي ، تسامعوا فعلا عن السر في اختفاء الزيني ؟؟ تعجب كل منهم كيف فاتته الأمر ، اختفاء الزيني حدث غير عادي ، انها الأيام المضطربة التي ينسى فيها الإنسان نفسه ، ألم ينكر أحد المشايخ الصالحين في خطبة الجمعة الماضية ، أن أوان الريح التي تهب قبل القيامة ستكنس كل شيء ، ريح يرسلها الله عز وجل ، يمانية الين من الحرير واطيب من نفحة المسك فلا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من الإيمان بوجود الخالق ، أو الحق أو العدل تبعد الأب عن بنيه ، والأخ عن أخيه ، ويبقى الناس مائة عام لا يعرفون دينا أو ديانتة ، وهم شرار خلق الله ، وعلى هؤلاء تقوم الساعة ، تباكي الرجال في المسجد ، وصار كل منهم يعانق صاحبه ، وعندما خرج البعض إلى الخلاء ، خيل إليهم أنهم يشمون رائحة طيبة ، فيها نفحة المسك ، جهروا وأعلنوا ، زمن الهلاك أت لا ريب فيه ، فزعوا ، هلعوا ، وهكذا ، فمثل هذه الأيام ، ينسى فيها المرء أمورا جساما لا يتكرر حدوثها ، كان يمضي يوم بأكمله ، لا يظهر الزيني بركات بن موسى في طرقات القاهرة ، ولا ينتبه أحد ، قال الطالب الأزهرى - كما ظننت :

— أعرف ان الزيني اختفى في مكان لا يعلمه إلا القلائل جدا ..

سكت ليوحى ، أو ليبدوا واحدا من هؤلاء القلة . قال الحضور :

— اين يا سعيد ؟

— إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة ..

اتسعت أذانهم ، رايت الزيني بعيني عقلى ، يجلس في مكان خفى ، تنبئه الأيام بأحداث جسام ، نواب يدخلون ويخرجون ، يرسلهم إلى شتى البلاد ، والمعازل البعيدة للعربان في الصحراء ..

تسأل أحدهم :

— كيف تبقى البلاد بلا محتسب والدنيا في حرب ؟؟

— عندما كان الزيني يسافر لمدة اسبوع ، بمجرد ان يخطو خارج القاهرة ترتفع الأسعار ، يفعل كل إنسان ما يحول له ، فما بالك وقد اختفى الآن ؟

قال سعيد :

— أبدا .. عين الزيني ترقب الناس كلهم رغم ابتعاده .. ولا تنسوا الشهاب زكريا ..

صمتوا ، في العيون رجاء اخرس ، خوف موغل في الأعماق ، في الطريق على مهل اليم مضى طيور من سجناء الفلاحين مربوطين من أعناقهم بسلاسل حديدية ، يبدو أنهم متجهون إلى سجن من السجون ، أخرج طفل لسانه مرات عديدة ، دق طبل بعيد ، ربما يخادر الفلاحون عالما بعد قليل ، مشيت قريهم ، عيونهم زائفة ، يتمنون

لو احتوا كل ما يمر بهم ، نفس ما رأيته فى طنجة ، طابور رجال يعبرون اسوار المدينة البيضاء مشدودين إلى بعضهم البعض برباط الهلاك الابدى ، فى العيون نفس النظرة ، هذا الرجل المسوق إلى الإعدام فى تلك الجزيرة الصغيرة بالمحيط الهندى ، يرجو من الناس إعادة النظر فى امره ، ان يلحقه طائر رخ فيطير به ، العينان تقولان المعنى نفسه ، ان يعلم الناس انه بعد خطوات ، بعد مسافة زمنية معينة ، ان يفتح عينيه ابدًا ، تضع منه المعالم والاشياء ، ربما اموت بعد لحظة ، اجول هذا ، لكن ان اعرف تماما ، اعلم بمفارقتى الدنيا فى لحظة معينة ، هذا ما يطبع الوجوه بنفس ما رأيته ، نظرة الخروج إلى عالم آخر نجعله ، ما من منقذ ، ما من منج ، ما من معجزة مأمولة ، ارى الرجال الماضين إلى الموت ، اذكر خروجى من بلد إلى بلد ، رحيلى الدائم ، اذكر من سبقونى ، ورجال خرجوا من البندقية ، مبتدئين رحلة ربما امتدت ثلاثين عاما ، ربما مات الإنسان فى بلد يبعد الاف الفراسخ ، مشيت وفى نفسى خوف ، كل ما اراه يجسد رعبا ، القاهرة مسوقة إلى مصير لا يفصح عن نفسه ، القاهرة منقبة عن بيوتها ، مشيت حذرا ، بالامس نزل المماليك من القلعة ، توجهوا إلى خان الخليلى وكانوا يحرقونه عن آخره ، ضبطوا تاجرا روميا - رومى تعنى التركى العثمانلى - يجمع الاخبار ، يرسل ابن عثمان باحوال الخلق ، عندما امسكوه كاد العامة يمزقونه ، غير ان بعض البصاصين التابعين لكرىبا بن راضى كبيرهم وناخب الزينى ، تحفظوا عليه ، وابقوا على روحه حتى يتم استجوابه ويظهر زملاؤه الآخرون ، وسمعت من يقول بإعدام الوالى كرتباى فى جب القلعة سرا ، ولم يتايد هذا ، وارتج الناس عندما سرت القويل بوصول رسول إلى القاهرة قادم من الشلم ، جاء عبر دروب النيه فى الصحراء ، طلع إلى القلعة واجتمع بنائب الغيبة ، ونقل إليه اخبارا مفزعة ، مؤداها ان جيش السلطان هزم فى مكان قرب حلب ، ولم تعرف التفاصيل ، يقولون : امتع اللحظات التى يذكرها الرحالة فيما بعد ، لحظات تتغير فيها الامور والاحوال ، معينة وقوع الاحداث الكبيرة ، رصد آثارها على الوجوه والبيوت والمدن ، اقول بعد سنوات ، بعد مشاهدنى بداية حرب ، وقوع طاعون ، شهدت بعينى ما جرى ، ما حدث ، عند الغروب تابعت الطريق ، ايد ضخمة قوية تسحب الناس وتلقهم داخل البيوت ، اشم هواء لم اعرفه إلا فى « حيدر اباد » بالهند عندما فاجأها وباء عفى اثنى واهلك ، بقيت محاصرا بطاعون جلف ستة كاملة ، اولد فى كل يوم مرات عدة ، ارى القاهرة الآن رجلا معصوب العينين ، مطروحا فوق ظهره ، ينتظر قدرا خفيا ، اشعر بانفلس الرجال داخل البيوت ، تتقلب رعوسهم الآن ، يتهامسون الآن ، يتهامسون بما سمعوه من اخبار ، الداءات مجهولة ، الوقت يمضى ولا يمضى ، لا يمكننى الطلوع إلى التطبيق الاعلى لأرقب مواضع النجوم ، ربما يقترب لل فجر ، غير اننى حتى الآن لم اسمع ديكا واحدا يصيح .



● رسم : جون فريدرش .

كل إنسان يقول ما يحلو له ، أي شخص يدخل فيما لا يعنيه .

السارق الأول

ماجری لعالی بن آبی الجود و بدایة ظهور
الزینی برکات بن موسی
(شوال ۹۱۲ هـ)

أول النهار :

وفيه تغرق البيوت في نعلس طرى ، تتأخر الشمس في الوصول إلى حواري الحسينية ، الباطنية ، الجمالية ، والعطوف ، بينما ترى واضحة من فوق أسوار وإبراج قلعة الجبل ، جماعة العماليك التي تخترق شارع حدرة البقرة لم يخرجوا من القلعة ، خرجوا من بيت الأمير قانى باى الرماح امير الخيل السلطانية ، عبروا الخليج ، نزلوا على مهل إلى باب اللوق ، اشرعوا سيوفهم في وجه النهار المقبل ، السقاومون الذين قبلوهم قرب باب اللوق ، اول من يستيقظ في المدينة ، يحملون الماء من النيل إلى البيوت ، يجهلون مقصد الفرسان ، تنثر حوافر خيولهم دوامات ترابية صغيرة ، تسرع خطوات الجمال مثقلة بقرب المياه البنية اللون ، يخفت همس السقائين ، يبقى في اذهانهم انطباع خفيف كآثر ضربة المجداف في مياه ترعة هادئة ، ينسل العماليك أول النهار ، تبدو البيوت ، أيام ما بعد عيد الفطر ، دائما يركب الخمول هذه الأيام التي تعقب الأعياد .

★ ★ ★

على بن ابي الجود ، لا يصحو إلا بعد مضي ثلاث ساعات من النهار ، دائما ينام متأخرا ، بعد عودته كل ليلة من القلعة ، يجيء نوابه ، يراجع معهم ما تم من اعمال خلال اليوم المتقضى ، قرب الفجر يصرفهم ، يخلو إلى نفسه مقدار ساعة ، ثم يمضي إلى إحدى زوجاته الأربع ، أو جواريه السبع والستين ، منذ شهر اكتمل عددهن سبعا وستين ، بعد مجيء واحدة حبشية ، وأخرى رومية ، على بن ابي الجود لا يخطيء طريقه إلى من اختارها للقضاء آخر ليلته ، يخطرها قبل مجيئه بساعات وعندما يدخل إليها ينفلذ إلى أنفه عطر ، رائحة ثياب ممترجة بعبير انثى ، كل درجة يعلوها فوق السلام القصيرة ، التي تنتهي بها هذه الطرقات ، فجأة تبعده شيئا فشيئا عن ضجيج النهار التراحل ، ما استمع إليه ، ما أضفاه إلى سجلاته ودفاتره ، ما بلغه من شائعات ، احاديث تتردد عنه هو بالذات ، ما يريده الامراء والعوام على السواء ، الليلة عندما دخل إلى حجرته سالمة ، امراته الثلاثة ، بدأت تخلع عنه ثيابه ، عباءة زركش سوداء حفت بالفضة والذهب ، عمامته الصفراء الكبيرة الملطقة بشاش لونه أبيض ، مثلها لا يرتديها إلا الامراء مقدمو الكوف ، سمح لعلى

بن ابي الجود بارتدائها منذ سنة ، ينحنى بها امام السلطان ، يجالس الاعيان ، يشق
بها في المواكب . ومعروف ، لم تخلق العمائم الكبار لاي إنسان ، لا يجزئ اى شخص
على لبسها في حضرة من له المقام ورفعة الشان ، منظر العمامة فوق راسه يوغر
كلوب الحساد ، يوقظ النميعة ، يحرك الدسيسة ، على بن ابي الجود لا يبالي ، يعتمد
التجول بها ، وتحسسها ، وإبرازها ، وإمالتها إلى الخلف ، وإلى قدام ، بالذات في
لوقات حديثه إلى الامراء الكبار ، حذره بعض الاصحاب ، الا يزهو او يخالل بعمامته
في حضرتهم ، لكنه لا يعنيه امرهم ، يحرص جدا على معرفة كلامهم عنه ، تعليقاتهم
عليه ، وإذا ما وجد فيها ما يستحق نقله إلى السلطان طلع لغوره إلى القلعة ، يضيف
ويبيد في الكلام ، بحيث يغير خاطر السلطان على قائله ، ولا يخفى ما فعل ، بل
يتجاهر به ، ويفيض في الحديث ، كيف اصغى السلطان إليه ، كيف ربت كتفه وعطف
عليه ، الليلة ، فيما يبدو أخطأ نواب على بن ابي الجود ، لم يذكروا له وقوع اى
حدث غير عادى ، فيما بعد ، زعم البعض أنهم عرفوا ما دار ، بالذات في بيت الامير
القانى باى امير الخيل السلطانية ، ولمح العامة ، بل اوضحوا وصرحوا إلى زكريا بن
راضى احد نواب على بن ابي الجود ، وكبير بصاصى السلطنة ، انه لم ينقل
ما يعلمه إلى على ابن ابي الجود ، هذا ما جعله ينام راضيا ملتصقا بزوجته الثالثة
مثلثة ، سالمة ايقلتها حركة غير معهودة ، اقدام تسرع ، ابواب تفتح ، صيحات
بعض الحريم الخافتة ، الاصوات تصل إلى هنا متسلخة ، غير واضحة ، تختلط
وتضيق معالمها ، ساقية ترفع مياهها ، تدور وتصر اخشابها القديمة ، امطار تلمس
أرضا جافة ، قارب يتارجح ، حوافر تعدو ، تعدو ، ماذا يجرى بالضبط ، إيقاظه قبل
الاولان صعب ، « سيدى على » ، « سيدى على » ، ينقلب ، اوان تسقط ، يصرخ طفل ،
تسقط كتلة خشب ، تتسابق دقات قلبها ، تصفى ، وقع امر ، مامو ؟ لا تدرى ، فجأة ،
يتدفق بمها مذعورا في عروق ارجفها رعب ، لم تشعر باستيقاظه المفاجيء ،
إسفلته ، جفاف ريقه ، اما الباب فدفعته قدم محاطة بحذاء فرسان المماليك الجدى
الاسود ، الذى يغطى قصبه الساق ويلم السروال .

★ ★ ★

من بوابة الامير قانى باى الرماح امير الخيل السلطانية ، خرج مناد غليظ
الصوت ، يعرفه الناس ، فى اللحظة نفسها خرج مناد آخر من بيت القريب من قصر
الامير قوصون الدوادار ، قرب حارة بيرجوان ، يتجه إلى العطوف ، إلى الحسينية ،
إلى حارة الروم الجوانية ، هواء خفيف عذب يحمل إلى الاذان دقات طبل واصوات
منادين آخرين ، نداءات توقظ النيام ، تلك تلامس الجفون ، عمال الحمامات
يخرجون ، عمال المستودعات المجاورة ، باعة لبن ، باعة فول ، يتوقفون ، تصفى
الاذان ، النساء يصحن مناديات بعضهن البعض ، بلثة بليلة تزرق فى حارة الميضة

التي فتحت بوابتها منذ قليل ، فجأة لا تنادى المرأة على البليبة ، إنما تنقل الخبر بصوتها المرتفع ، الرعوس تطل من الأبواب الصغيرة في الحجرات الصغيرة داخل الربوع الضخمة ، أطفال صغار ، أطراف جلايبيهم بين أسنانهم ، يسرعون إلى أين بالضبط ؟ لا أحد يدري ، تلتوت زغرودة في الهواء أطلقتها امرأة من إحدى الطيقان المرتفعة جدا ، جاوبتها أخرى ، ثم زغاريد ، نساء حافيات خرجن من العطوف ، الجودية ، السكرية ، يحملن أطفالهن فوق اكتافهن ، يصفقن ، يواجهن النهار الجديد بفرحة ولبدة .

* * *

سعيد الجهيني :

من داخل رواق الصعليدة في جامع الأزهر ، يصغى سعيد الجيني إلى ضجة الخلق ، نافذة الرواق العلوية تطل على مدخل الباطنية ، تتدافع الأصوات إليه ، أخيرا .. أمسكوا على بن ابني الجود ، رسموا عليه ، بالأمس قبيل المغيب رات الجموع موكبه ، هل جرؤ واحد على الظن وقتها أن نفس الطرقات ستشاهده مشهرا مجرسا فوق حمار أزعر ، لا ذيل له ، الناس تسد الشارع كالجراد المنتشر ، في القلوب غل رأى الفرصة فانفجر ، سعيد يراه الآن بعيني عقله ، هاهو ذا يمتطي حصانا عليه كنبوش مذهب ، يمر أمام بيوت المشايخ أو الأمراء ، تتقدمه طبول قوية تفوق في ضجتها طبلخاناه ندى أمام أى أمير ، هاهو ذا يمشى في الطرقات مترجلا ، يحفه حرسه الأشداء ، عندما أقنع السلطان بفرض ضريبة على الملح ، الحق الضرر بالمسلمين ، ملح الطعام عز وجوده . على بن ابني الجود يمشى لا يجرؤ إنسان على رفع عينيه في وجهه ، عمامته تذهل الأبصار ، لم تمض ساعات ، هاهو ذا يركب حمارا بالمقلوب مبهدل آخر بهدلة ، يلطمه الصغير والكبير ، النساء يصفقن عليه ، الرواق خال تماما ، كلهم خرجوا ، في الهواء رائحة رطوية ، وخبز جاف مكوم في أركان الحجرة المستطيلة الطويلة قاتمة الجدران ، أدخل قدميه في النعل القديم ، لا بد من طلوعه إلى مولاة الشيخ أبى السعود ، يمضى إليه في كوم الجارح ، يتبادل معه الحديث ، يصغى إلى رايه فيما جرى وما حدث ، صحن الجامع الكبير يشغى بالمجاورين وطلبة العلم ، فعلا ، لا بد من مضيه إلى مولاة أبى السعود ، لكنه الآن يجلس بجوار العمود الرخامى الكبير القريب من باب زاوية العميان ، يمس الأرض الصلبة يعود قش ، سعيد يرقب ما تجيء به الأيام بحذر ، لا يخفى أبدا فرحته بزوال هذا الظل الثقيل ، لكن ماذا تأتى به الأيام ؟؟ بل ماذا يخبىء اليوم نفسه ؟ ربما انتهت الأمر بفتنة بين الأمراء تروح فيها رقاب ، تسيل دماء أبرياء لا حول لهم ولا شان ، تغلق أبواب وطيقان ،

تشعل حرائق في البيوت ، تهدم مساجد وزوايا ، من يدري ؟ ربما جاء من هو اعنى
والاسى ؟ هنا ضرب سعيد عود القش فانقسم ، نفخ يديه ، عزل على بن ابي الجود
فيه رحمة بالعباد ، ضج الناس وهاجوا ، سعيد يسمع الآن ما قاله احد المجاورين
هنا منذ ثلاثة شهور ، مال عليه عمرو بن العدوى ، اخبره بما يضره ، ضاق بما ياتيه
على بن ابي الجود في حق الخلق ، المظالم المستجدة في كل يوم ، عمرو يعلم تماما
ما يفعله الظالم ، يخلو إلى نفسه ساعتين في كل ليلة ، يفكر في طرق جديدة للمظالم ،
يخترق فنونا جديدة لتعذيب ضحاياه ، بل قيل بين الناس انه اوصى زكريا
بن راضى — عليه سخط الله وغضبه — بالبحث عن طرق جديدة لإنطاق الضحايا
والمساجين ، اساليب لا يحلم بها إنسان ، قال عمرو إنه قبض على امرأة حامل ، فقيرة
لا ظهر لها ، ضربها بين يديه بالمقارع ، احرق اطرافها بالقطران حتى رمت مالى رحمها
ولدا ذكرا في ستة شهور ، لم يكتف على بن ابي الجود بهذا بل شنتها عند باب
زويلة ، لماذا ، هل تدرى يا سعيد لماذا ؟ لأن رجال زكريا ضبطوها تبين قفة بها ثمن
العجور ، وكما تعلم فهو يحتكر بيع العجور ، مال عمرو هامسا ، نويت قتله ، ارتجف
سعيد ، نظر في عتمة المغيب إلى عيني صاحبه البراقطين ، جف ريقه ، اطرق وعاود
النظر إلى صاحبه ، كرر عمرو ، ساقته لأريح الخلق منه ، في تلك الليلة عينها بصق
الشيخ ابو السعود ومضمض فمه بماء عذب ، اصغى سعيد إلى صمت وديع يترقرق
كماء الورد في أنحاء الزاوية ، حمد الشيخ ربه لإصغاء سعيد إلى عمرو بن العدوى
صامتا .

« هل اتجنبه يا مولانا ؟ » .

« لا ، لم اقص هذا ، إنما الحذر واجب ، من يريد قتل إنسان كعلى بن ابي الجود

لا يعلن نيته .. »

في الرواق زاح سعيد يرقب صاحبه ، ساعة الدرس ينظر إليه خلسة ، يحاول
العثور في تصرفاته على ما يؤكد تلميحات الشيخ ابي السعود ، إذ يتحدث إليه ،
ينتقى اللفاظ لا يتطرق إلى نقد امير أو كبير ، يراه سعيد متجها إلى البيت القاتم قرب
المقطم ، يخلو إلى زكريا بن راضى ، لا ، ليس زكريا نفسه ، إنما احد نوابه ، طالب
علم فقير مثله لا يجالس زكريا الذى ترتعد لذكره النفوس ، عمرو ينقل ما قيل ، تجيء
الأيام التالية برجال غريباء ، يسألون خفية عن سعيد ، يتبعه بعض المستنصحين
لزكريا ، يجهلهم لكنهم يعرفونه ، يرصدون خطوات قدميه ، الحارات التى يطؤها ،
ضحكاته ، لحظات شقائه الخفى ، فرحه وبهجته ، في لحظة معينة ، لحظة يجيئون
فيها كصبيبة ، رعد اول الشتاء يفلجىء اهل مدينة أمة ، يمد أحدهم يده ، يلمس
كتفه ، يلفظ لفظا واحدا ، يساق إلى سجن زكريا بن راضى ، ينوعون له العذاب
تنوعا ، يلقونه في سجن كبير ، العرقانة ، الجب ، المقشرة ، تنسل أيامه ، ينسى

خبره ، بغنى ذكره ، يضيع اثره ، سعيد يبدو مهموما يسمع بشنق عبد ، قطع يد سارق ، إشهار إمراة ضبطت تسرق رغيفاً ، تقطع يدها اليسرى ، او اليمنى إذا وجدوا اليسرى مقطوعة من قبل ، يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه ، لماذا يحدث هذا كله ، لماذا ؟؟ تعلق الأسئلة وتنزل كعصا نقرزان ، حلقات غليظة فى سلسلة حديدية ساخنة تلهب منه العصب ، تسال النخاع ، تجفف ماء الحياة ، يود لو يزعق من فوق مئذنة الأشرف قايتباى بالأزهر ، يوقظ بيوت العامة الفقراء ، منازل الأمراء ، توخز عينيه اسوار قلعة الجبل ، يرفع يديه ، يطلق إذانا طويلا لا رجعة فيه ، يسب كل ظالم أثيم ، يرى بعينيه زكريا بن راضى مخوزقا بجوار باب الوزير ، سعيد لا يود ان يمضى بين الناس إلا زاعقا ، راجفا محذرا من امور تاتى ، فى كوم الجرح يهدئه الشيخ أبو السغود ، الصالح ، الطيب المنجب ، النجيب ، العارف بالاصول والفروع ، دار ولف الدنيا ، اقام زمنا بالحجاز واليمن ، عرف لغة الهند ، ولهجة الاحباش ، عالج امور المسلمين فى فارس ، وناقش علماء الاناضول ، راي بعينه مياه المحيط الأعظم عند حدود الدنيا الغربية ، يصفى سعيد إليه ، تغيب عنه لحظة دائما يتوهمها ، لحظة يضع فيها أحد المستنصعين البصاصين يده فوق كتفه ، يضحك كاشفا صفيين من أسنان صفراء .

« تسبح معانا »

الآن ، على بن أبى الجود نفسه مشكوك فى الحديد : لاتعرف البهجة طريقها إليه ، بعد ذهابه إلى مولاہ سيمضى إلى الشيخ ريحان ، يباده الحديث ، حتما سيقول الشيخ ريحان ، انه علم الخبر قبل ايام ، ربما تمادى ومال على اذنه هامسا : قوصون وقانى باى لم يتحركا إلا بعد استشارته ، سعيد سيدارى ابتسامه ، وينتظر ، ربما تبدو سماح ابنة الشيخ ريحان ، عسى أن يسمع ضحكتها ، حفيف ثوبها ، ربما تدخل على ابيها فتدارى وجهها ، لكن الشيخ ريحان يدعوها ، سعيد ليس غريبا ، وهو ابن جهينة ، ولو تاخر ميلاده سنوات لأمضيا وقتا فى اللهو ، فى اللعب ، ربما اسعده الحظ بقدر معقول ، يشم رائحة طعام هى طاهيته ، ياكل منه ، يرتعش قلبه ، ترفرف روحه ، يعود إلى الرواق ، يخلو إلى نفسه طوال الليل ، يقاتل اللحظة ، يعيشها ألف مرة ، الآن تثور ضجة بين المجاورين ، يؤكد احدثهم استحالة مجيء إنسان يشغل وظائف على بن أبى الجود كلها ، وكالة بيت المال ، التحدث عن جهات الشرقية ، ثم الحسبة وهى أجل وظائفه ، إلى جانب مهمته الاصلية التى لم يعد يمارسها تقريبا فى اعوامه الأخيرة ، بشمقدار السلطان ، كان يحمل نعل السلطان فى اوقات الصلاة ، وظيفه ليست غريبة عليه ، من قبل عمل بشمقدار صغيرا للامير طومباى ، وعندما علا نجمه وبرق ، سطع فاله ، وبلغ سعده ، تبرا من البشمقدارية مع انها الاصل ،

من إذن ؟؟

الإسماء كثيرة .. لكنها لن تخرج عن نعرفهم .. الأمير لملمى .. طغلق .. ططق ..

فشتمر ..

« أه .. عد غنماتك يا جحا .. »

« لكن .. مستحيل أن يشغل أمير واحد كل الوظائف .. »

« من مدة والتدبير عمال لإزالة على .. فهل يطرده السلطان ليأتي أخريستبد بالامر

كله ؟؟ »

من إذن .. من القدام ؟؟

كل يحاول النفاذ إلى ما يجيء به الغيب ، تدبر امور ، فى القلعة يدور همس فوق الحشايا ، فى الحجرات المغلقة داخل بيوت الأمراء ، والقضاة ، على بن ابى الجود ينتظر مكبلا فى قبو مظلم تنتن الرائحة ، يرى أيامه وهما ، حلما ضاع ، اندثر .

« ربما جاعنا من لا يخطر ببالنا قط .. »

« عد اغنمك يا جحا .. قلت لك .. يا جحا عد اغنمك .. »

الدروس معطلة . لن يطول الامر ، ليس معقولا بقاء هذه الوظائف شاغرة ، اشعة

الشمس الراحلة تفرش صحن الجامع ، خبز الجراية مرصوص منذ الصباح يجف

ليحفظ زمنا ، طنين الحديث لا ينتهى ، سعيد يرى عمرو بن العدوى ، نحلة حائمة

ضلت طريقها إلى جحرها ، من حلقة إلى أخرى ينتقل ، يصغى ، يشارك فى

الاحاديث ، يغضب وقت الغضب ، يفرح لحظات الفرح ، يلقي رايًا يبدو عارضا ، قيل

صدفة ، لكنه يدفع الحديث فى اتجاه تشتتية سفن زكريا ، لا يقترب من الشوام

والطلبة الأفغان ، او المغاربة ، لا يههم امرهم ، دائما بعيدون عما يجرى ، فى

المساء ينقل عمرو ما يراه وما يسمعه ، لكن هذا المساء بلذات ، إلى من يمضى ؟؟ من

يصغى إليه ، بيتسم سعيد إذ يجول السؤال بذهنه ، هل تبقى أذان زكريا وعيونه

مفتوحة كالعادة ؟؟ هل يجد الوقت ليصغى ؟؟ هو او نوابه ؟؟ ربما يفكر الآن فيما

يجب عمله بعد ذهاب ولى نعمته على بن ابى الجود ، على هو الذى اقره كبيرا

لبصاصى السلطة ونائبًا له ، لمن يمضى الليلة عمرو بن العدوى ؟؟ سعيد يقرض

شفته السفلى ، كيف يعذب عمرو يوم القيامة ؟؟ ربما اطاح رقبته بكلمة ، يسفك حياة

أسرة بوريقة ، يقطع الأمل من قلب اب عجوز ينتظر عودة ابنه الفقيه ليؤم المصلين

فى القرية ، أه لو يمضى سعيد الآن ، يمسه من عنقه ، يتخذ إلى أعماله المكنونة ،

بنظرة حادة كسكين تفوس بين لوحى كتف ، صمت فى صحن المسجد ، سعيد الآن

حذر ، كلماته تخرج بحساب ، فراش عمرو وكيس جرابته لا يبعدان عنه إلا بمقدار

ثلاثة مجاورين يتمددون فيما بينهما ، لو تكلب فى الليل ، لو خرج يتوضأ قبيل

الفجر ، عيناه تقعان عليه لا محالة ، ربما يخطيء مولا ، لكن معاذ الله ، لا يظن

السوء بإنسان ، يستدير متمهلا ، رائحة الحصير القديم ، بالرحبة خارج المسجد

تفيض بالمارة ، حمير مربوطة إلى جدار قريب ، صوت المنادى لا يمل تكرار الخير ،
إمسك الظالم الطاغى المستجير ، على بن أبي الجود ، الحوطة على موجوده ، على
حواصله وأمواله ، على حريمه وجواريه ، ترسيمه في جب القلعة حتى يتكشف
امرءه ، امرأة تلقى درهما إلى المنادى ، حلاوة البشارة والنقوطة ، بهجة تمتد إلى روح
سعيد ، بطيئة كسريان ماء في شقوق ضيقة ، يرى سماح ، أه لو تصحبه الآن ، ترقب
الناس معه ، يسمع وقع أقدامها ، لا يعرف صاحب الخطى ، لكنه يثق عند جلوسه
إلى الشيخ ريحان أنها هي ، وهي بالذات ، فرحة الناس تدفئه ، لو فاض درهم عن
حاجته لأعطاه للمنادى ، ينحل خيط من إنعقد في لعبه من قبل ، يذوب متلاشياً ، من
داخل الباطنية خرج صبيان يعملون في مصبغة خضر شيخ الصباغين ، صبغوا
وجوههم بأحمر وأخضر ، يرقصون ، يغنون . ؟

إحزن . إحزن . يا حسود ..

شالوا على بن أبي الجود .

★ ★ ★

(مرسوم شريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر)
(وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)

أما بعد :

الحمد لله الذي هدانا إلى كشف اشرارنا ، والاهتداء إلى خيلارنا ،
لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام في البلاد ، فمن بعد
ترسيمنا على الباغي بن ابي الجود ، وإقامتنا نونه الحدود ، راينا
ملاء وظائفه ومراتبه ، وحتى نحفظ العدل ، ونطلب منه المزيد ،
فكل منا عليه رقيب عتيد ، راينا توزيع هذه الوظائف على ارباب
المعرفة والعلوم ، والامر بهذا حمل إن لم تتوزعه الاكف نزل على
الرقاب ، وبدانا بوظيفة الحسبة لأنها تمس احوال الناس ومعاشهم ، ولا يمكن تركها
شاغرة ، وبعد الاطلاع على احوال الناس ، ومعرفة اى الخلق منهم يربحهم ويحببهم
الصعب .

وبعد قراءة التواريخ الماضية ، واستيحاء العبر ، والوصول إلى حقيقة المبتدا
والخير . وبعد طول تفكير وتدبير ..

قررنا

يقولى بركات بن موسى ، حسبة القاهرة ، لما تبين لنا بعد
ما قدمناه ، ما فيه من فضل وعفة ، وامانة وعلو همة ، وقوة
وصريامة ، ووفور هيبة ، وعدم محاباة اهل الدنيا وارباب الجاه ،
ومراعاة الدين ، كما انه لا يفرق في الحق بين الرفيح والحقير ،
لهذا انعمنا عليه بلقب ، الزينى ، يقرن باسمه بقية عمره .
وقد اوصيناه بالنظر في المكاييل والموازين ، والتحذير من الغش
في طعام أو شراب ، وإن يتعرف الاسمار ، وإن يستعلم ويستقصى الاخبار ، ما يتردد
على افواه الناس ، في كل درب أو حارة ، كل بيت أو سوق ، بدون علم اهله ، وإن
يعين له نوابا ينظرون امور المسلمين ، بشرط أن يكونوا ابناء مؤمنين ، والا يمكن
احدا من العطارين ، من بيع غرائب العقاقير ، وإن يمنع المتحيلين على اكل اموال
الناس بالباطل ، وإن يتصدى للامر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنع عن الفسق ،
والظفر في امر فقراء المكاتب ، والعاملات والمغنيات من النساء ، ولا يمكن منهم
احدا ، ولا يستتيب عليهم إلا من عرفته امانته ، واثرت صيانتة ، وإن يكونوا من اهل

العفة والأمانة والزهادة ممن بعدوا عن المظالم ، وثأوا عن السوء ، وإن يقصد بقوله
وفعله وجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، فلا يبالي باحتسابه بغض الناس له ،
وسخطهم عليه ، أو رضاهم عنه ، وإن يكون مواظبا على سنن الرسول ، من قص
الشارب ، وبتف الإبط ، وحلق العانة ، وتقليم الأظفار ، ونظافة الثياب والتعطر
بالمسك ، هذا ما رأيناه ، وبه أمرنا ، وسلام على أشرف الخلق ، سيد المرسلين ،
محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

« قلعة الجبل »

ثامن شوال

★ ★ ★

زكريا بن راضى :

فى أى وقت أو مكان ، هل حال أمر بينه وبين فهم ما جرى ، النفاذ
إلى الأحداث ، الصغير منها والكبير ، الآن بالذات يحاول تلمس
الأسباب ، ما يجرى الآن يحيره ، أول الليل ، نزل إلى السجن
الصغير المدفون تحت البيت ، تقدمه المشاعلى مبروك ، لا يذهبان
إلى السجن إلا نادرا ، مرات قليلة خطأ فوق الممر المعتم الضيق ،
فى نهاية تجاويف صغيرة فى الجدران الرطبة المبللة اللزجة ،
تضيق الفجوة بقامة الإنسان ، السجين يضطر إلى إحناء ظهره عند الوقوف حتى
لا يصطدم رأسه بالسقف غير المستوى ، لا يمكنه تلفت أو تقلب ، أو قعود ، أو نوم
متعمدا لضيق المكان ، وبسبب المياه التى يرشها مبروك الأخرس عدة مرات كل نهار ،
يحافظ على منسوب إرتفاعها فوق الأرضية اللزجة المبللة ، زكريا لا يلقى المحابيس
هنا ، يبقى فى الطرف الآخر للبيت ، يجىء مبروك ، يفك قيود المحبوس المطلوب ،
يعصب عينيه بمنديل ، يدفعه بحربة قصيرة فى ضلوعه ، فى النهاية يقف امام
زكريا ، يبقى السكون بلا خدش فينزاید رعب السجين ، لا يدرى من أين تجيئه
الضربة ، وبعد لحظات تطول أو تقصر يمد زكريا فحاة يده ، يلمس كتف السجين ،
غالبا ما يلمسها برفق ، على مهل ، بتأن ، كثيرون لم يحتملوا المفاجأة والمباغنة
الخفية اللينة كبطن الأفعى ، يسقطون مغشيا عليهم ، ترفع العصاة عن العينين ،
فى البداية تترقرق ابتسامة هادئة ، نازقرب انطفاؤها ، يمضى وقت ، ترتفع صرخات
زعيق وآم ، تصر عجلات الساقية التى تبدأ فى رفع المياه من البئر العميقة ، احيانا
يامر زكريا بقرع الطبلخاناه ، خاصة فى الليل ، فى السكون الغويط ، يسمع من

بعيد ، يدرك القلائل جدا ، أشد المقربين إلى زكريا والعملين معه ، يدركون ما يحويه قرع الطبلخاتاه الآتي من سفح المقطم ، الليلة يمر ، زكريا بنفسه في السجن المعتم الرطب ، قبل ذهاب النهار طلب من مبروك إخلاء التجاويف من كافة السجناء ، جمعهم لا يدري احد بوجودهم ، لم يصدر مرسوم بإسكاتهم ، زكريا لا يدري ما تحمله الساعات الآتية ، لا يامن أبدا مهما استقرت الأحوال ، عندما يرى الكل رسوخ الأمن وعمق جذوره في جوف الزمن ، لا يخطئ زكريا تقدير اضيق الثغرات ، واتفه الاحتمالات ، من يدري ؟؟ ربما أرسل امير إلى السلطان يخبره بأمر المحابيس هنا ، منهم من نسيه زكريا لطول المدة ، ربما جاء ممالك الغورى ، الجلبان أو القرائصة ، تسلقوا الاسوار ، نفذوا من الابواب ، المعمرات والتعجب ، اسكوه ، بهدلوه ، ثم يفتشون السجن ، سوف يبحثون عن شعبان ، شعبان بعينه ، من شهر اختفى لم يدرب مخلوق ، شعبان غلام السلطان المقرب ، المفضل على غيره ، جلسه في خلواته ، انيسه في سهراته ، يقعد إلى يمينه دائما في نفس مكان الامير الدوادار ، وامير السلاح وامير اخور وكبار رجال السيف والكتاب ، شعبان فلقة صر ، هلال فضة مولود ، شفتاه حبتا ياقوت ، عينا هر ، فمه مسك وطيب ، خده الين من حرير ، يده فى طراوة العجين ، لا يتجاوز العشرين ، عندما قرر زكريا اختطافه لم يامر احد بذلك ، لم يوزع امير ، لم يدفعه وزير ، اى مخلوق ، قرر ان يصل إلى جوهر الصلة بين شعبان والغورى ، سؤال محير الهب مراده ، احرق ما بين جفنيه ، هل يهوى السلطان الغلمان ، هل يؤثرهم على النساء ؟؟ امر كهذا لا يغيب عن زكريا هذا ، إذن لا بد من الوصول إلى الحقيقة ، خاصة والقرائن تؤيد ما يحوم من ظنون ، منذ توليه امور السلطنة لم يسمع انه ازال بكاره او اضاف إلى مشترياته جديدا ، فيما عدا عشر جوار وصلن إليه هدية من ملك البندقية عندما أرسل قاصده إلى القاهرة من شهر ، زكريا يعرفهن ، لديه اسمأهن ، اوصافهن ويعلم من مصادره ان السلطان لم يقربهن ، وانهن يتقلبن متحرقات ، ولولا ان الرجال المسموح بخولهم إليهن طواشية لآتين من الفعل ما تتندر به اجيال وركبان ، ايضا لم يتزوج الغورى إلا اثنتين ، إذن هل توجد صلة بين السلطان وشعبان ؟؟ ولن يجيب عن السؤال إلا شعبان بشخصه ، راح مبروك يراقب مرات طلوعه ونزوله ثلاثة شهور كاملة ، حتى ألم بعادته ، حفظ المواقع التى يتردد عليها ، انحناءات طريقه ، عدد البيوت على جانبيه ، مواقع الخلاء فيه ، وفى لحظة معينة خلت السماء من القمر ، من ضوء النجوم ، كمن عدد من الرجال الملتصين على جنبى المدق الرملى الموصل إلى لول طريق القلعة ، وفى الليلة نفسها وصل مقر زكريا ، تأمل شفتيه ، تعجب من خلقته ، من رفته ، مديده وتحسس نعومة بشرته ، استرسل شعره ، دهش لتصاعقه اسنانه ، طيب رائحته ، رهافة لسانه .

هذا يخلق بين جنس الرجال ، خلع ثياب الغلام قطعة قطعة ، الولد لا يدري ، غائب عن وعيه ، صرف زكريا رجاله . مال فجأة وقيل الغلام ، قال لنفسه ، وقع القبلة بعد صحوه أحسن ، وفعلا رأى فى الصباح تورد الوجه المليح ، ورد سقاء الندى ، أبدى كريا ، ورأى الغلام هادنا واثقا ، تحدث إليه ، لم يفصح عن غرضه مباشرة ، لم يكشف قصده ، استمع إلى وصف بلاد رآها شعبان ، تسأل بعدها ، أحقا لم يتجاوز العشرين ، شعبان رأى الصين ، زار فارس ، ورقص فى جبال الأناضول ، عالم بلغة الفرنجة ، يتقن لهجات البربر : أهالى الجبال فى بلاد المغرب ، كيف الم بكل هذا ، متى اتسع العمر القصير ، كان زكريا يجالس شيخا خبر الدنيا وأمسك باطن أسرارها ، الثغر العذب ينشد أرق الشعر وأعذبه ، خلاصة الحكم والمقولات ، متى استمع إلى هذا ؟؟ كيف لا يسأل عما يراد به ، لحظات عديدة أيقن فيها زكريا بوجود أسماء أخرى عديدة للغلام ، شعبان واحد منها ، ثلاثة شهور مضت كان زكريا ينسى الهدف الأسمى ، يضل عن الوصول إلى حقيقة ما بين السلطان وبين شعبان ، فى البداية حام ودار ، انكر شعبان ، فى ثنايا الأحاديث والكلام يلقي زكريا بخبيث السؤال ، يبدى الغلام تجاهلا ، مرت الأيام ، وصبر زكريا ينفذ كحبات الرمال من بين الأصابع ، فى ليلة ضاق به الأمر ، نزل إلى القبو ، أوثق الغلام ، عراه ، قبله فى شفقيه ، رأى انسحاب الدم من الوجه المليح ، من أذنيه ، تحسس العنق الناعم الأملس ، زام شعبان وعض يد زكريا ، طرحه أرضا ، أفسد الأرض البكر ، عبر مضايق مجهولة لم ينفذ منها إنسان ، وقف عند حافة لم يطلع عليها ذكر ، لم ينظر فى وجه الغلام ، غادره كدرا متضايقا حزينا ، لماذا ؟؟ لا يدري ، ليس السبب فشل فى الوصول إلى حقيقة العلاقة ، بعد ثلاثة أيام نزل القبو ، رأى وجهها بدلته قسوة تقاس بعشرات الأعوام ، فى البدء ظن أن الغلام أبدل ، أين ملاحه الوجه ، روقان أول العمر ، ناداه ، لم يجب شعبان ، لم يفه حرفا ، زال زهاء الشباب ، انكسر غصن الوردة ، نسى الغلام بلادا زارها ، قرى رآها ، ثلوجا بيضاء تفتن فى الحديث عنها ، أى لغز يحير زكريا ، غادر القبو مسرعا ، عاد إليه مرات خلسة . روعه ما رآه وأفزعه ، نحل الغلام وكاد يقنى . لو امتد الوقت ، لو فى الزمن فسحة ، متسع ، ربما توصل إلى سر ما حدث ، يضع يده على بدايات الأشياء ، ربما توصل إلى حقيقة الأمر بين السلطان وغلामه شعبان ، لكنه الليلة محسور ، الغيظ يهريه ، للأسف ، يقرر خنق شعبان ودفنه حيا ، بنفسه راقب الخنق ، مبروك وحده قام بالعملية ، ضربات معوله الصماء عالقة فى أذن زكريا ، الليل وغرابة الأمر ورحيل الفتى يكسبها زنيئا قائما مخيفا ، لكن ، لابد من تنفيذ ما أمر به ، ربما جاءوا واختطفوا شعبان حيا ، يطلعون به إلى السلطان ، يا مولانا هذا غلامك الحبيب وجدناه عند زكريا بن راضى كبير البصاين ، ونائب على بن أبى الجود ، يا مولانا خاتك زكريا فاختطف أحب الناس

إليك . فسق في أقرب الخلق منك ، بدله وغيره . أنهى اوله وأخره ، كبير بصاصيك الذى جئت به يوما ، كدت تظهر ضعفك أمامه ، طلبت منه بقلب سليم ، أن يطلق رجاله ، عيونه ، بحثا عن شعبان ، حبيبه وصفيه ، زكريا هذا .. هنا لا بد من هلاك عظيم ، فناء أكيد ، لن يوسط ، لن يخوزق ، الشنق وقتئذ نعمة لا ترتجى ، الموت خنقا أمنيه صعبة ، أما السم الزعاف فجنة لا ينالها أمثاله ، سيامر السلطان بشيهه حيا على نار بطيئة ، من قبل شوى ثلاثة رجال على السفود - قيل مجرد القول إنهم شوهدوا فى صحبة الغلام مرات - لم ينتظر ليستقصى ، من هم ؟؟ من أى جنس ؟؟ ما الذى يجمع ثلاثة من العامة بشعبان ، زكريا نفسه لا يعلم ، لم يخبره الغلام عنهم ، سبب اجتماعهم به ، عموما ، إذا مرت الأمور بسلام ، الليلة ، غدا أو بعد غد ، فسيطلق بعض الأتباع من عتاة البصاصين وأشدهم بأسا وقدرة على الاختفاء ليحاولوا الوصول إلى أصل هؤلاء الثلاثة ، جمع ما تيسر من معلومات عن الغلام من يدرى ؟؟ ربما عرف عنه وهو ميت مالم يعرفه قبل موته ، ربما كشف الأمر عن أمور لا تخطر ببال عاقل ، النيران لا تهب إلا من مستصغر الشرر ، فعلا ، ليس من الأمان بقاء شعبان حيا ، وغيره من المساجين ، أى شخص يبقى هنا ، حتى حقير الهيئة ، ميتور الأصل فاقد النسب ، أو مجهول الهوية من صغار المنسر والحرامية ، سيعلو شأنه وقتئذ ، يطلق العامة والخاصة التشنيعات المهولة ، يحطون فى حقه كل قببح ، زكريا يحبس خلق الله ، زكريا لديه سجن تحت بيته ، ترى كم من الأرواح ازهق ؟؟ أى الطرق سلك فى تعذيب أجساد خلقها الله ، وقتها يقوم الكارهون ، الأمراء ، اولاد الناس ، مستاتير الناس ، مشايخ الطرق ، طلبة الأزهر والمجاورون ، سيرون فى المحابيس ، كل من أمسكهم زكريا مساكين ، أرواحهم بريئة ، لم تجن ذنبا ، لم يتامر أصحابها ، لم يسرق بعضهم ، لم يقل سبأيا فى طريق عام ضد أمير أو كبير ، الآن ، يفتش السجن بنفسه ، يتناول المشعل من مبروك ، ينبش تجاويف السجن بعينيه ، عطن و تنتن يتصاعد إلى أنفه ، العفن لزج ، لكن صبرا ، ما قام به يدفع بالرضا إلى روحه ، لتخل التجاويف من الآهات والتاوهات والانات ليألى معدودات ، لن تتردد أسئلة المتحشرجين إذ يسأل بعضهم البعض عن أسمائهم ، عن قراهم وبلادهم ، الأسباب التى جاعوا من أجلها ، زكريا عندما رأى المحابيس تعجب ، رأى وجوها لا يذكر أصحابها ، كأنهم جاعوا بدون علمه ، نسيهم لتعاقب السنين وكثرة المشاغل ، الآن ، اطمان زكريا ، يخرج إلى الهواء الطرى الآتى من أعالي المقطم ، يمكنه أن يخلو إلى نفسه ، مبروك يدرك تماما ما يريد ، استأذنه ، بيتعد مندمجا بالظلام ، يتحسس زكريا مقبض خنجره القصير مسموم النصل ، يقطع الفناء المتسع بخطوات ثلجية ، لعباعته حفيف ، ضحكة ناعمة كخيوط حرير ، كشرنقة فراشة ، تجيء من أعلى ، بعضهن يتسامرن فى الحرملك ، لن يخلو الليلة إلى أى منهن ، لن يرى ابنه

يس ، يدفع جزءاً فى جدار ، يخلقه ، يطلع سلام ضيقة تؤدي إلى أعلى طوابق مبنى الديوان المجاور لمبنى البيت ، الناظر من بعيد ، حد البصر ، يمكنه رؤية نقطة ضوء تتسرب الآن من ثقب المشربية ، لكن مهما أوتى المرء من دهاء ، مهما انكشف عنه الحجاب ، لا يمكنه أبدا تخمين ما يضمه الطابق العلوى ، زكريا لا يجيء إليه إلا أوقات الاضطراب ، تقلل الأمور ، تغير الأحوال السريع المصحوب بارتجاج الزمان ، انهيار القوائم ، تحلل الأسباب ، قبل بداية العمل يتكئ إلى حشية لينتج عن ظهره برودة الجدار المكسو برخام احمر ملون بأسود ، يغمض عينيه ، ما معنى الذى جرى ؟؟ حيرته الآن أشد حدة من اللحظة التى جاءه فيها الخبر ، حوله تشبه الجدران تسند طوابق خشبية مقسمة إلى مربعات وخانات ، كل منها يضم عددا من الدفاتر ، تختلف ألوانها وأحجامها ، هنا تتلخص الديار المصرية ، دائما يقول زكريا لأعوانه المقربين ، عندما اود الذهاب إلى أى بلدة فى مصر لا ابتعد عن بيتى ، لىء إلى هنا ، لكل بلدة قسم ، كل قرية ، أى كوم أو عزبة ، أى إقطاع فى بر مصر من أدناها إلى أقصاها ، كل دفتر يحوى أوصاف المكان ، ما اشتهر به ، ثم اهم الأشخاص فيه ، كافة ما يتوافر عنهم ، القسم الخاص بالقاهرة يحوى حاراتها وخططها وجوامعها ، رجالها وشيوخها ونساءها وغلماؤها وجواربها وبيوت الخطا فيها وشرطتها وعسسها وفقهاءها وحماماتها وأسواقها وخاناتها وطوائفها ومغنياتها وملاهيها ، واسماء الأروام المقيمين والقادمين والراجلين والأفرنج العابرين ، ومن يتصل بهم ويتردد عليهم من المصريين ، كل امر كبير أو صغير هنا ، أما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلق بهم ، امزجتهم وعاداتهم ، مشربهم وأهواؤهم ، ما مر بهم من أفراح وأتراح كله هنا ، يقول زكريا منبهايا ، هذا القسم فى الديوان مفخرة للسلطان وغرة فى جبين السلطنة المصرية ، لم يحدث قط ان اعد شىء كهذا فى تاريخ أى بصاص مصرى أو افرنجى ، ويأذن الله العليم القريب سيجيء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به ، يلخصه منذ أمة الميلاد حتى رعشة الموت ، الآن ، يبحث بين الدفاتر ، بالضبط هذا ما يريد ، دفتر احمر مجلد بقمش ، هنا يرقد المبشرون وأرباب الوظائف اصحاب الطوائف الصغيرة ، وفى آخره ملحق يتضمن من يظن وصولهم إلى مناصب يوما ، نوعيتها ، لا ينكر ما دون عن بركات بن موسى ، شهاب الحلبي ناظر الديوان اضاف اسمه منذ عامين تقريبا ، لم يطلب زكريا صفحته للاطلاع عليها ، لا يدري هل اضاف شهاب الحلبي معلومات جديدة عنه ؟؟ الآن يتأخر الوقت ، الليل يوغل حتى العظام ، لولا سرية الامر لأرسل فى طلب شهاب الحلبي ليجمع كل ما تناثر من معلومات حول الزينى ، لكن لى يرسل إليه ، لابد من احتياض حارات مسكوكة ودروب مغلقة ويتجنب عسس وعيون زكريا نفسه ، ربما يثير استدعاء شهاب الآن ظنون البعض ، لا داعى لحضوره ، لا داعى ، زكريا

يضيق ، بوغت بإعلان الخبر ، لم يستيق كافة رجاله فى الديوان ، ولم ينفذ ما اقترحه منذ فترة بخصوص تيسير سبل الاتصال بينه وبين نوابه ورجاله واعوانه ، لابد من مراعاة هذا بسرعة وتنفيذه من الغد ، لولا حرصه على معرفة كل ما يضمه الديوان ، طريقة ترتيب الدفاتر والتقارير والاوراق لتاه الآن ، لا يدع احدا من نوابه يستأثر بامر ما حتى لو كان صغيرا تلقاه الشان ، لابد من إلمامه بكل ظروف العمل ، طريقه ومصاعبه ، حتى لا يلعب به احد رجاله ، يخدعه ، لكن ما احوجه الآن إلى شهاب الحلبي بالذات ، شهاب الحلبي لا يكلف روحه عناء البحث ، لديه ذاكرة عجيبة ، يعرف آلاف الاشخاص ، ما يخصهم ، لا ينسى امرا ابدا ولو مرت سنون ، يذكر ما تبديل من اوراق وتقارير ، ما اضيف من معلومات وسطور ، فى اى ستة من السنين ، الآن يقلب الدفتر ، يمسك بالشريط الملون الذى يفصل الصفحات عن بعضها ، حرف الالف لا يعنيه ، غير مهم ، ربما مات بعض اصحاب هذه الاسماء ، بعضهم يجب نقله إلى دفاتر طبقات اخرى لتغير اوضاعهم ، او اختلالها ، اه مثلا هذا ، احمد بن عمر خادم مسجد سيدى سويدان ، اصبح اماما للمسجد يقرأ فيه الحديث والقرآن ويؤم المصلين ، تزوج امرأة حبشية ، يشاع عنه هواه بالحبشيات ، مع هذا مازال لقبه واسمه فى طائفة الخدام ، كل حريمه هنا . واحدة فلاحه من لوسيم ، ام اولاده ، منهم طالب ازهرى ، لا يجب تنبيه شهاب الحلبي ، ربما قيل وما اهمية هذا ؟؟ ابدا ، ابدا ، كل شاردة وواردة يجب تقييدها ، رصدها ربما جاء منها مالا يدري مخلوق ، هاهى . الباء ، حرف الباء ، بالضبط بركات ، بن موسى ، اعلى الصفحة ، اقصى الركن الايسر كلمة واحدة ، حروف خمسة لا غير ، المداد اسود ، الخط رفيع .

* * *

« بركات » :

لو نظر جاهل إلى الورقة لظن خلوها من اى حرف عدا الاسم ، وما الذى يعنيه لفظ واحد فى صفحة بيضاء ، ناصعة تلعب تحت ضوء الشموع المعلقة إلى الجدران المبطنة بالخشب والرخام والرفوف المزخمة بالدفاتر ، زكريا يمسح الورقة بقلب صغير شفاف لا يعرف تركيبه إلا قلة ، شيئا فشيئا تبدو ملامح الحروف ، تتكشف الكلمات ، يد خفية تخطها ، زكريا يمر بالقلب مرات ، نفخ الهواء حوله ، فقط اربعة سطور ، اربعة سطور فقط ، يستعيز بالله العلى القدير ، ملهم البشر ، كاشف الاسرار ، عالم الغيوب ما لهذا الرجل لا ياتى من ناحيته إلا الحيرة ؟؟ كل ما خطه شهاب الحلبي اربعة سطور . (بركات بن موسى ، له مقدرة الاطلاع على التجوم ، امه اسمها عتقا) .

زكريا يطبق الدفتر ، اى شخص من سفلة الخلق ، من طلبة الازهر المشاغبيين ، اى
 غلانية ، اى بائع جبن مقلى ، او سنويوك ، لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف
 ورقة . وهذا الإنسان يساوى سطورا أربعة يتيمة ، يغمض عينيه ، ليل سكت
 لا يكشف سرا ولا خبرا ، يعرف ان القوم يسهرون الآن ، يهيمسون ، يحطون آراءهم
 فى المحتسب الجديد ، وما ينتظرونه منه ، أه لو يجيء يوم يدرك فيه البصاص
 ما قيل على بعد الاف القرى والبلاد ، لا يبعد امر على الله . لولا ثقة زكريا فيما نقل
 إليه بعد الغروب ما صدقه الآن ، اكثر من مصدر ، اكثر من بصاص ، كل بصاص يجهل
 الآخر ، نقلوا إليه اخبار سعى بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة ، ذهابه
 اليومى إلى الامير قانى باى ، طلوعه إليه ، بقاءه عنده ، حديثه إليه ، ثم ثلاثة الاف
 دينار كاملة سلمها إلى الامير قانى باى ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد
 العشاء . ثلاثة الاف دينار يشتري بها بركات منصب الحسبة ، زكريا ينفخ الآن من
 فمه هواء سلخنا ، ظن وايقن وصول الحسبة حتما إلى الامير طغز ، اصابعه تقبض
 على حافتي الدفتر ، هامو اول الليل يسمع ما يحيره ، ما يجعله ينطق لفظا يكرهه
 ، لماذا ؟؟ لكن هل يعقل هذا ؟ من اى طينة خلق بركات هذا ، هل جاء المسيح الدجال
 متنكرا ، هل نفذ إلى العالم ولم يدرب به زكريا ، كيف ، كيف ؟ . بعد إصدار المرسوم
 السلطانى الشريف ، بعد الخناء على بركات بن موسى ، بعد الانعام عليه بلقب
 الزينى مدى الحياة ، بعد دفع بركات ثلاثة آلاف دينار ليشتري المنصب ، بعد طواف
 المنادى نهارا بأكمله ، بعد هذا كله يطلع من بيته فى بركة الرطلى ، يشق دروبا
 جانبية ، لا طلبخاناه تتقدمه ، لا دق كوسات ، بلا ضجيج ، اول ركوب له ، يطلع
 متخفيا إلى القلعة ، ينبطح امام الأمراء جميعا ، يبكي ، دموع حقيقية ، لا شك فى
 ملوحة طعمها ، ينطق ما يجعل زكريا يروح ويجيء حتى الآن ، لا يمتضى لرؤية ابنه
 الوحيد ، اى من حريمه ، يثقل الليل فوقه ، لا يعنيه إعدام على بن ابي الجود ،
 لا يهمه الآن استمرار الغورى او خلعه وتولية اسفل الخلق مكانه ، كل همه الوصول
 إلى تفسير لما جرى من الزينى بركات بن موسى ، فى القلعة ، وامام من ؟ امام الدولة
 كلها ، ما لو سمعه إنسان لضرب الاكف عجبا ودهشة . فى ساقه خدر ، طليور نمل
 رفيع يسرى تحت جلده ، يعقد يديه وراء ظهره ، ربما لم يدفع ثلاثة آلاف . لكن أبدا ،
 لا أحد برفقة زكريا الآن ، بهز رأسه بقوة ، أبدا ، أبدا ، يثق من صحة عيون بصاصيه
 المتخصصين فى امور قانى باى ، يعلم تماما دخول الف دينار إلى خزائن الامير
 قانى باى يوم استلامه البرطيل من بركات بن موسى ، لم تصله إيرادات من اى جهة
 أخرى ، اما الالفان المتبقيان من الثلاثة آلاف فطلعا إلى القلعة ، أه لو يتخذ السلطان
 ربا الليلة لاستقر زكريا ، لكنه امر الزينى بالانصراف حتى يرى من أمره ما يكون ،
 زكريا يمسك الدفتر ، يفتح الصفحة من جديد .

بركات :

من الليلة سيتولى زكريا بنفسه امر بركات بن موسى . ليضيف شهاب الحلبي ما يروق له من معلومات إلى سطره الأربعة التي لا تبل ريقا ، لا تشفى غليلا ، يميل زكريا إلى دولا ب صغير يتناول منه دفترا مجلدا بحريير اخضر ، الليل حوله أخرس معصوب العينين ، يخرج من جيبه لفافة أوراق ، ما وصله من القلعة ، كل مدار في قاعة البيسارية ، بركات بن موسى قبل رخامها ، بللها بدمعه ، لم يحدث هذا في تاريخ سلطان من السلاطين ، منذ الآن .. كل ما يمس هذا انزيني من قريب أو بعيد سيقروه بنفسه ، ينقله هو ، عيناه ستتوليان امره كلما جاءت الفرصة وسنحت ، من تجويف ضيق مغطى بستارة صغيرة ، يتناول وعاء من فخار ، يغمس قلما خشبيا رفيع السن في إناء ملون .

« الصفحة الأولى » :

عاشر شوال عام ٩١٢ هـ

على مرأى من الأمراء ، في حضور جمع عظيم ، طلب الزيني بركات بصوت خدشه التائر ، ان يعفيه مولاة من وظيفة الحسبة ، قال بصوت مرتجف « الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على احوال العباد ، وحاشا لله ان أجد في نفسى القدرة على هذا ، انا عبد فقير لا أطيق وصايتى على إنسان ، أتمنى انقضاء عمرى فى أمن وسلام ، بعيدا عن امور الحكم والحكام ، ما أريده رقدة أمنة ، لا يقلقنى فيها سب إنسان ، او سخط مظلوم غفلت عنه ولم انصفه من ظالمه ؟ » .

★ ★ ★

كوم الجارح :

عدهم كثير ، غير ان هدوء البيت لم يحدسه صوت عال ، فوق
حشية قديمة مغطاة ببقايا سجادة لم يفن الزمن زهاء الوانها ،
يجلس مولانا الشيخ ابو السعود ، يطيل الإصغاء ، يعرفهم كلهم ،
بعضهم حفظ القرآن على يديه عندما قضى من عمره زمنا مجلورا
لعوم رخامى فى مسجد سيدى سويدان ، او مسجد سيدى
إسماعيل الإمبلى ، يدرس الفقه والأصول ، يفسر المتن ، يشرح
الأحاديث والآيات البينات ، يقص التواريخ ، ها هم يوغلون فى سنى العمر الأخيرة ،
يعرف الإنسان عند مروره بها انه لن يعيش أكثر مما عث ، اكبر شيوخ الطوائف سنا
ومقاما ، الحدادون ، القصابون ، المرخمون ، البناعون ، الشعراء ، مشايخ حارات ،
أعيان وأولاد ناس ، يجيء سعيد بطبق كبير مليء بالبلح المجف المفسول ، يسنده
أمامهم ، يميل الشيخ رضوان كبير الفحامين وأكثر الموجودين تقدما فى العمر .
« لن يقنعه .. لن يقنعه إلا أنت .. »

تبقى الكلمات معلقة فى فراغ البيت ، ينسل هدوء عذب رقيق كسرب عصافير يطير
على علو شاهق ، فى اللحظات نفسها تختنق طرقات الحارة بزحام كبير ، تموت
الأصوات كلها خارج جدران البيت ، تنفذ رائحة لا تنتمى إلى جنس نبات او عطر
معروف ، انثلاف الريحان بماء الورد المحفوف بروح السوسن ، يتمهل كل منهم فى
تفكيره ، يغمق الهواء ، يميل إلى لون الرماد ، يملأ الصدور خشوعا ورهبة ، تتدرج
حببات المسبحة ، اصطدامها يسمع بوضوح ، إيقاع تفكير الشيخ ابو السعود ، يقلب
يا يسمعه ، ما يراه فوق الوجوه .

« لم نسمع برجل مثله .. ونحن مفترضى إلا به .. »

إبنسامة خفيفة ، ذرات نور تنفذ من ثلثوب مشربية ضيقة العيون ، خاطفة كبرق
بين غمام .

« اعرفتموه ؟؟ »

يقول الشيخ القصبى شيخ حارة زويلة ..

« رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا .. »

سعيد لا يقول لفظا ، ليدع الضيوف يتحدثون ، اول الليل فى مجيئه المعتاد إلى
لشيخ ، تحدث إليه بالفاظ أكثر عددا مما قاله جميع هؤلاء ، آخر النهار لا يزوره
لا سعيد بعد انتهاء دروس الأزهر ، يجيء المریدون فى الصباح ، يقرأون القرآن
الأحاديث ، بعضهم ينظف أركان البيت ، يقدم إلى الشيخ غذاءه من اللبن الرائب
الخبز الساخن الطرى ، القصى أمثالهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا ،

سعيد لا يتحرج امام مولاة من إبداء ضيق أو غضب ، ما يخشى التصريح أو التلميح به بين الجموع فى الأسواق أو أروقة الأزهر ، يقوله هنا ، حتى لو رأى فيه جراءة ، يفتخر إليه مولانا ، عيناه تنفذان بسرعة عبر أسوار روحه ، لا يمكن لسعيد أو أى إنسان من الحاضرين تحديد عمر الشيخ ، فى التجاعيد آثار عشرات السنين ، ربما تجاوز المائة ، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخيل ، يكره الانطواء ، يعرف سعيد أى وجد يبهره إذ يسمع صوت الرعد ، يقول ، هذا حس الدنيا ، صوت الكون ، لا يفهمه ويفسره إلا العليم الرحيم ، لم يره إنسان لحظات إصغائه إلى صوت الرعد ، فرحته بنزول النقطة ، أول دمعة تنزل من السماء كل شتاء ، سعيد كل سنة يسمع الرعد فى الرواق ، فى المقهى ، فى الطريق ، فى لحظات تساؤله الغامض عما تفعله سماح فى لحظة بعينها ؟ يتوقف ، يعلم تماما ان الشيخ يصغى ، يقف فى منتصف الفناء تماما ، تبرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن ، تمرح روحه فى كون آخر ، يناجى الأولياء ، يذكر بالأسى ماجرى من أحوال فى كربلاء ، يترجم على آل البيت الذين لا يتسرب إليهم البلى والفناء ، أول همسات المطر يتلقاها عارى الراس بلا عمامة ، ممدود الكفين ، الآن .. توغل برودة ، ينفذ الليل إلى السماء واثقا أسود الجبين ، يميل الشيخ البهجورى كبير المرخمين .

« لم يحدث يامولانا ان رجلا متعمما أو غير متعمم أيا كان مقامه أو رتبته ، عرض عليه منصب ورفق ، الناس كلهم ، المجاورون وأصحاب الطوائف ، منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا الزينى بركات .. الزينى بركات » .

« ومن نشر الخبر يا ولدى ؟ » .

الشتاء ساهى الوجه ، بارد النظرات ، عفى البرودة ، حقيقة ، لا إجابة جاهزة عند أى واحد من الحاضرين ، لا يدرى سعيد كيف تسرب الخبر من البيسارية فى القلعة ، ربما خدم القلعة . ربما بعض المماليك ، كل واحد من المتحلقين حول الشيخ سمع الخبر بصيغة تختلف ، العامة فى الحسينية يؤكدون ، لم يخف الزينى رأسا ، لم يحن هامة امام السلطان ، لم يرتجف أو يهب ، قال امام الأمراء أجمعين ، لا أقبل الحسبة لأننى لا أريد رؤية الظلم وأسكت عنه ، أما الناس فى الجوردية وحرارة الروم الجوانية والباطنية فنقوا طلوعه إلى القلعة نغيا تاما ، قالوا انه أرسل إلى السلطان مكتوبا يعتذر فيه بادب وحسم عن ولاية الحسبة ، لأن الزمن دب فيه الفساد وكثر ظلم العباد ، وصار الخير والعدل فى أبعد واد ، هذا يخالف طبيعته ، ينأى شخصيته ، المسئولية كبيرة ولن يساعده مخلوق ، بل سيطلب منه السلطان فرض مكوس جديدة على المسلمين . الزينى بركات بن موسى لن يقبل هذا أبدا ، وقيل فى بولاق ، والحمامات العامة ، خاصة حمامات النساء ، انه وقف امام السلطان كزينة الرجال ، وأشجع ما يكون عليه الفرسان ، دفعه فى صدره دفعا هينا حازما ، وهذا لم يقع من

قبل ، ولم يفعله اى إنسان ، قال ستامرني يظلم الرعية وانا لن انفذ هذا لاني اخاف نسبة الظلم إلى ، كيف اقليل خالقي يوم الحساب ؟؟

— الحق يمولانا ، لا ندري كيف تسرب الخبر لكن مثل هذه الامور لا يطول احتجايها ، ، عينا الشيخ نبعنا صفاء ، من يصلح إذن للمنصب غيره ؟ من ينشر العدل بين الناس إلا رجل مثله ؟ يخشى الله ليس تصنعنا او زيفا ، إنما يجهر بهذا امام السلطان نفسه ، وعلى مرأى ومسمع من اعلى الامراء واشدهم باسا ، واقوام شوكة ، قال البعض انهم راوه يدخل قصر الامير قانى باى ولم يطلع حتى الآن ، السلطان نفسه لم يصل إلى حل قاطع ، سعيد يرى الآن الجامع الازهر ، عمرو ابن العدوى ينتقل بين الطلبة والمجاورين ، يخرج إلى المقاهى القريبة ، دككين الحلوى والمشبك ، يتسمع رأى الناس ، ما يدور بينهم ، أه لو اقترب سعيد من هذا الزينى ، لم يره قط فى حياته ، كلما ظن خلو الزمن من الجراة ، تنفى الايام انعدام المروءة ، دائما يصغى الشيخ ابو السعود إليه ، رواياته لما يجرى فى المدينة من فظائع ، ما من رجل شنق وراح على نفسه ظلما إلا وسعيد يحفظ اسمه ، يخورق فلاح لسرقته ثمرة خيل ، توسط امرأة لعنت مملوكا فاسقا اختطف ابنتها البكر ، فى اليوم نفسه يجيء سعيد إلى مولاه ، يذكر الضحية ، يتسائل ملوما مقهورا ، كيف يجرى هذا ؟ كيف يمضى الإنسان بارخص الاثمان لا دية له ، لا قوم يطلبون اثره ، تترفق الشفتان الرقيقتان بطيف إبتسامة كعبير النعناع ، احيانا يهمس ، الطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير .. حذقتا عينيه انطبع فيهما المهول من الامور ، الطواف عبر بلاد الله ، وصوله اطراف الدنيا ، عبوره صحارى لا حرث فيها ولا نسل ، اعتلاؤه جبالا تضرب قممها فى شامق السماء ، نزوله إلى قرى فقيرة فى ربوع الشام ، صحراء الحجاز ، نجد ، حضر موت ، وديان اليمن ، سعيد لم ير فى حياته الجليد ، احيانا يتساقط البرد من سماء القاهرة ، لا يحدث هذا إلا نادرا ، يطرق كالجراة لكنه غير الجليد ، فى الساحات البيضاء الثلجية التى تشع دخلنا يتجمد فى الفراغ ، يمتد صمت يبرعش الخوف فى قرارة النفوس ، الفراغ والزمن بلا بداية ، بلا نهاية ، يقول مولانا ، عندما يبدو العالم بلا آخر ، بلا افق ، لا نهائى ، غير محسوس ، لا يفنى ، عندما رآى بحارا يعلو موجهها كالجبال ، حيث اليبسة حلم مازال بعيدا ووهما ضنينا ، هنا تتجمع قوى غريبة فى اعماقه ، يطلق صيحة فى وجه اللانهائى ، اللامحدود ، زعقة تبلغ جبال قاف ، تحدث الزلزلة ، تجمد المحيط ..

، حتى .. الله حتى .. موجود ،

اصحابه كثيرون ، يطلقون الصيحة نفسها فى امكن عدة ، يلقاهم مرة واحدة فى كل عام إذ يصل إلى البيت الحرام ، يتبادلون الوجد ، يتناقلون ما راوه ، ما قاموا به من اجل نشر راية الإسلام ، التذكير باهل البيت ، بطراوة دم الحسين الذى لم تجففه

لؤمته وعصور ، فى الكعبة يرتون من لم يجيء ، من ذهب إلى ابد لا يدركه حتى ، بعد الحج ، إنتهاء الطواف واللقاء ، يولى كل منهم مقصده ناحية جهة من جهات الأرض ، لا يتمدد الجسد ليلتين متعاقبتين فوق مكان واحد ، « الله موجود ، ممدودة تعبير الزمن ، تلين اليابسة ، منذ اعوام جاء الشيخ ابو السعود ، رجع إلى بلدته التى لأمس رأسه أرضها ، إلى مصر ، من وقتها لا يروح ، لا يجيء ، يعيش فى كوم الجرح ، يند إليه الدراويش الطوافون ، أرباب الطرق ، فى أى ساعة من ليل او نهار ، لا يرجع طروق او قاصد إلا بعد رؤيته الشيخ والإفشاء إليه بمن جاء من لجه ، لوقات الصلاة حائل وحيد يمنع الحديث إليه ، أحيانا يقطع تأملاته ، عبوره لزماننا سحيقة البعد ، يصفى إلى صاحب حاجة ، يشير عليه إمامتلميحاً وإما تصريحاً ، مرة أخرى يود سعيد لو يشارك المشايخ أحيانهم ، لو جاءه الليلة عمرو ابن العدوى ، يسأله عن رأيه ، يحاول النحرش بفكره ، هنا يزغق سعيد ، لن يرهب عينا ، لن يخشى اننا تتسع ، او تقريراً يرفع عنه ، لن يخشى زكريا بن راضى نفسه الذى يكفى اسمه وصيته لبث الرعب فى اوصال البلاد كلها ..

يقول الشيخ القصبى :

« والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزينى فلا خير فينا .. »

يقول شيخ الفلمين :

« لنا والله لم اسمع به فى حيلتى .. لا اعرفه يا اخوان ولم اره ... »

يميل مولانا إلى الامام ، يكف الشيخ القصبى ..

وكيف اختاره السلطان وهو لا ينتمى إلى اصحاب الوظائف الكبيرة .. مجهول

للناس ؟؟

يلقى الشيخ سؤالاً يثير به اسئلة .

« ما ادرانا يا مولانا .. ربما غفل عن يعرفهم من اشرار وفجرة .. وهده الله إلى

الزينى بركات .. »

« لن يقنعه بولاية الحسبة إلا انت .. انت يا مولانا والبركة فيك ... »

يميل الشيخ ابو السعود هامساً ..

« اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا .. »

★ ★ ★

الأربعاء .. عاشر شوال :

عندما سمعت بذهاب الزينى بركات إلى الجامع الأزهر ، ليخطب في الخلق ، قلت والله لا تفوتنى رؤية وجهه أبدا ، ظننت أننى الوحيد ، وعندما ذهبت لم أجد لقدمى مكانا وكانه يوم الحشر .. قلت لنفسى .. من أين جاء هؤلاء ؟؟

يميل الصفى بلبع العطور فى الحمزاوى ، أحسن من يستقطر الزيت من السوسن ، يلخص ويركز روح السوسن ، يبسط يده فوق صدره .

أنا شفته ..

إليه ينظرون ..

« يا سلام على التقوى .. يا سلام على الصلاح .. كل ما قاله لا يصدر إلا عن رجل ابن رجل ، مثله لم يخلق ليحضى أمام جبروت أو سلطان .. »

محمود اللبان يسأل :

« أهو أسمر قصير .. سمعتهم يقولون انه أسمر اللون ، كبير اللحية ؟؟ »

« أبدا وجهه كإى وجه منا .. »

يضحك المعلم مرشدى :

« فال الله ولا فالك .. أقصد انه يشبه خلقك انت .. خلقك العكرة .. »

يعود جدا :

« رايته يركب بغلة المحتسب فى الطريق فلم أحكم .. أهو قصير ام طويل ؟ لم اره فوق منبر الأزهر .. »

هنا يقول عمرو بن العدوى ، وحيات مسيخته تتدافع بسرعة ..

« قلت إن الروح لا تكرهه يا معلم .. »

« إى والله يا شيخ عمرو .. »

جاء صبي المعلم الصفى يحمل صينية مثقلة بأكواب الخروب ، يمسك عمرو كوز الفخار بأصابعه ، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة الهواء ، من عادات الصفى شرب التمر هندى ، والخروب والليمون فى قرارة أيام الشتاء ، يقول : هذا يفتح دروب القلب ، يشرح الصفى ، شفتنا عمرو تتمتان بأدعية قبيل شربه ، تظل نظراته فوق الوجوه لحظات ، تتراجع بسرعة منظوية تحت جفنيه المسدلين ، لا يتكلم كثيرا إنما يصغى ، مع أمثالهم لا يخشى هفوة تشى به ، كل آرائهم تجيء على السنتهم بدون حرج ، لا يضطر إلى إلقاء جملة تهدو عارضة ، مستترة ، الغرض منها توجيه الحديث فى طريق بعينه ، برودة الخروب تنفذ إلى أطراف جسمه ، مر النهار صعبا ، ليلة

اسم لم ينم الخلق ، الدكاكين لم تغلق لحظة ، اصحابها يجلسون امامها ، الامراء اغلقوا بيوتهم ، دقوا الطبلخانة وقتا اطول من المعتاد بعد العشاء حتى ارتجت المدينة ، بينما تجيء الاخبار وتروح كموج البحر الكبير يلمس صخر اليابسة ثم يرتد عنه ، « الزينى نزل من القلعة ، « الزينى يطلع الآن إلى قاعة الدهيشة بالقلعة ، ، « ابدا .. الزينى لم يغادر بيت الأمير قلنى باى ، ، فى الفجر طارت الاخبار ، ارسل الشيخ ابو السعود فى طلب الزينى بركت ، مجاور ازهرى من مجاورى الأزهر الشبان سعى إليه ، صحبه إلى كوم الجارج ، حيث اختلى الزينى بركت بالشيخ ابو السعود ، عمرو لم يهدأ ، لن تفوته شاردة او وارده ، لا تمر عليه نظرة ذات معنى إلا يدركها ، ضحكة غريبة الإيقاع لابد ان يرصدها ، اى نكتة يقولها واحد من الخبثاء ، هؤلاء الذين لا هم لهم ولا شاغل فى مثل هذه الأحوال إلا القعد على أرضية الأسبلة ، وامام دكاكين المشبك ، والسنبوسك ، يضحكون ، يسخرون ، عمرو يعلم انه ليس بمفرد ، هناك من يرقب الخلق معه ، يرقبه هو ايضا ، يرفع عنه التقارير إلى مقدم بصاصى القاهرة ، عندما اخبره المقدم نفسه بهذا تقلب على جمر ، تسأل كثيرا .. من هم ؟؟ حول الاستدلال على واحد منهم ، ظن الظنون لم يستطع فائز صرف الفكرة ، لكنها غيب ، تحوم دوما ، لو رفع احدهم حادثة وقعت على مرأى من عمرو ، ولم يبلغ عنها ، هنا يتعرض للمساءلة ، يتهم بالغفلة ، مجاملته البعض على حساب الآخر ، ليس امينا فيما ينقله ، ما يسمعه ، يزعم مقدم البصاصين ، يستدعيه ، يقابله بنفسه « انتم لا تعرفون ما الاقيه بسبب غفلتكم ، السلطان ينزعج إنزعاجا شديدا ، لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة مرت على واحد من رجاله ، الستم عيونهم ، الستم آذانهم ؟؟ إذا عميت عين طرشت اذن ، كيف يعرف احوال الخلق إذن ؟؟ كيف يعدل فى الرعية ، حادثة صغيرة تمر عليك تبدو لعينى المهمل غير ذات اهمية ، لكنك لا تدري ، لا تعلم ما يتسبب من ورائها ؟ فى زمن سالف الذكر ، السلطان الأشرف قايتباى تامل عليه بعض الكبار ، هل تدري كيف تأمروا كأنما يخافون عيون السلطان ، كبير البصاصين وقتئذ بلغ حدا من الدقة والقدرة على استبصار الامور ما جعله يكشف كل مخامرة او مؤامرة على السلطان ، كيف استمر السلطان قايتباى ، كيف عاش زمنا طويلا فوق عرشه ، ثلاثون سنة كاملة ، بمهارة بصاصيه ، يقظتهم ، همتهم ، لجأ الامراء إلى حيلة جديدة ، يخرج الواحد منهم إلى خارج القاهرة ، كأنه يتمشى ، يستنشق الهواء عند بركة الرطلى ، فى بولاق ، بين اشجار الأزبكية ، فى نفس الوقت ، وقت متفق عليه من قبل ، يبدأ الأمير المشى من اتجاه الطريق المقابل ، يلحج الواحد منهما صاحبه ، يزعم عليه ، يصيحان كأنهما لم يريا بعضهما البعض منذ زمن طويل ، ويتبادلان حديثا موجزا مختصرا سريعا جدا يتفقان فيه على عظام الامور ، ثم يفترقان ، من يخامر الظن ، من يشك هنا ؟؟ من تراود عقله ادنى فكرة

ولكن الامر لم يمر عند الشهاب جعفر بن عبد الجواد اذكى من تولى منصب كبير البصاصين فى تاريخ الملوك والسلاطين ، لا يفوقه إلا الشهاب زكريا بن راضى ، ادرك المرحوم جعفر بواسطة عجوز تبلغ الثمانين .. هكذا ظاهرا ، لكنها فى الحقيقة امرأة لم تتجاوز الأربعين ، جعفر اول من استحدث ضم العجائز إلى البصاصين وتعليمهن الشحادة ثم جلوسهن فى الطرقات العامة ، بجوار الأشيلة ، بجوار المقابر ، امام البيوت يطلبن حسنة او صدقة ، لكنهن يرصدن الشاردة والواردة ، المهم .. ادركت هذه البصاصة ما يتم كل يومين امامها ، طريقة اللقاء بين الإمبرين ، كل منهما يلقى الآخر فيصبح عليه : « لم ارك منذ زمن .. » قيل وعلم هذا عند ربى كاشف الغيوب ، إن المرأة البصاصة كانت عمياء ، ادركت الأمور كلها عن طريق اذنيها ، من هذه الواقعة الصغيرة كشف المتأمرون ، كبسهم الشهاب جعفر فى الليلة السابقة على شروعهم فى الركوب على الأشرف قايتباى ، رحمه الله ، اقروا التواريخ يا ناس ، انتم عيون العدل ، انتم العدل نفسه ، كيف تهملون ، كيف تدعون إمرأ يفوتكم .. كيف ؟؟

قام المعلم الصفى ..

« نحمدك يا رب .. جرت الأمور كما نشتهي .. »

يبحث الشيخ القصبى عن عصاه ..

الليلة فى الحمام إن شاء الله .. نغطس فى الماء الساخن ، ننتظر حتى نلقى المحتسب الجديد أطهارا ابرارا .. عند مروره علينا ..

محمود اللبان :

« انت تبغى استرداد عافيتك .. وطرد الرطوبة ،

تترقق الضحكات ، تهتز اللحى ، يميل الليل بسواده ، يحوى النهار المولى ،

يودعون بعضهم بعضا ..

« ربما جئت .. عندى شوق إلى المغطس .. »

« المغطس .. والمكبساتى يا شيخ عمرو .. »

يضحك عمرو ضحكا شريفا ، ترتعش أصابع يديه مرة واحدة ، اصغى إلى مقدم

بصاصى القاهرة ، تحدث إليه معنفا عندما فاته نقل حوار دار بين ثلاثة من مهاجرى

الشوام ، من لحظتها ادرك أنه تحت رقيب عنيد ، احد هؤلاء المعلم الصفى ،

اللبان ، ربما الشيخ القصبى نفسه ، ما عليه ، لن يشغل عقله بهم ، لماذا يتسائل

أيهم يراقبه ؟؟ سيدعوه المقدم ، يسأله ، لماذا فكر فى الوقت الفلانى بمن يراقبه ؟؟

لن يشغل نفسه بهذا ، يا سلام ، تتغير الأحوال دائما ، وتتغير معاملة المقدم ، عندما

ارسلوا إليه اول مرة ، مشى بعدها فى الطرقات والارتياح بغزوه ، اطرى المقدم

صلاحه ، كم من أزهرين فسدوا ، أخبره انه يعرف حاله كله ، يعرف انه لا يعيش

إلا على جراية الأزهر ، لا يصله درهم من بلدته ، بل هو فى أشد الحاجة إلى دراهم يرسلها إلى أمه العجوز ، يومها أخبره المقدم باسم أمه وهو أمر ينسأه عمرو أحيانا ولم يذكره مخلوق ، ليس هذا فقط ، بل أخبره المقدم عن عمرها ، هى نفسها لا تدرى فى أى عام جاءت إلى الدنيا ، ارتج على عمرو ، أصغى ، كيف يضربها زوجها الذى اقتربت به بعد وفاة والد عمرو ؟؟ تعيش الآن فى تكعيبه بوض ، لو جرفتها مياه النيل أو الأمطار لماتت غرقا ، ربما تموت عريا ويردا ، عمرو تغيب عنه أخبار أمه بالشهور ، قال المقدم انه سيوافيه بأحوالها كل أسبوع مرة ، ليطمئن ، يمكن موافاته بأدق أخبارها يوميا ، لكنه لا يرغب أن يشغل باله ، أخبره المقدم بعدد المرات التى قرا فيها القرآن ، كل صباح ، فى عز البرد ، يذهب إلى بيت كبير من التجار ، يتلو الآيات البينات ، يرسل إليه الرجل طبقا به قطعة جبن حالوم وفول مدمس ملء قبضة اليد ، وكوز من لبن الماعز ، ونصف درهم .

« تلاوة القرآن يا عمرو فى بيوت الأعيان لا تليق بمجاور أزهرى ، إنها صناعة الفقهاء العمى ، أنا شخصيا لا أرضاها لك ، لا ارتاح إلى هذا ، يلقننى جدا .. صدقنى يا عمرو يضايقتنى وأنت طالب أزهرى ، ربما أصبحت فى يوم ما ، وهذا يصح بإذن الواحد الأحد الفرد الصمد .. ربما صرت قاضيا كبيرا ، تفصل فى أمور هؤلاء الذين يرسلون لك لبن الماعز والفول المدمس لتفطر ، لتسد جوعك ، بإذن الله سوف تساعد نحن فى أن تصيح قاضيا .. رئيس ديوان .. شخصا له هيبه ومكانة ، إنما دعنا فى حالك الآن .. هل ترتاح إلى هذا .. لا .. لا اظنك ترضى .. لا .. لا لا يا عمرو اعتبرنى أنا شقيقا لك . لا تخف عنى أمرا .. حتى مشاكلك الخاصة ، الخاصة جدا .. بح لى بها وأنا .. أنا وحدى أساعدك فى حلها .. ثق بى .. ثق بى أرجوك ..

بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القديم فى الأزهر ، يقول الأزهريون إن ثمة طلسم مدفونا تحته يمنع العصافير والتعابين والعمالقة من الجامع ، قعد أوقاتا طويلة ، يناجى أمه العجوز ، أمه تعلق جذور الفجل والبطاطا من غيطان بنها ، والبلاد المجاورة ، توفد الأقران ، تنقل الحطب ، تحزم البوص ، تحش النجيل ، لم تعرف راحة ، لم تغض عينها ليلة على هناء شحيح ، من مدة عرف بسفر شيخ زاوية العميان إلى بنها ، جهز زوادته وبغلته وعزم أمره ، عمرو وقفها لا يملك درهما ، الشيخ سيمضى إلى البلدة التى تعيش فيها أمه ، سيرف الناس ، وتعلم أمه بمجىء رجل من مصر ، من الأزهر بالذات ، إبنها لم يرسل معه حتى حفنة سكر أو قماشنا أسود تلف فيه جسمها عاما كاملا ، ربما تظنه ميتا ، دهسته خيل الممالك ، راح فى وباء ، ليلة بطولها لم ينم عمرو ، يضيق به الحال ، حجر هائل كجبل المقطم يرحف إليه ونيدا . دار على أصحابه فى الرواق ، يجلس إلى الواحد منهم ، يخوض فى أحاديث قريبة وبعيدة ، يضحك مع الضاحكين ، إذ يهيم بالسؤال ، ينعقد لسانه ، يرتج

صوته ، تخونه الحروف والألفاظ ، يقول هذا لا يصح ، سامضى إلى آخر ، يعبر
صحن المسجد ، لن يدور لن يلف ، لكنه يجلس فينعد العرق فوق جيته ، يختلط
عليه الأمر ، تخونه الألفاظ ، تشنق المعانى على لسانه ، يدهمه الخجل ، هذا الوقت ،
يذكره الآن بمرارة وحرز كعفار يهب من الجبل يعكر يوما صافها ، لم يعرف وقتئذ
واحدا من المعلمين أو اصحاب المتاجر أو رواد الحمامات الذين يجلس إليهم الآن ،
يتسمع ما يقولون وينقله ، وقتها كان خجولا ، حيبا ، لم يجرؤ على اقتراض دراهم
الزهر يبيعون جراتهم ، أو يستبدلون بها الغموس ، خرج إلى الطرقات بعيدا عن
الجامع ، بادهل أحد المارة رغيقين بقطعة جين قديمة ، فى المغربلين والصناديق ،
والعطرين ، والفحامين ، واهالى الجودرية وسوق الشرايشيين والمارة فى شارع
الصليبية ، والمتسكعين عند باب الوزير ، كلهم هزوا رعوسهم ، قالوا « على الله » ،
وكلما اقترب الليل يزحف سواده إلى القلب ، يرى جبل الحجر أكثر قربا منه ، تعثر
الهواء فى صدره وكبا ، فوق حجر قديم قرب جامع الحاكم عقد ساقيه ، رفع يده ،
إنساب صوته عاليا بالآيات البيئات ، نزل البرد ونفذ إلى حشاه ، يرى عيني امه
فتوشك عظمه أن تضىء بما يشتعل فيهما من هم ، اقترب النهار ، سمع صريرا ،
أبواب الحارات تفتح ، طلعت الشمس وفى يديه أحد عشر درهما ، القاها إليه مارة
مجهولون ، لم يروا وجهه ، لم يعرفهم هو ، اشترى سكرًا ، وحلاوة مقلودة ، وفى
زاوية العميان شق فؤاده نصل ثقيل ..

« الشيخ سافر فى الفجر يا عمرو .. »

هاهو مقدم البصاين فى القاهرة :

« عمرو .. لا اقبل هذا لك .. لا أرضاه لك .. »

فى البدء بدا رقيقا ، أه : يهز عمرو راسه ، لكل أول آخر ، خجله من مخالفة
الخلق ، أين هو ؟؟ ابتعاده عن الناس ، أين ذوى ؟؟ ما يخشاه الآن ، غضب المقدم ،
بعد الهوة الأولى عفا عنه ، الثانية من يدري ماذا يجرى ؟؟ ينفصل الرأس عن
الجسم ، ما أسهل الأمر ، ربما قتلوه بقية عمره حيا ، يصير فضيحة متحركة ، تشير
إليه الأصابع ، يطرده المشايخ ، الحمد لله فحتى الآن لم توجه إليه نظرة ، لم يقل له
أحد كلمة ذات معنى ، ها هو ذا النهار يولى ، لحظات نزول الليل يحلو الكلام ، تكثر
الفضفضة ، أمام دككين باعة الحلوى ، التريزية ، فى زاوية سيدى الحلوجى جماعة
من قصر الشوق يسهرون بعد صلاة العشاء ، يفسرون الآيات ، الأحلام التى طلعتهم
فى المنام ، لا ينفذ غريب إليهم ، لكن مجيء عمرو المتكرر إلى الزاوية ، ادأوه
الصلاة ، تادبه عند إصغائه إليهم ، طول صمته ، هزة راسه لا تنقطع بالموافقة على
ما يقولونه من آراء ، يطلعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاستفادة من رجال خبروا

الحياة ، الموا بالعلوم ، الأيام قريته منهم ، لو تغيب ليلة يسألون عنه ، المقدم يثنى عليه دائما ، يشيد به لنجاحه فى النفاذ إلى هؤلاء ، حديثهم خافت على غير عاداتهم ، توشك اذناه على سماع جديد ، يخرج عن مالوف ما يرفعه ، ربما يبلغ السلطان ، يقترب عمرو من المقدم أكثر ، يبدي رضاءه ، يثنى عليه ، منذ فترة لم يهره عمرو ، يضمن عليه بلقائه ، تقاريره يتسلمها نائبه الحبشى ، يتسائل عمرو ، هل غضب عليه ، هل يدبر له أمرا ؟؟ ما هو ذا المعلم حلیم الدين يعط شفتيه :

« والله يا مشيخ فرحة الناس لا تاخذنى ... »

يتمتم عمرو :

« أى والله .. أى والله .. »

« الأيام علمتنى الحذر ، لم تر منه ما يسر او يضر ، فلم هذه البهجة كلها ، ثم ... »
تنظر إليه العيون ..

« ما اتاه اليوم لا يعجبنى ... »

بسرعة تخرج كلمات عمرو :

« لماذا يا شيخ حلیم الدين ؟؟ »

أه : لماذا التسرع ؟؟ هل بدا فى سؤاله ما يريب ، احدثهم على وشك أن يسأل نفس السؤال ، المفروض ألا يوجهه هو ، ما زالت عنده خفة ، لو الجمع كبير لسجلت عليه زلة من أحد الذين يعرفونه ولا يعرفهم هو ، لكن ، من ادراه ؟؟ ربما تنصت الجدران ، ربما يرفبه أحد ، يقرأ ما تنطقه شفاته بدون الحاجة إلى سماع حسه ، يعلم بوجود هؤلاء البصاصين : ألم يقل مقدم البصاصين : « لدينا طرق لا تخطر على بال إنسى او جنى نعرف بها الحقيقة ، حتى لو همس بها المرء وراء جبل قاف ، . أه : لا بد من التزام الحذر ، بهدوء ليراقب رد الفعل بينهم .. »

★ ★ ★

أول الليل : الأربعاء عاشر شوال :

اخيرا ها هو ذا ميروك ، يحمل لفافة أوراق ، طال ترتقب زكريا لوصولها ، فى الصباح سلمه ميروك تقريرا عاجلا ، اعده مقدم بصاصى القاهرة ، يحوى حركة الزينى بركات ، كيف انتقل من بيته اول الفجر بصحبة طالب ازهرى إلى كوم الجارج ، قضى مع الشيخ ابو السعود زمنا خرج بعده من البيت ، ومع اول مجيء الشمس إلى الحوارى والدروب ، طاف مناد جديد لم يسمعه الناس من قبل ، قيل إنه احد خدم الزينى ، نقل إلى اهل المدينة ما عزم عليه الزينى بركات ، من ذهب إلى الأزهر الشريف ، عنده كلام سيعلنه على الخلق ، مناد جديد لا علم لزكريا به ، صحيح من حق المحتسب إطلاق مناد خاص من عنده ، ينقل إلى الناس رغباته واحكامه ، هذا ما تنص عليه الأصول ، لكن الواقع يكذب هذا ، يلغيه ، جرت العادة منذ عصر الشهاب جعفر كبير بصاصى الأشرف قايتباى ان يتبع جميع المنادين لكبير البصاصين ، ترسل إليه نصوص النداءات ، طريقة نشر الحادثة أو الخبر قد ينتج عنها أمور جسام ، بل ان كبير البصاصين ينبه بضرورة تحمس المنادين عند نقل خبر بعينه أو تصنع الحزن والفتور لحظات نشره ، كلها عوامل تؤثر فى الخلق ، هناك مناطق وخطط فى المدينة يجب الا يطوف بها المنادون ، كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا ؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله ؟؟ ثم إن الزينى بركات لم يحتسب بعد ، كيف يعطى لنفسه الحق فى مخاطبة الناس بلا رقيب ، بلا وسط ؟؟ هكذا يبدأ ايامه بإخلال الأمور ، يعبث بالنظام ، فى بداية النهار كان زكريا مرهقا ، الليلة السابقة قضاها بعيدا عن حريمه ، عن وسيلة الجارية الصغيرة ، لم يمض عليها اكثر من أربعة ايام فى بيته ، حاول النفاذ عبر الايام ، أى احداث مقبلة ؟؟ هذا الزينى لا يثير اطمئنانا ، منذ سماعه باسمه ، ولا يجيء من ناحيته إلا عجائب الامور ، قبيل الفجر أرسل إلى مقدم بصاصى القاهرة يأمره بإعداد ثلاثة مطالب مفصلة ، جمع اقصى ما يمكن من معلومات وبيانات عن الزينى بركات وإرسالها إليه أولا باول ، ثانيا ، استنفاذ كافة بصاصى القاهرة ، لتلتفت عيونهم إلى كل صغيرة وكبيرة خلال تجمع الناس ، إصفاؤهم إلى ما يقوله الزينى ، المطلب الثالث ، أن يرتفع عدد التقارير التي ترسل إليه فى مقره إلى أربعة وعشرين تقريرا ، بواقع تقرير كل ساعة ، على غير المعتاد ، وهو إرسال تقرير فى اوقات الصلاة الخمس ، ثم تقرير مفصل بعد العشاء يتضمن احوال القرى والبلاذ ، إن ما طرد بقايا النوم من عيني زكريا ، ما جعله ياكل بسرعة ، لا يفكر فى وسيلة الشامية إبنة الستة عشر ربيعا ، ما جعله يهمل تهذيب لحيته ، لا يشرب الحليب الطازج المحلى بالسكر ،

تساؤله الملح ، ما الذى ينويه الزينى بركات ؟؟ ما الذى سيقوله للعامه ، باى لسان يتحدث ؟؟ هل هناك سابقه لما سيفعله ؟؟ ابدا ، زكريا يعرف الاحداث والتواريخ القريبه ، والبعيده لم يتحدث محتسب فى جمع من الناس قط ، بل لم يسبقه اى امير ، كبيرا او صغيرا فى هذه الفعلة . تحدث العتيم الى العامه مباشرة يفقده هيئته ، يضيع مهابة الحكم والحكم ، يتطول العامه على الكبار ، اذا كان ناظر الحسبه يتكلم إليهم ، فلماذا لا يفعل مثله الامراء ؟؟ ألم ينبهه احد الى هذا ؟؟ اول النهار دخل زكريا الى قاعة الثياب البديله ، غرقة طويلة ، ضيقه ، تحوى كل ما يخطر على بال من ثياب ، عمام سلطانية ، واخرى لا يرتديها إلا مقدم الالوف ، سلاريات ، معاطف فرو ، سراويل شامية ، جلابيب بدويه ، فرجيات لمشايع الازهر ، قفاطين ، جلابيب رخيصة لبائعى حلوى ، وجزارين ، وتجار فلكهه ، زكريا يعرف مقصده هنا ، انتقى جبة بيضاء متسخه ، عمامه خضراء صغيره ملفوفه بنعال احمر ، امسك عصا من سعف النخيل ، خرج من الباب الخلفى للبيت درويشا من اتباع سيدى مرزوق ، تلميذ سيدى احمد البدوى ، مشى متمهلا ، يتوقف بين الحين والحين ، يطلق صيحة قوية ، .. الله حى .. الله حى مدد .. مشى على مهل يتبعه جيران الأخرس ، احد رجاله الأشداء ، دائما يسافر معه ، يحميه من غوائل الطريق ، ما تخبئه النفوس من حقد ، ربما تجسد فى خنجر ينسل محاولا إيجاد الطريق إلى قلبه ، برغم همه وحيرته ، ابتهج كعادته إذ يلقى نفسه بين الناس ، لا يعرفه احد ، حتى لو التقى به القرب المقربين ، مقدم البصاصين نفسه ، لن يتبينه ، اى واحد من هؤلاء فى متناول يده ، اليس هو عيون السلطان واذانه ؟؟ آلاف الرجال والنساء والاطفال يتبعونه ، لا يعرف بعضهم البعض ، ينقلون الهسات والحركات من البيوت والربوع ، من كل شبر فى المدينة ، إذا شد شهيق إنسان عن البقية عرفه ، نعى إليه بواسطتهم ، لكنه عندما دخل الأزهر ارتاع فعلا ، لم يحدث ان رأى مثل هذه الجموع ، إنتابه غم ، كيف يسكت السلطان ، ايدرون العاقبة من تجمع كل هؤلاء ؟؟ ما يجرى خطأ فظيع . لابد من تنبيه الكبار والسلطان نفسه ، السكوت على الأمر ربما أدى إلى استفحاله ، انتشاره ، هذا ما لا يسمح به ابدا ، هذه سابقه تنذر بعواقب لا يعرفها الجاهل ، هاهو ذا زكريا الآن يفرد اللفافة التى اتاه بها مبروك .. تقارير مقدم بصاصى القاهرة ، جمع فيها وأوجز وأوضح خلاصة ما تلقاه من عيون وأرصاد طوال اليوم ..

« فوق منبر الأزهر القديم وقف ، المسجد يفيض بالخلق من كل لون وصنف زعقوا فارتجت الأعمدة ، وكادت المآذن تميل ، بدا وكان كل قوة ستعجز عن إسكاتهم ، لكن الزينى رفع يده اليمنى ، مفرودة الاضابع (يده عادية ، اصابعه خمس) ، وكان قوة سحرية تسيل منه ، طاف الصموت مغلقا افواه الناس ، قيل فيما بعد انه اوتى مقدرة على جعل الخلق يصمتون ، ولو أراد ان يذرفوا الدموع لفعل ، سرى صوته بين

الناس هانئا ، قال ما معناه :

« لولا ، انه لم يكن يقبل الحسبة قط ، لولا اطلاعه الامراء على ما ترتضيه روحه لراحة العباد ، ولولا الشيخ العارف بالأصول والفروع ، الزاهد التاسك ولى الله ابو السعود ، لما قبل أبدا ..

(هنا علا زعيق الناس ، ردوا « ما نريد إلا انت ، « ما ينفع إلا انت » ، إلى غير هذا من النداءات التي تؤدي المعنى نفسه ، وإن اختلفت الجمل والالفاظ ، عادت يده تهتز بتؤدة فاستكان العامة واصفوا) .

« ثانيا ، انه لا يخشى إلا الله ، كيف يلقي ربه إذا ظلم مخلوق من قبل أحد نوابه وهو لا يدري ؟ هذا مالا يطيقه ولا يمكنه سماعه أبدا ، من هنا ، لو وقع ظلم على إنسان ، فقير أو غني ، ناء أو دان ، فعليه بالتوجه إلى نائبه إن لم يقتص من ظالمه بعد شرح قضيته وظهور العدل فيها .

« ثالثا ، ان يمكث في القاهرة ، إنما سيلف الوجهين ، فقد اضيفت إليه اليوم فقط نظارة حسبة الجيزة ، سيدور ظاهرا احيانا ومتخفيا حيناً آخر ، يطلع على احوال الناس ، أما بيته في القاهرة ، فمفتوح اطراف الليل وأثناء النهار لكل ذى حاجة ، لا حاجب بينه وبين الناس ، صغيروهم أو كبيرهم ، على اختلاف مراتبهم ، لو ظلم احد من البشر فليقتص منه على مرأى من الجميع ..

« رابعا ، وهذا خطير » :

« في كل حارة ، ودرج وقرية ، وبلدة وإقطاع ، ستكون له عيون يرصدون ويتعسسون المظالم أينما تقع ، يبلغونه بها ، .

(بعد خروجه من الأزهر ، شق طريقه راكبا بغلة عالية بسرج متواضع ، وكنبوش عادى (اثار هذا رضاء الناس عنه ، قالوا ، انظروا ، كيف العدل والحكام ؟) ، استمر موكبه حتى وصل سوق الشرايشيين ، قابلته المغنيات بالرقص ودق الشبابة والدفوف ، وانطلقت له الزغاريد من الطيقان ، بين يديه مشى ثلاثة من نوابه الجدد الذين لم يطلع على وجوههم إنسان (جار البحث عن اصولهم) ، اقدمهم يحمل سيفا ، وآخر يحمل ميزانا ، وصنجا ، والثالث يلوح بمصحف كبير يلثمه بين الحين والحين ، خلف الموكب مشى عبد العظيم الصيرفى ، أما الزينى فراح يهز راسه هزا خفيفا وعلى وجهه خشوع وتقوى ..

لفتة أولى :

اجمع رجالنا على وجود طالب ازهرى ، بقى طوال الركب على مقربة من الزينى بركات ، بدا متحمسا ، بالكشف عنه ، اوضح انه هو الذى صحبه من بيته إلى زاوية

الشيخ أبو السعود في كوم الجارح ، واسمه « سعيد الجهيني » .

لفتة ثانية :

عند اقتراب الموكب من جامع الحاكم ، قبيل عبوره باب الفتوح حيث يمكن لعيني العابر رؤية أسوار سجن المقشرة ، ومدخله العلوى ، ظهرت امرأة سميئة ، متقدمة في العمر ، ترتدى السواد ، تنتشج بطرحة قديمة ، شقت لنفسها طريقا حتى وقفت امام بغلة الزينى ، زعقت زعقة عظيمة ، حتى حظيت بانتباه الخلق ، طلع عليها طلوع لا يهتف إلا بكلمة واحدة .. يالئيم يابن اللئيمة . وعندما تنبه العامة هجموا عليها ، ذابت كفص الملح ، وجار الكشف عنها ، وتحرى حقيقتها ، من هي وما اصلها ؟

لفتة ثالثة :

اطلقنا احد البصاصين المهرة في اثر الزينى لرسم صورة دقيقة وافية لملامحه ، سننقلها إليكم فور إتمامها لاطلاكم عليها ، وإجراء اللازم من فحوص .
الآن يطل زكريا من طاقة المشربية ، الشتاء يتدثر لبيل أسود بارد ، نور يلمع في الناحية المقابلة ، تسهر وسيلة ، تخشى مجيئه فجأة ، الليلة لن يحتوى نهديها ، لم ير مثلها طوال عمره ، صلابة وليونة ، رقة وقسوة ، خوف ونشوة ، إقبال وانفلات ، اقتراب وابتعاد ، كرتا عجيب املس طوع راحتي يديه ، يهوى نهودا لم تمسها يد بشر ، هكذا يشترط على عارف شيخ دكة الرقيق ، عارف احد عيونه واخلصها ، عندما جاءت وسيلة فرح بها فرحا عظيما ، استوفى أولا انها قدمت فعلا من بلاد الروم ، ربما دسها عليه امير ابتغاء غرض خفى ، قضى ليلته الاولى معها مبحرا فى محيطات لم يظاها إنس ولا جان ، يرقب الامم الاول اللذيذ ، رعشة تترقق فى عينين واسعتين ، فكر فى تجنب العمل اياما ليرقبها ، يرتشف رحيق العمر الاول ، جاء هذا الزينى فجأة ، اقصاه عن الآمة . وحلاوة الرعشة ، هامو ذا يواجه سلبقة لم يطلع على مثلها ، عليه بالحذر ، والثبات ، سيدكر فيما بعد أنه تصرف بعقل ، بحزم ، ما يقوم به الآن سيراه الخلفاء فيستنبرون ويهتون ، منذ قليل أرسل فى طلب شهاب الحلبي ، سيحضر القلم والحبر الذى يجف بعد مدة بعينها ، مدة تكفى لوصول الرسالة إلى مقصدها ، وقرعتها ، ثم يجف المداد ، يتلاشى ، تعود الورقة بيضاء بعد يومين تضيع الورقة نفسها ، تطير كبخار صباح اضاعته شمس قوية ، حدث فى زمن السلطان فرج بن برقوق ، ان اطلحت رسالة برأس كبير البصاصين ، الآن لا يمكن لمناد ان يواجه زكريا بكلمة واحدة مدونة ، تناقش فى هذا الأمر طويلا مع كبير بصاصى دولة الشاه إسماعيل الصوفى ، قبال الرجل وهو من عتاة

البصاصين ، يحسن بالبصاص الذهب بنفسه إلى الامراء وتقل الموضوع شفاهة ،
 خلاله زكريا ، الحديث لا يروح من الذهن ، ربما شهد عليك جمع من الناس فاطلحو
 بك ، لكن ما الرأي لو وجد نوع من العمداد يخفى ويتلشى بعد بلوغ المراد من
 الرسالة ، لم يقل لكبير بصاصى الشاه انه حصل فعلا على هذا العمداد ، هذه وسيلة
 ينفرد بها ولا يفرط فيها بسهولة ، كبير بصاصى الشاه انكر وجود مثل هذه الطرق ،
 الزمن الذى يجيء يمثل هذا العمداد مازال نائفا ، لكن الليلة ستصل رسائل منه ، إلى
 الامير قنك ، وقاتى باى ، وقوصون ، وطومباى ، وكافة كبار الدولة ، سيشير إلى
 ما اتاه الزينى من امور منكرة تخالف اصول الحسبة ، تتعدى على وظائفه هو خاصة
 بعد إشارة الزينى إلى/ إطلاق عيونه واتباعه ، هل سيستحدث نظاما آخر
 للبصاصين ، الدم يتدفق مغتالفا فى اوردة زكريا وشرايينه ، ربما يعلم اللثيم
 ما يتبعه احد المهرجات فى الهند لا يكتفى بنظام واحد للبصاصين بل لديه ثلاثة
 نواب ، يتبع كلا منهم فرقة خاصة من البصاصين . وهكذا يضمن استقرار الوضع .
 الا ينفرد بصاص واحد بالامور ، وهذا الترتيب يعجب زكريا فيه دهاء من المهرجا ،
 فكر فى السفر إلى الهند ليطلع عليه ، او يرسل احد نوابه المقربين لنقل تفاصيله ،
 لكن مجرد سفر نائبه سيشير الشكوك ، ربما ترمى إلى السلطان خبز الترتيب المتبع ،
 ينتقله إلى السلطنة ، هنا يضيع زكريا ، لا ينفرد بالرأى ، بالمشورة ، لكن كيف يحصل
 الزينى على هذه المعلومات ؟؟ زكريا يملؤه غيظ ، حتى الآن لم تحصله معلومات كافية
 عن الزينى ، ربما يلقى مقدم البصاصين صعوبة فى جمع ما يلزم ، ربما يغفل الغيبى
 عن اهمية الطلب ، لابد من معرفة عادات الزينى ، ساعات نومه ، نسائه ، إلى اى
 البلاد سفر ، كم لغة يجيد ، عاداته فى الفراش ، لابد من استقصاء امر المرأة البدينة
 والقبض عليها مهما كلف الامر ، وايضا الشاب الأزهرى ، يبدو انه مقرب إلى ابي
 السعود ، هذا يلزم له شان آخر ، سيوليه عنابة ، الآن ، يقف فى منتصف الغرفة
 تماما ، يمسك وعاء مملوء بالحليب الساخن المحلى بالسكر ، يجب شربه كثيرا ، بعد
 صحوه ، اول الليل ، يقول ، اواجه نهارى بالحليب الدسم وليكن ما يكون ثم اختمه
 به ، إنه ليس شرها كالأخرين ، الامير قنك يجرع على الريق سطلا متراعا بخلاصة
 مخاصى الديوك ، تنبئء التقارير أن باستطاعته أن يضالج نساء الأربع فى ليلة
 واحدة ، يشبع كلا منهن ويكويها ، ولا يمل ولا يكل ، مع تجاوزه الأربعين ، من
 يدرى ، ربما يفضل الكوب الصبلحى الآن . تدير فى ذهنه خاطرة ، سيخاطب الزينى
 بركات راسا ، صحيح ، المفروض أن يبدأ المحتسب الصلة معه ، باعتبار ان كبير
 البصاصين نائبه ، لكن زكريا سيبدع بجس النبض ، اللبونة المطلوبة الآن ، على ورق
 عادى ، بعداد عادى ، سيامر شهاب الحلبي بكتابة رسالة إليه الليلة ، فى نفس الوقت
 تضى الخطبات الأخرى إلى الامراء .

اللهم اجعل هذا البلد آمنا ،
إلى الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة

نبدا بان نشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة
تقيمها في كل حكم ، وتحاور سيوفنا جاحديها فتنهض بالحجة
عليهم وهم بكم ، ونشهد ان محمدا عبده ورسوله اشرف من انتمر
بالعدل والاحسان ، واعدل امر امته بالوزن بالقسط ، صلى الله عليه
وسلم وعلى اله وصحبه الذين احتسبوا في سبيل الله جل عنائهم ،
وسلم تسليما كثيرا .. وبعد ..

اعلم اننا بدانا إليك بالمراسلة ، وارادنا إطلاعك على ما تحويه المكتبة ، ابتغاء
من العباد ، في سائر النواحي والبلاد ، لانكم ان تطلعوا على خافي الامور ، إلا بما
تلقاه بين المسلمين من عيون ، ولن تصفوا الى ما يدور من تاله الهمسات ذات
لغرض الخطير ، بين الامير والحقير ، إلا باستنادكم الى جهتنا ، والاستعانة بنا ،
لهذا ما سار عليه نظام السلطنة منذ ان وعينا وادركنا ، وجرت العادة الا يتولى هذه
الامور التي تدرا الصغائر والكبائر من الشرور ، إلا نوابتنا التي يخدمها الاف الخلائق
من لا حصر لهم ولا عد ، وهم في خدمة السلطان ورجاله لا ينامون ، وحفاظا على
راحة الرعية يسعون ، يكدون ويشقون ، من هنا راينا الاشارة عليكم ، وإعلامكم بما
يجب ان يتم من جانبكم ، وهو ضرورة إرسال مطلب مفصل إلينا ، كل ليلة ، نطلع منه
على ما تم من مخالفات ضبطتموها ، حتى نعرف من ارتكبوها ، فندرجهم في زمرة
الاشقياء ، ونحمي الاتقياء والاولياء ، كما نرجو الاستعانة بمن يتبعوننا من منادين ،
لمراجعتنا ما يقولون ، ما يوجهونه الى العامة وينقلون ، فهذا الامر الذي يبدو لكم
تالفها حقيرا تترقب عليه عواقب منها الضار والخطير ، يمكننا شرحها لكم عند اول لقاء
بيننا لاننا نهدف الى ما فيه سلامنا ، وللعلم ، فهذا ما درجت عليه النظم والرسوم ،
منذ وقت غير معلوم ، وما نقوم به من زمن ، وما سنؤديه إذا امتدت بنا فسحة الاجل ،
وليست هذه نظما من اختراعنا إنما اصول درج عليها اجداننا .

ولكم سلامنا

عاشر شوال ٩١٢ هجرية

كبير بخاصي السلطنة
الشهاب الاعظم
زكريا بن راضي

بعض مما وجهه كبير البصاصين « الشهاب الأعظم »

زكريا بن راضى الى الساطان والأمراء

« ... وإذا اوضحت هذه المخالفات ، ساعدت ، غير اننى على سبيل
الاختصار اوجز فاقول :

أولا : لأول مرة ، وليس لها سابقة أبدا ، يحدث ان كبيرا يجمع عامة مصر كلهم ،
اساقلمهم واعاليهم ، يخطب فيهم ، مهيجا جوارحهم ، ولا يعلم إلا الله أى جمرة نار كان
ممكنا ان تنطلق فى البلد ، فتقيد ولا تنطفىء ، لولا إستنفار رجالى ، ومحافظتهم على
الامن والأرواح ..

ثانيا : إطلاقه منادين لا يعرفهم أحد ، لم أراجع النداءات ، لم ارتبها ولم اطلقها
الوجهة المقصودة ، ولست بحاجة الى سرد دلالات هذا الأمر الخطير ..
ثالثا : إذعانه ، تلويحه بقرب قيامه بانشاء فرقة خاصة من البصاصين تتبعه ،
يشرف عليها بنفسه ، وتأكد لى هذا بعد اطلاعى على مكاتبات نوابى التى لا تخطىء ،
والتى ترصد حياة الزينى منذ نشأته حتى الآن ، كل ما يدور عنه ، وقصدى من هذا
سلامة الأحوال ، ولا يسعنى إلا التنبيه بما يصبح عليه الحال لو ان كل موظف ،
كبيرا كان أو صغيرا ، أنشأ له فرقة من البصاصين ، يوجهها كيفما شاء بلا رقيب
أو سلطان ، وأنا لن اسمح أبدا بهذا ، وسأحول دونه .. فانا ورجالى فقط عينا
السلطان وأذناه .

رابعا : تقيد التقارير ان العامة بدأت عيونهم تتفتح على الأمراء ، كل منهم يقول
لمماذا لا يزلون أو يخطبون فينا ، أم هم أقل شأنا من الرجل الطيب الزينى بركات ؟
وبعد ، فلا اطلب منكم إلا تبصر الأمور ، وإلا سارت بعكس ما نهدف وما نبتغى ،
واضطرب النظام وضاع الأمن ، وراح السلام .
وأشهد الله ربى ، كاشف الغيوب ، على صحة ما أقول .
« عاشر شوال ٩١٢ هجرية ،

« كبير بصاصى السلطنة »

الشهاب

زكريا بن راضى



● رسم : اميديو بريوسي

لكن ماذا سنأتي به الايام؟ بل ماذا يخيبء اليوم نفسه؟

السراق الثاني

شروق نجم الزينى بركات، وثبات أسرة،
وطاوع سعدة، وامتساع حظها

نداء

يا أهالى مصر
أمر مولانا السلطان
بتسليم المجرم ابن المجرم
على بن أبى الجود
إلى ناظر حسبة الشريفة
الزىنى بركات بن موسى
ليتولى أمره
ويأخذ حقوق الناس منه
ويذيقه ما أذاق لعباد الله الفقراء
المساكين الأولياء
يا أهالى مصر
يا أهالى مصر
كل من وقعت عليه مظلمة
كل من سلبت منه حاجة
كل من راح ماله بالباطل
بسبب على بن أبى الجود
عليه التوجه إلى باب
الزىنى بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة ، والوجه القبلى
ليرد عليه حقه وماله
يا أهالى مصر ..
يا أهالى مصر ..

سعيد الجهيني :

طل به حب هذا البيت واهله ، حجارته ، اخشاب مشربياته ، نقوش جدرانه ، الضوء في فراغه ، قاعة تلاوة القرآن في رمضان ، عالية السقف ، قرب منتصف الجدران نوافذ ضيقة ، يطل من ورائها الحريم ، يستمعن إلى الآيات البينات ، أمنات عيون الغرباء ، من إحدى النوافذ تطل ، ترقبه ، تتأمله ، عيناه تحتويان قطع الرخام الصغيرة الملونة ترصع أرضية النافورة التي تتوسط حديقة البيت الصغيرة ، الحشايا الوثيرة التي تحول بين صلابة الجدران ورقة بدنها ، سماح تما الممرات بقدميها عندما يخلو البيت من الزوار ، راحة خفيفة في صدر سعيد ، لا يعد هنا من الغرباء ، لحظات إصغائه إلى الشيخ ريحان ، يراها بعيني قلبه ، تروح وتجيء في إحدى الغرف ، تنظر من نافذة ، تضطجع إلى حشية ، وسادة ، منذ سبعة شهور ، ثالث أيام عيد الفطر جاءت ، مال رأسه ، منقل بحيرة ، يخجل ، باضطراب ، احتوى راحة يدها الصغيرة الدقيقة ، رعشات الأمل في قلوب المنتظرين ليلة السابع والعشرين من رمضان ، همسات نهار وليد ، أه من ذوبان الوجد ، لا يراها جسدا ونهدين ، ونحرا وجيدا وعنقا ، هي إلى الروح أقرب ، طيف خيال ، وشوشة لا تمس ، سوسنة لا تقطف ، عينا ملاح فيهما حيرة ، في الطريق يرى الحريم ، متشحات ، سافرات بلا براقع يجردهن في عقله من ثيابهن ، قطعة قطعة ، تستند امامه بظهرها إلى حشية ليست مكسوة بحير ، كلما جرد الواحدة منهن ، عاد يكسوها ، برفق ، بانانة ، بأصابع ترعشها نار الرغبة يسحبها ، يبدو لحم الذراعين ، تكور النهدين ، ثم انبساط لحم البطن ، يتوه عندئذ بنظراته في الفراغ ، يروح بخياله إلى بيت « انس » ، يقصده اصحابه المجاورون الذين يجرى المال ميسورا بين اصابعهم ، يقال انه يحوى قاعة فسيحة تمتلىء على آخرها بحشيات وروميت ، قيل انه توجد هنديات ، في العام الماضي جاءه مال بعد نسخه كتابا في المنطق لأحد مشايخ الصعيد ، ألح اصحابه في الذهاب إلى بيت « انس » ، عصر اصابعه ، هز رأسه مرات ، رفض ، لا يدري ما الذي دفعه إلى الرفض ؟؟ يعرفه الطلبة المجاورون ، أهلى الربوع والحارات في الباطنية طيبا ، رقيقا ، متدينا ، يسرع إلى نجدة من تضيق به الأحوال ، يسعى لتخليص امرأة من يدى مملوك يبغى اختطافها ، يزعم مناديا الطلبة ، الأزهريين ، مهيجا الرجال ، يلتفون حول المملوك ، يقول عامة الناس ، لو أوتى سعيد قوة قرملمس المصارع لما جرؤ مملوك على اختطاف قشرة حبة فول من سلة تحملها طفلة ، لكن الله خلقه ضئيل الحجم ، كثير الأمراض ، إذ يرقد فوق حشيته القديمة بالرواق ، يتوافد إليه الناس على اختلاف اصنافهم يسألون عنه ، ماذا

لو عرفوا ارتياده بيت « أنس » ، دفعه دراهم ليمتلك امرأة بعض الوقت ..
« لا يتعارض هذا مع ذاك يا سعيد .. »

ينفى الخاطر والفكرة ، تحوم سماح من بعيد في عقله ، سره الدفين الذى اقام عليه
ارصادا دونها ارساد ، لا يمكنه رؤيتها بعينى عقله عارية ، لو تقف فى حمام ، كل
ما ترتديه قبقلب خشبى عال يمنع عن باطن قدميها الماء القذر ، سماح خلاصة نساء
الارض اجمعين ، منها تفرعن ، عنها اخذن ، إليها يعدن ، فى المستقبل البعيد
لا يراها إلا معه ، ينظران معا من طائفة مشربية ، يمشيان فى حديقة ، يسافران بلدا ،
منذ ايام يشتد البرد ، فى البرد يرى سماح موطننا ينبع دفنا وسلاما .
قال الشيخ ريحان :

« هيا بنا إلى الغرفة العلوية .. »

طلع سلم البيت الداخلى ، كان لانفاسها اثرا تعلق فى الهواء ، تجسد إلى ابد ،
خاف أن يسمع الشيخ ريحان دقات قلبه ، يرى ارتجاج امره واضطراب لونه ، يتربع
الشيخ فوق وسادة خضراء كبيرة ، ينفث الدخان هادئا ، تفرقر النرجيلة ، قام نصف
قومه ، مال عليه سعيد ..

« شتاء العام لم تر منه بردا بعد .. »

« ليس باردا كالسنين الماضية .. لكنه فى الرواق لا يطلق .. »

تتوهج الحجرات ، يسقط شئ ما فى البيت ، ربما وعاء ، علبة تمسكها ، الليل هنا
ناعم فيه هدوء البيت ، وامن عائلى ..

كاد ممالك طشتمر يطفنون فى الناس اليوم .. لولا خروجنا من الازهر والوقوف
بينهم وبين الناس ..

« ياه .. لم اسمع بهذا فانا لم اخرج طوال النهار .. تقول ممالك من ؟؟ ، طشتمر .. »

« غريب .. كان هادئا .وماليكه لا بأس بهم .. ما الذى غيره ؟؟ »

« ابدا .. كان الأمير خاير بك حط فى حقه كلاما عند السلطان .. واشيع ان السلطان
ينوى اعتقاله .. »

« .. يا سلام .. طول عمره طشتمر متهور .. متهور .. لا يسمع الكلام ابدا .. »

هنا بصمت سعيد ، يبدو الأمر مسلما ، لكنه يبرره ، يبحث فيه عن فضيلة ما لانه
صادر عن والد سماح ، دائما لا يجيء اسم امير ، موظف عظيم إلا يسارع قلنلا
ومؤكدا بوجود رابطة قوية بينهما ، احيانا يؤكد سعيد ما يقوله الرجل بسؤال
او استفسار ، كان يقول منذ متى تعرف طشتمر يا عمى ؟؟ هنا يتراجع الشيخ ريحان
إلى الوراء ، يزقق مناديا الخادم ليحضر جمرات للنرجيلة ، يا سلام .. طشتمر ربيته
انا على يدى .. كان يجيء هنا عندى وقت ان كان مملوكا ضعيفا ، عرفته قبل زواجه
بخوند زينب امراته الاولى ، سعيد لا يعرف احقا تدعى امرأة طشتمر خوند زينب ،

أو لا ؟؟ إنما يقول : « اذن طشتمر والامير ملكتمر الساقى من ... لا يدعه الشيخ يتم
علامه ، يسارع قائلا ، « ملكتمر .. ملكتمر هو الذى انصفنى على موسى بن اسحق عند
اختلافى معه فى بعض امور بيت المال .. استدعانى ملكتمر فى منتصف الليل تماما ،
أى والله منتصف الليل ، طلعت إليه فى القلعة نفسها ، انا ذهبت إلى القلعة مرات
ومرات هذا لم يتفق لأحد غيرى ، المهم أنه قبل يدى ، أى والله ملكتمر قبل يدى فانا
اكبر منه سنا قال .. إنه يعرفنى صالحا تقيا ، لهذا سيلغى أمر موسى بن اسحق
تماما ، واذكر أنه ربت بيده على كفى .. فامسكت ذراعه .. بالضبط يا سعيد يا ولدى
امسكت بذراعه .. »

« وعندما جاء الزينى بركات بنفسه تفرق ممالك طشتمر .. بل قبض على أربعة
منهم وارسلهم إلى المقشرة ، .. »

« الزينى .. بركات .. أه .. كان المفروض ان أزوره منذ يومين .. »

« الزينى بركات ارسل إليك يا عمى ؟؟ »

ياه ، تسرع سعيد بالسؤال ، فى كل مرة يسكت ، لماذا الآن لماذا الآن بالذات ؟؟
« الزينى صاحبى .. كان المفروض ان أزوره لولا صحتى التى لا تساعدنى .
« قواك الله .. »

« أى زينى يا ولدى .. امثاله كانوا لا يدخلون على إلا بصعوبة ، يسعون فى
ركبى .. الا قل لى .. هل الناس راضية عنه ؟؟ »

« جدا .. »

« اعرفه .. فهو عادل واهم ما فيه انه عاقل .. عاقل جدا ، ما آخر اخباره ؟؟ »

« لم نعد نرى المنادين التابعين لركبنا .. »

« زكريا بن راضى .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. اخفض حسك يا ولدى .. ربما

سمعنا .. »

الآن ، تنسال مرارة فى حلق سعيد ، أى طالب مجاور لا يجروء على لعنه ، سعيد
يلعنه فى سره ، يعرف امتداد ظله بين الأروقة والحجرات ، إلى محراب المسجد ،
تحت حصير الجوامع ، غرف النوم فى البيوت ، يقول عنه الشيخ أبو السعود ، هذا
من علامات الساعة ، لا بد من بقاءه فوق الدنيا ممثلا لإبليس حتى يتعذب الخلق
أضعافا مضاعفة ، وقتها تضليق سعيد من كلام الشيخ أبو السعود ، ربما يقول هذا
لعجزه عن الإمساك بزكريا بن راضى ، باستطاعة الشيخ أن يفعل ، لا يحلجه إنسان ،
لكن أين زكريا ليمسكه ، لم يره أحد ، يقال إنه يقيم فى أكثر من مكان ، لا يدرى أحد
عمره الحقيقى ، يعرف الناس مقره الأصلى ، بعيدا تحت جبل المقطم حيث يتهامس
البعض بسماهم صرخات بشر يجلدون ، تحرق أطرافهم ، يخوزقون ، لكن هل يقيم
زكريا هناك فعلا ، يقول انه ينام كل ليلة فى مكان مغاير ، إن وجهه لم يره إنسان ،

حتى الشيخ أبو السعود ، مرة ضاق سعيد بنفسه حتى بعد اختفاء ثلاثة مجاورين غوبيين ، دائما يعيشون معا ، يقرأون في مصحف واحد ، ياكلون في قصعة واحدة ، ينلمون ملتصقين ببعضهم حتى تراهم فتظنهم شخصا بعينه ، هكذا تعودوا ، بين الحين والآخر ، يختفى مجاور أو طالب ، أحد العالمة من السوق ، لا يدري أحد عنه شيئا ، يترك ذهابه خوفا وعكارة في النفوس ، من يدري ، ربما جاء الدور على هذا لو ذاك غدا ، عند اقتراب الأثر الذي أحدثه الاختفاء من الزوال ، يضع إنسان من جديد ، ترتجف القلوب ، سعيد لم يطق نفسه عند ذهاب الغوبيين ، تمنى لو زعق محرضا الأرض والنجوم والقمر والكواكب ، يوقظ الأحاسيس في الجماد ، يومها قطع الطريق جريا إلى كوم الجارح ، اصغى إليه الشيخ قال « احقا سبوا زكريا .. هكذا سمعت ، سعيد لا يدري ، دائما يتحدثون لغتهم الغريبة ، لغة لا يفهمها أحد ، كيف وصل الأمر إلى زكريا إذن ، كيف ؟ يقول العالمة ، لدى الشيخ أبو السعود خاتم عليه رسم سيدنا سليمان ، يمكنه فك طلاسم الجان وتسخيرهم لأغراض الإنسان ، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضى إلى جبال واق الواق ، لا يرجع أبدا ، لو شرع في العودة فسيقطع المسافة في ألف ألف سنة ، سعيد لم يقل هذا للشيخ ، يعرف غضبه وهياجه إذ تنسب إليه الخوارق ، في المساء خجل من روحه ، كل أمر يطلب تحقيقه من الشيخ ، تلا سعيد ، « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

« ابق لناكل معنا » .

يحن إلى مذاق طعام بيتي ، مرق تشرب منه سماح في الليلة نفسها ، ملققة ربما لامست شفتيها ، لكن كريبا يؤرقه ، لا يطبق بقائه في مكان واحد ، الشيخ ربحان لم يلح ، نس سعيد قدميه في نعليه ، يعبر الممرات الصغيرة في الحديقة بمفرده ، يهم برفع عينيه ، لو أنها تنظر الآن ، لو يراها مقدار ساعة ، يقضى والله عمره متنقلا فوق مآذن الدنيا ، زاعقا باسمها في وجه السماء ، معلنا ما يتقلب في صدره ، يعبر البلاد كما اجتازها مولاه ، زاده عيناها ، أه لو تصغى إليه ، أه لو يركبان في زورق عبر النيل ، ايليهما في التيار ، تنثر رذاذا ابيض ، يراها في مدينة لم تعرف الطواعين لا يموت الإنسان فجأة في عرض الطريق ، لا يتوجع امرؤ لمخطف إبنته ، لا يساق الفقراء إلى الجب ، إلى المقشرة ، لا تقضى أعمار في سجن العرقلة ، لا تنزع يد من جسم لأنها سرقت خياره ، سماح تطل على طريق لم يجس فيه أحد ، يحتضنها بذراعه فيضحكان ، تمضغ لبنا جاءها من العجم ، في عزلة الليلية ، بعد نوم صحبه في الرواق ، تجيئه سماح ، همسة دفاء يجود بها برد صنين ، رعشة ريح باردة في قيظ صيف عفى يخنق الأنفاس ، لا يذكر لون شعرها ، لكنها أمل النجاة من دهر باكملة ، هاهي ذى الحواري تنقل عليه ، جمال مثقلة بالدريس ، إلى أين ؟ أى مكان يحتويه ؟ يمكن الذهاب إلى الحمزاوى ، العطارين ، يخجل من المعاملة

والنحيات ، يعرفونه ، الآن لا يطبق البقاء فى الرواق حتى الصباح ، فراغ خانق
لو بقى وتناول العشاء ، لكنه اكل مرتين فى اسبوع واحد ، يجب الا يقل عليه ، ربما
اصبح موضوع حديث بينها وبين امها ، مجرد تخيله ما يقل يرجفه خجلا ، هل
يذهب إلى دكان « حمزة » يشرب الحلبة المطحونة المخلوطة بالسوسم والحليب ،
يبلع الخلق احاديثهم ، يستقصى حديث الهموم ، دكان « حمزة » يمتلىء بعد
العشاء ، بمدخنى الحشيش ، ربما قال الناس ، انظروا تلميذ ابى السعود ينسطل
ليعرف كيف يصلى الفجر ، إلى اين إذن ، يجب استقراره فى مكان ، لو تكرر مروره فى
نقطة معينة بالطريق يرصده البصاؤون ، يصل اسمه إلى زكريا ، يوقن من وصول
اسمه يوما ما ، يريد تأجيل هذا الوقت إلى حدث يستحق طلوع اسمه هناك ، من
يدرى ؟ ربما مئات الصفحات عنه املم زكريا ؟ هل يغفل رجاله عن سعيد ، عموما
زكريا لا يملأ كل شىء كالعادة ، هذا ما يحسه سعيد ، لم يخبره احد ، لم يطلعه كبير
على سره ، إنما هو واقع اقرب إلى الوعى والإبرك ، لأول مرة يطوف مندون فى
طرقات القاهرة لا يتبعون زكريا ، قلة فقط يعلمون بتبعية كافة المنادين لنقيب
البصايين ، بل إن الشعراء فى المقاهى وارياب المغانى والطرب ، اصحاب فنون
الرقص ، الحواة ، وعاظ المساجد ، يخضعون بشكل او باخر إلى نقابة البصايين ،
من هنا يعى سعيد حقيقة مرور مندلين يرتدون سروالا ازرق وقيصا اخضر حوافه
محللة بالقصب ، زى جديد يعلن تبعيتهم لناظر الحسبة نفسه ، لم يكتف الزينى
بهذا ، إنما رتب مرورهم ، اول النهار ، بعد الغداء ، قبيل المغرب ، قبيل العشاء ،
ينطلقون بلا حرس ، كل ما يانديهم عصا قصيرة ، يقرعون بها طبله صغيرة ، ينقلون
إلى الناس ما استجده الزينى من امور ، يحرضون الناس على كشف كل غشاش لئيم ،
عندما استمع سعيد إلى هذا النداء بالذات تردد فى قبوله وانتابه شك ، لو تاجر
كبير ، قريب لوزير او امير ، قريب الزينى نفسه ؟؟ هل يجرى عليه ما جرى للأخرين ،
لم يحدث هذا ولو حدث لبدأ امرا عجيبا ، بعد النداء بايام ثلاثة ، سمع سعيد
ضجة ، تجمع الناس حول مناد يرتدى الثياب الجديدة ، ما الامر ؟؟ ترزى من ناحية
المغربلين ، ليس خياطا صغير الشأن ، يفصل الفرجيات والقفاطين للامراء ، لأرياب
الدولة ، تجاوز الأربعين لكن الله ابتلاه بداء مكين ، وافتاء مشيه فى سوق الخيامية ،
اعجبه غلام صغير ، قال للغلام ما اسمك يا شاطر ؟

قال اسمى كمال ، قال تعال آخذك إلى ابيك فى الجامع لأنه ينتظرك هناك
وساشترى لك سنبوسك ، غير ان اللعين سلكه إلى خرابة قديمة وراء الجامع
الازرق ، مال عليه ، لم يحتمله الغلام فلغز من ثلاث جهات ، وذهب إلى اميه
يصيح غارقا فى دمه ، طلع الرجل إلى الزينى بكيا ، امر الزينى بإحضار القرزى ،
سأل الغلام ، اهذا هو الرجل ؟ فأوما الطفل بكيا ، زعق الرجل ، الولد كذاب ،
فضربه الزينى على وجهه ، قال : الاطفال لا يكذبون . امر بشهره

على حمار في القاهرة كلها ، وسجنه بالعرقانة ، حتى يكون من امره ما يكون ، طلع إلى الزينى بعض المشايخ قالوا ، ما جرى يحدث كل يوم ، مالوا في كلامهم . لم يصرحوا ، إنما لمحوا ، الرجل يعرف بعض الأمراء ممن يتربدون عليه ، وهؤلاء ربما .. يعنى .. ربما ، قيل إن الزينى قام واقفا ، نثر فيهم ، امر بإخراجهم ، قال لن تحدث فاحشة في زمانى أبدا . أنا ما أخشى إلا هو ، أشار بإصبعه إلى السماء ، قيل بين العامة ، انه ضربهم على اكتافهم بمقرعة مقيضها عاجى ، مزخرف ، بذهب ، زعق كيف تلقون ربكم يوم القيامة ؟ سعيد خشى على الزينى ، خاصة أن على بن أبى الجود الذى تسلمه منذ عشرين يوما ، لم يعلن المنادى خيرا عن اكتشافه المال المخبا ، ما يهيم السلطان المال ، ربما وجد زكريا الفرصة ليوغر صدر السلطان ، عندئذ يقبل الزينى من الحسبة ، الوقعة الدائرة الآن بين طشتمر وخاير بك ربما غطت بعض الوقت ، لكن .. ما هذا ؟ يطلق سعيد من أجل الزينى ؟ أيتمنى سعيد وقوع العذاب بعلى بن أبى الجود ليفشى سر المخبا من ثرواته ، أيرجو العذاب لإنسان ما ؟ حتى على بن أبى الجود ، طبعا ، وكم إنسانا عانى ما عانى منه ؟ كم ؟ ثم إن يوقع به الله عذابا أشد ولنكى يوم القيامة ، لا ينكر سعيد قرب الزينى من روحه ، عندما اقترب لإبلاغه طلب الشيخ أبو السعود ، كان الوقت ليلا ، خرج إليه الزينى ملثما ، عمامته صغيرة ، ثيابه عادية شان فقراء المتصوفة . مشيا صامتين . ينظر إليه سعيد من طرف خفى . رائحة ثيابه تدفع إليه ذكرى بعيدة لخاله في قرية نزة ، الصوف الممزج بعرق الرجولة ، رغبة راودته . لو يراه بعض أصحابه يمشى مع رجل يذكره كل لسان في القاهرة اليوم كله . فى أى الملامح يكمن الإباء ؟ القدرة على رفض منصب كبير ؟ كل من صدر مرسوم بتوليته وظيفة من وظائف على بن أبى الجود انتابته فرحة . بقوا فى بيوتهم يتلقون المهنئين ، أما بركات بن موسى المرشح لأخطر وظيفة . رفض . يندر الرفض فى زمن بخيل بكل ما يحلم به المرء ، بعد سكوت قال سعيد « امرنى إلا ارجع إلا معك » . لفتته منه وهزة رأس . خجل سعيد . ربما يفكر فى أمور خطيرة . فجأة قال « مولانا لا يمكننى ان اعصى له أمرا ، وتتابعتم أسئلة الزينى . أخبره سعيد بأمرة كيف جاء من البلدة . كيف التقى بمولاه ، تردده عليه ، رفقته له ، أخذ العلم عنه ، بقاؤه عنده طوال وقته ، الآن يذكر أسئلة الزينى ، ثم صمته المفاجيء لا يدري سعيد ما يجرى بينهما . أمره الشيخ بالعودة إلى الأزهر . من يومها لم يقترب سعيد من الزينى . فيما عدا موكب عودته من الأزهر . لكنه مشى منفردا بين الخلق . لا يدري الزينى بوجوده ، لا يصغى إليه . آخر المنادين طالب منذ ساعتين ، لا يدري مقاله للناس . فى الأسبوعين الأولين يتجمع الناس بقصد الفرجة والاستماع إلى ما يقولون . بمرور الأيام خف زحامهم ، أما الأطفال فلا يفارقونهم . الآن . يقف سعيد فجأة يبدو انه اقترب من حارة قصر الشوق . رجل يمضى

مسرعاً . أليس هو ؟ لماذا توقف . تجمد . أي حيرة انتابته . لا يذكر طول القامة .
يذكره ممثلنا ونحيلنا . معتدلاً وذا حذبة . لا تثبت صورته في الذهن . إنما هذا
الماشي هناك . هو هو بعينه . اجتاز حارة بيت المال . يمضي طريق إلى حارة بيت
القاضي . آخر إلى مسجد الشهيد الحسين . اختفى . لكن أين الحرس . كيف يامن
على روحه ؟ وإذا كان هو الزيني بنفسه . هل رآه .. هل عرفه ؟

★ ★ ★

نداء

يا اهالى مصر
نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر
اليوم ..

خرج السلطان إلى الريدانية
بدا لعب الكرة، وكله عافية
امده الله بالصحة والقوة

يا اهالى مصر
ما زالت الوحشة والقطيعة مستمرة
بين الأمير طشتمر والأمير خير بك
وكل منهم مترصد للآخر .. فانتبهوا ..
يا اهالى مصر ..

العطار صابر بن الحمزاوى غش فى الميزان
وباع الحلبة مخلوطة بالتراب الناعم
غش المغات ، ودس السقنقور الهندى
وعنده منه الكثير ، حتى يغلو ثمنه
لأنه الوحيد تلجر السقنقور
راى الزينى بركات بن موسى ..

ناظر حسبة القاهرة ، والوجه القبلى
منفذ تعاليم الشريعة ، وحافظ حقوق الناس
وخادم السلطان

بتغريمه مائة دينار
والحوطة على مخزونه من السقنقور
وتوزيعه على سائر العطارين
لينتفع به المخاليق ، وتسعيه بثلاثة دراهم للواحد
والله منتقم من كل غشاش لنيم
إتعضوا

يا اهالى مصر
يا اهالى مصر

زكريا بن راضى : صباح الثلاثاء سابع ذى القعدة ٩١٢ هـ

يخلو إلى نفسه تماما إذ يتأمل طفلا ، يداعبه ، رقة العمر الأول ،
ريش العصافير وسخونة جلدها الرهيف ، لو يبقى الإنسان طفلا
إلى الأبد ، يحرك اليدين كما يشاء ، يضحك فى كل اتجاه ، يحبو ،
يعبث ، يبكى فتهرع نفس حانية تجفف الدمعات ، الأوهام
والمخاوف لا تتخذ من قلبه الصغير خانة أبديا ، يرى الدنيا بعيني
الدهشة والتساؤل ، محال هجرة زكريا عبر الزمان قاصدا بداية
سنيته . أحيانا يوقن أنه لن يمر بمثله أبدا . لا يذكر يدا ملست عليه . أصعب
الظروف لم تمنعه من رؤية ابنه الأول والأخير حتى الآن . يس . يجيئه ملفوفا فى
قماط قطيفة سوداء مطرز بذهب ، يحمله ، أمه زينب ترقبهما ، تحكى أخبار يس . كم
مرة أرضعته . ابتسامته الهادئة عندما راح فى نومه . إذ يستيقظ كان عينيه تبحثان
عن الغالى أبيه . تعثره فى الحروف . تطيل الحديث . يس هو ما يقربها إلى الرجل .
تتباهى وتعلو على بقية حريمه وجواريه . لم ينبج منهن . أما هى فولدت له يس .
تجاهل أحمد الذى جاء منذ أربع سنوات . ذهب بعد شهر . أمه الحبشية لا تزال
تقيم فى البيت . مجهولة لا يعرفها أحد ، لسعة حزن حارقة نغشى قلب زكريا بين
الحين والحين ، لم تطفئها السنون . تخفف حدتها . أشد الظروف فظاعة لم تعطله
عن لحظات يمضى فيها إلى يس ربما يوقظه آخر الليل برغم تحذيرات أمه . يلاعبه .
يناغشه . من شهر أمسكوا فى خان الخليلى تاجرا روميا قيل أنه يكاتب ابن عثمان
بأخبار الدولة أمسكه رجال زكريا . راقب عقابه بنفسه . تعصير أكعابه . حرق جلد
ظهره بنار هادئة . ومبروك قائم على تعذيبه بهمة عالية . بإخلاص وتفان . نزل
الصمت كالجنة على بقية المحابيس فى حفرهم . وهم يصفون إلى صرخات الرجل
الذى لا تنفذ إلى الفراغ الخارجى أبدا . يعرف زكريا أى رعب يمتلكهم . ما يقع فى
أرواحهم من رعب والآلام عند سماعهم أوجاع إنسان آخر يجهلون منه الاسم حتى ،
أكثر مما انتزعت أسنان الواحد منهم بكماشة محماة ، خاصة حديثى العهد منهم
بالحبس ، من يدري ، ربما جرى عليهم ما جرى على المنكوب الرومى ، طال صمته .
لم ير زكريا إلا تقلص وجهه ، جحوظ عينيه وتضخم أنفه ، تدلى فكه . لكنه لم يفه
حرفا . ما اغاظ زكريا ، ما كاده ، تأكده من وجود شركاء للرجل . بعد مرور نهار
بأكمله . أمسك زكريا بسبخ رفيع طويل كالإبرة محمى ببطء ، على مهل راح يدفعه فى
بطن الرومى ، حول سترته ، زكريا يختنق بدخان اللحم المحترق ، خرج ، نفذ الهواء
من أنفه كما يتجرع الماء ، عبر الفناء إلى جناح حريمه ، طلع السلم المؤدى إلى غرفة

زينب ، سأل : هل نام ؟ أومات .. نعم ، قال : أريد رؤيته ، بالتأكيد غمرتها خيبة أمل ،
تأمل قضاء الليل معه ، بقاءه عندها حتى الصباح ، لن يكتمل تظاهرها على بقية
الحريم إلا بنجاحها في استبقائه الليلة كلها ، طلب رؤية يس مرة أخرى ، قالت ..
نائم منذ فترة يا سيدى ، قال بصوت أجوف أرعشها خوفاً أنا لم أقل صحبه .. مشيت
أمامه ، بين الحشايا رق وجه الطفل مُستديراً مغمض العينين ، قمر بين غمام ، بشرة
تفاحة ملساء ، قماش حريرى يشف عن ملامحه ، قرب الشمعدان منه ، تمايل الضوء ،
بقي مقدارا من الزمان ، يرحل وجه الرومى مبتعدا ، قالت المرأة : هل أخلع القفطان
يا سيدى ؟ اعتدل فجأة ، لم ينتظر إليها إنما مضى إلى الباب ، تقارير اليوم
لم يراجعها ، ثمة ما يجب رفعه إلى السلطان بخصوص الرومى ، أسرعت خلفه ،
خبية أمل لا تخجل من التوارى فى صوتها .
الآن ، ينزل زكريا السلم الطويل إلى حوش البيت ، ينفذ الريحان إلى صدره ،
وشيش سعف النخل ، أشجار غريبة أرسلها إليه كبار البصاصين فى الهند ، فى
اليمن ، فى الحبشة ، فى ركن الحديقة الأيمن ، زهور صفراء قليلة ، لا ينسى إحداها ،
همسة تجسدت زهرة ، رقيقة صفراء ، حوافها بنفسجية ، قلبها أحمر قان ، به ثلاث
ذرات من لون أخضر قاتم ، رأها تتفتح أمامه ، شهد إطلالها على العالم أمام عينيه ،
ينكر المنظر متعجبا ، فى الحديقة أقفاص صغيرة تضم عصافير غريبة الخلقة ،
صباح بعضها غريب ، الآن لا همس لها ، فى الشتاء يرى عصافير طليقة ، أخبره
علماء الطير أنها تجيء من بعيد ، من بلاد ليها ستة شهور ونهارها ستة شهور ،
تذهب مع الشتاء بجيء الصيف قلحلا منها ، زكريا يؤرخ اليوم الذى يرى فيه أول
العصافير فى حديقته ، يتساءل ، أهذه العصفورة بعينها هى التى جاءت فى العام
المنقضى ، كم تعيش إذا لم تغتلبها يد صياد ؟ تموت موتا طبيعيا ، أمثل هذه
المخلوقات يموت ؟ فكر فى إطلاق المنادين ليأمرؤا الناس بالكف عن صيد العصافير
لكنه تراجع ، ربما ظن بعض الأمراء الظنون ، ربما قوبل أمره باستخفاف ، هل خلت
دنيا زكريا من المشاغل تماما حتى يأمر بالكف عن صيد الطيور ، فى الأيام الأخيرة
يكثُر من تأمل عصافيره حبيسة الأقفاص ، مداعبة يس ، لكن ضيقا وقلقا يزحم صدره ،
يضيق عليه ، لولا الطيور ويس ، الخروج بين الحين والحين متخفيا ، سفره إلى
إقطاعه فى سرباقوس ربما طق له عرق من الغضب ، لكن صبورا ، مثل هذه الظروف
تتطلب ليونة وبأسا ، لم يصله رد الزينى ، حتى شك فى وصول الخطاب ، لكنه
استوثق من وصوله بين يدي الزينى نفسه ، تعب جدا حتى تأكد من وصول الرسالة ،
ما من بصاص واحد يتبعه يعمل فى بيت الزينى ، ومقدم بصاصى القاهرة لم يهتم
بدفع بصاص إلى بيت الزينى من قبل ، فلم يكن به شأن يذكر ولا حس يسمع ، وعد
بإدخال عين إلى البيت ، حتى خدم الزينى لم يعرف واحدا منهم ، كأنه أحضرهم من

بلد غير البلد ، بينما واصل المقدم إطلاق عيونه في إثر هذه المرأة التي طلعت اسم
 موكب الزينى ، زعقت في وجهه .. يا لنعيم .. إذن هي تعرفه ، ربما أدى الإيقاع بها إلى
 كشف المستور من سيرة الزينى ، قال المقدم في أول تقاريره ، هي امرأة بلا أهل ،
 سكان بين السيلج وشارع أمير الجيوش وباب الشعرية ، يعرفونها ، يرونها أحيانا
 منذ صغرهم ، لا يعرف بيت لها ، قيل انها تنام في أحواش الموتى خارج باب النصر ،
 واسمها أم سهير ، وقال آخرون بل اسمها « مسكة » ، وليس لها بنت اسمها سهير ،
 وحدث أن شتمت الزينى في شارع الصليبية مرتين ، وفي شارع المعز ولكنها لم تظهر
 كان الأرض انشقت ، ابتلعنها ، وقيل في تقرير بصاص موثوق به مكين ، أن رجلا
 عجوزا يجلس بجوار سبيل بشتك دائما ، معصوب العينين ، حدث فقال : هذه المرأة
 تذهب إلى الزينى بركات بن موسى ، تعانقه ، يتبادلان البكاء ، تحتضن رأسه بين
 يديها ، تناجيه بأرق الالفاظ ، ثم تخبره بالأمور المقبلة القادمة وكل ما يحدث له
 وما يدبر ضده ، قال العجوز انها تخلوى عددا من الجان يخدمونها ، ويأتونها بصديق
 النبوءات ، اما من هي ، فلا يعرف العجوز ، متى تخلو إلى الزينى ، لا يعلم ، لماذا
 زعقت في وجهه أمام الخلق ، فهذا ما لن يطلع عليه مخلوق ، والمج العجوز إلى
 احتمال قيام صلات خفية بين الزينى وعالم الجن ، الزينى تجاهل الخطاب ، كأنه
 لم يقراه ، لم يطلع عليه ، شهاب الحلبي سأل منذ أيام ، هل وصل رد من الزينى ،
 زعق زكريا في وجهه ، ثار ، منذ متى تسأل عن رد خطاب كلفتك بكتابتك ؟ أهذا
 ما علمته لكم ؟ اتعرفون ما عاقبة الثروة الكلابية ؟ عاقبة الفضول ، الكلمة التي
 تخطها يجب أن تنساها ، إرتعب شهاب الحلبي ، أشد ما يخشاه غضب زكريا ،
 الأدهى من ذلك ، لو ظن شيئا من وراء السؤال ، ربما ارتب ، هنا لا يدري شهاب
 الحلبي ما قد يفعل به ، عمله الطويل لا يغفر له أى رلة مقصودة أو غير مقصودة ،
 دائما يردد زكريا على مسمعه قصة نائب كبير البصاصين العثماني الذي وصل إلى
 أعلى مراتب دولة البصاصة في دولة ابن عثمان ثم اكتشف أمره بعد العديد من
 السنين ، لم يكن إلا بصاصا وثيق الصلة بدولة الشاه إسماعيل الصوفى ، أعداء
 الخنكار ، شهاب الحلبي حريص دائما على حركاته وسكناته ، ليس هو فقط إنما
 أى إنسان يعمل في ديوان البصاصين ، زكريا تعجب لحدة غضبه ، لكن تأخر الزينى
 بضايقه ، سؤال شهاب الحلبي نغزه ، كل يوم يقول ، ربما أجاب الليلة ، غدا ، لكن
 الزينى تعادى في غيه ، الأمير الجمدار هو رأسه ، قال ، السلطان يوافق الزينى على
 كل كبيرة وصغيرة ، الزينى يطلع إلى السلطان كل ليلة ، يخلو به مقدار ساعة ،
 لا يطلع إنسان على ما يدور بينهما ، زكريا يواجه ظروفًا لم يعرفها أحد أسلافه ، ربما
 يرد اسمه في هذه الخلوات ، ربما تدبر له الملاعب ، عاوده انزعاج ليلة وصول
 تقرير يؤكد استمرار الزينى في إقامة فرقة بصاصين خاصة به ، الأمير منكلى بغا -

وهو قريب الصلة من زكريا - ألمح في لقائه مع الزينى إلى أن الأصول تقضى بوجود
فرقة بصاصين واحدة فى السلطنة كلها ، وأن يتبع زكريا بن راضى المحتسب كما هو
متبع ، لكن الزينى هز رأسه ، قال لا أطمئن إلا لرجالى ، أن توجد فرقة بصاصين
أخرى ، فهذا ما يقلق زكريا ، ربما تسرب أحد إلى بيته ، إلى ديوان السر ، أصدر
أوامر مشددة إلى مقدم بصاصى القاهرة ، إلى مقدم بصاصى الوجه القبلى ، الوجه
البحرى ، مقدم البصاصين ببلاد النوبة ، أن يرصدوا ما يقيمه الزينى ، أن يتعقبوا
أفراد الفرقة الجديدة ، من هم ، أين ، كيف يعملون ؟ لا تزال التقارير بخصوص هذا
الموضوع باهتة ، عموما لا بد من العمل فى تان ، لكن بلا توان ، لا بد من حسم أمر
الزينى وإلا أصبح تاريخ البصاصين كله مهددا ، استدعى كبير الشعراء والمغنين
فى مصر ، إبراهيم بن السكر والليمون ، إبراهيم من أخلص مستصنعيه ، يشرف على
الشعراء فى المقاهى ، وأصحاب الربابة ، المنشدين فى الموالد والأذكار ، كافة
ما يقولونه من المواليا والدوبيت والأراجوزات والسير ، كل ما ينشد لا بد أن يقره
إبراهيم بن السكر والليمون ، يحذف منه ما قد يراه مخلا بأصول الديانة والأخلاق ،
ما فيه من تعريض بوجيه كبير أو أمير من أمراء الدولة ، إبراهيم يجيء إلى زكريا يوم
الثلاثاء من كل أسبوع ، يحكى له أخبار المغنين والمنشدين ، أحوالهم وما يدور
بينهم ، وما ينتويه كل منهم ، ما يشرع فيه من أمور تخصه هو أو تتعلق بالمغنى
والطرب ، يسخر زكريا فى سره ، لا يخطر هذا ببال الزينى ، يستمع الناس إلى
الشعراء فى المقاهى ، يرون سيف بن ذى يزن ينبش الأرض بحثا عن كتاب النيل ،
ترتعب القلوب حبا لذات الهمة ، يتابعون أخبار البرامكة مع بنى العباس ، أبو زيد
ودياب والزناتى خليفة ، سليمان وكيف تحكم فى الجان ، استشهاد الحبيب النجيب
فى كربلاء ، لا يدري إنسان أن ثمة خيطا يربط كل أرباب المغنى والمنشدين
والقصاصين فى مصر بعضهم إلى بعض ، خلا زكريا إلى إبراهيم بن السكر والليمون ،
طلب منه إعداد حكاية تروى على الربابة ، عن رجل لا أصل له ولا فصل نزل عليه
الجاه فجأة ، فدعى أنه سينشر العدل بين الناس وطلب أن ينشدها الليلة أربعة
منشدين فى دكان « لانضى » ، « دكان البهجوى » بالحسينية ، ودكان « يونس »
بالفسطاط ، ودكان « أبو الغيط » فى بولاق ، الدكان الأول والثانى من أكبر دكاكين
الحلابة والجنزبيل والنراجيل فى مصر وروادهما من ميسورى الحال ، ويبدأ شرب
الكيف فيها بعد العشاء ، أما الثالث والرابع فشأنهما ضئيل وروادهما من أسافل
القوم ، جلهم من الفعلة ، بعد يومين تنشر الحكاية فى عشرة دكاكين ، فى أحياء
مختلفة من القاهرة ، نعم بعد أسبوع لتصبح حديث الناس ويمكن الاستعانة
بالبصاصين المندسين بين البشر لشرح وتفسير ما تتضمنه الحكاية لو تاه مغزاها

عن البلهاء ، غادر إبراهيم بن سكر والليمون بيت زكريا ، قام ، نزل إلى الحديقة ، إنه الآن أكثر نشاطا ، يفكر بسرعة ، تتدافع إلى ذهنه الخواطر ، يذكر عشرات الأسماء ، المواضيع ، يضرب راحته بقبضة يده ، يميل ليشرب جرعة من ماء الورد المخفف ، يفاجأ بخواطر لم يحلم بورودها قط ، ينسى روحه تماما ، تولد مشاريع لا يمضى وقت طويل حتى تتحقق ، إنه لا يغفل التفاصيل ، أدنى مايخص المشروع ، كافة ظروفه وأحواله ، بعد انصراف إبراهيم بلحظات ، فى غمرة نشاطه طلع إلى غرفة امراته زينب ، احتضن يس ، رفعه ، حمله فوق كتفه ، حبا أمامه على أربع ، قلد أصوات الشاه والحمار ، كاد يرمى روحه فى الفراغ مرحا ونشوة عندما علت ضحكات يس ، ضحكات صغيرة كأنها قرقرة نرجيلة نشوى ، دخانها نعناع ، وريحان وبلسان ، فجأة أسنده إلى يدي أمه ، نزل مسرعا ، فارق ولده ، لم تندش زينب ، تعودت منه كل غريب ، أرسل فى طلب المعلم عوض المعروف بين العامة ، بابن كيفه ، لإدمانه الحشيش وطول لسانه وحبه الشديد للنكاح ، جاء ، وقف صامتا ، ينتظر ما يقوله زكريا ، فهو من مستصنعيه ، زكريا سروره زائد عن الحد ، هل يدرك الزينى أن رجالا كهؤلاء رهن إشارتى ، يتبعوننى ؟ ربما بدوا فى نظره تافهين لا شأن لهم ، لكن ما أعظم خدماتهم ، جاء المعلم ، ابن كيفه ، ضخما عريضا ، صوته كالنعير ، مع هذا بدا مرتجفا ، عندما رآه زكريا هجم عليه ، احتضنه مقبلا ، حار الرجل ، أبرد القبلة أم يقف ساكنا فى حضرة كبير بصاصى السلطنة ، تردد لحظات أدرك بعدها أنه لو رد التحية الآن لبدت باردة ، أخذه زكريا ، مشيا إلى مقعد رخامى تحت نخلة عالية كسى أسفل جذوعها بألواح رقيقة من نحاس أصفر براق ، سأل زكريا عن أولاد المعلم ، وحال حريمه ، هل تصالح على امراته الثانية التى أغضبها منذ أربعة أيام وهجرته إلى بيت أمها أم مازالت الفرقة بينهما ، قال بسرعة ، انه سمع بعزم المعلم على طلاقها ، هذا صوته ، تراجع برأسه ، ألا يوجد عندك حل غير الطلاق يا معلم ؟ أنت تعرف ، أبغض الحلال عند الله الطلاق ، لكنك لو أصرت فلا يمكننى الإشارة عليك بأمر آخر . لم يخف المعلم دهشته وخوفه أيضا . زكريا يعلم كل كبيرة وصغيرة . غرق فى خجل عندما مال عليه زكريا ضاحكا . بينى وبينك الحق عليك أنت . يا معلم أنت لا تعطيتها حقها كما يجب . زوجتك الصغيرة الأخيرة أخذت وقتك كله .. لا يا معلم . لا بد من العدل . العدل مطلوب هنا .. آخر مرة ذهبت إليها متى .. أه .. متى ؟ أخبرك أنا ، منذ شهرين وأسبوع ، أنت رجل تفهم الدنيا وترزنها على طرف أصبعك ، وتلقى العيب عليها ! تعالظم خجل الرجل . انقلب نعيره همسا وحشرجة . تبدو منهما كلمتان . معك حق ، معك حق ، فجأة قال زكريا : مهمة صغيرة جدا أتمنى إتمامها . غمز بعينه ، فرد أصابعه ، يثنىها واحدا وراء الآخر كلما ذكر أمرا أو مطلبيا ، يضيق المعلم عينيه ، يصغى ، تروح التقلبة منه هنا أو هناك ، صوت زكريا هادىء ، كأنه يطرق أى باب للحديث ، قد تهيج روحه بألف

سبب وسبب ، لكنه إذ يبدأ الحديث تصبح لهجته منبسطة كلفظة « صباح الخير » ،
حتى لو تناول أخطر الأحداث وأكثرها تعقيدا ، ما يريده الآن مجموعة أقوال
وشائعات واحاديث معينة ، تنتقل بين الناس بخفة ويسر ، أصغى المعلم ، قال
« بسيطة لك على الا اجعل حديثا على لسان الخلق إلا ما تريد » ، تضيق عينا زكريا
« لو خرج ما جرى بينهما إلى مخلوق .. » يسرع المعلم جريئا في مقاطعته ..
« اشتمنى ولا تقل هذا .. » بسط زكريا يده « اعرف .. اعرف ، المهم الا تظهر القصد
في حكايتك ورواياتك » ، ضرب المعلم صدره براحته ، « ابن كيفه يعرف شغله .. »
ضحك زكريا « تعجبني يازينة الرجال ، قال بعد لحظة « ولا تنس مراجعة نفسك في
الموضوع ، تساعل المعلم ، اى موضوع ؟ ثم تدارك امره عندما رأى الابتسامة
الجانبية على شفתי زكريا ، « اى والله ساعمل عقلى يا شهاب .. اعرف ان ابغض
الحلال عند الله المطلق ، .. يهز زكريا رأسه ، يقطب جبينه .. يضيق عينيه وكان الامر
مفروغ منه ، اذهب إليها بقطعة من القماش ، بشيء من الحلوى . النساء عقولهن
كالأطفال ، يؤمن المعلم على كلام زكريا . يتراجع . ينحنى محببا . يتبعه مبروك إلى
خارج الحديقة . صوته العالى يجيء ملقيا بالسلام . كلما صلافا بابا أو شرخا في
جدار أو نبتة زرع يلقي عليه السلام ، الآن يتضح مذاق الشتاء فى النهار ، يكسب
حصى الطرقات بريقا هينا لينا خفيفا . النبات الغريب . الطيور حببسة الاقفاص
لا تكف عن احاديثها الغامضة . فى الليل تخرس . اما الآن فى النهار فتبوح . يدخل
إلى غرفته فى الطابق الاول . اعددها للمقابلات . رطوبة خفية تسرى فى الحشايا
الوثيرة المحشوة بريش ناعم . يحلو له ان يخلو إلى رروحه هنا . تلتصق النباتات
الخضراء الخصبية بالمشربية من الخارج ، حركة النبات كل ما يسمع هنا ، السقف
عال منقوش بالفضة والذهب ، ونقوش ابدعها « الخسروانى الفارسى » بجواره طبق
نحاس ، يقرعه بيد قصيرة من الجلد . مرة واحدة . يجيئه « مبروك » ، لو همس سيده
باسمه يجيء فورا كأنه يقف الوقت كله منتظرا لحظات اضطجاعه إلى الوسادة عندما
تدور الأسئلة بعقله . كم عدد التقارير التى تكتب الآن لتدفع إليه ملخصة فى ورقة
واحدة ؟ ربما يموت إنسان فى هذه اللحظة بعينها . هذه اللحظة بالذات . أه
انقضت . حلت لحظة غيرها . مات ، كم إنسان يذكر اسمه الآن ، اى أفكار فى ذهن
الزبنى الآن ، الآن تكد امرأة طفلا . ماذا سيصبح بعد ثلاثين عاما باى أرض يموت ؟
ربما يطلق ربان مركب صرخة فزع تنبئ بالمصير المحتوم فى قرارة البحر الشرقى
الكبير ، احيانا والليل مسدل . يحاول النفاذ بعيني عقله إلى أحشاء الظلام . كم رجلا
يعلو امرأة فى المدينة الآن ؟ اعداد لا اول لها ولا آخر . لحظات كهذه يدرك فيها أنه
مهما نفذت بصيرته فسوف تظل امور ممتنعة عليه . لو يجيء زمان . يعرف بصاصوه
كم من الرجال يضاجعون حريمهم ، اى اطفال سيسكنون ارحام امهاتهم .

أى طفل منهم سيولد ويكبر ، يثير فتنا وقلق . لو عرف هذا لمنع الرجال من اتيانهم
 المرأة التى ستحمل الطفل . هكذا يجتز الشر من جذوره . قبل ان تنبت له جذور .
 لو اوتى فرعون مصر بصاحبا عظيما نفذ إلى حقيقة الطفل الذى القته امه فى النهر .
 لما عرفت الدنيا نبي الله موسى . ولنجا فرعون وجنوده من الغرق . يثق زكريا من
 مجيء زمان يعرف بصاحبه ما يدور فى بر الشام وهم جلوس فوق المقطم . إذا قارن
 اساليبه الحالية . هل تشبه ما استعلن به بصاص الدولة الأيوبية . بصاص الأشرف
 قايتباى منذ ثلاثين عاما فقط ؟ الدنيا تتغير ؟ لا يبقى امر على حاله . زمان بمجرد
 إمساكهم مذنباً يوسعونه ضرباً . ربما زهقت روحه . الآن .. لا يحدث هذا .. موت
 المذنب آخر مطلب ، تبدل عليه الآلام وهو واع حى . لو غشى عليه فهناك من
 الأساليب ما تجعله يفيق . كأنه صحا من نوم عميق أكثر نشاطا . امور كهذه يجهلها
 الزينى . وإلا أين نتيجة تعذيبه لسلفه على بن أبى الجود ؟ تسلمه منذ شهر .
 لم يعلن منابوه استخراج درهم واحد منه او تقريره باى ذنب . قيل بين الناس ان
 الزينى يجهل طرق تعذيب المحابيس ، تهامس بعض الأمراء عن حقيقة ما أشيع حول
 على بن أبى الجود ، قل الأمير يلبغا الجاشنكير ، إذا ما شنع العامة والسوقة على
 كبير فى الدولة فهل نصدق ما يقال ؟ لا يصح هذا أبدا . تجاهله الزينى . لم يرد على
 رسالته . فيلذق عاقبة مكروه . تجاهل آلاف البصاصين وهم اطراف جسمه . يسمع
 بهم ويرى . يشط الفكر بزكريا إذ يذكر ان كل إنسان يمشى حاملا ملكين ، ملكا يرصد
 الحسنات فوق الكتف اليمنى ، والآخر يدون السيئات فوق اليسرى ، لا يكفى هذا ،
 إنما ينتظر نكرو ونكير فى القبر ، يسألان ، يستقصيان ويستفسران ، ينتزعان الحقيقة
 بضرب الميت بهراوات ملائكية لا يعرف أبشع من قسوتها ، كم عدد الناس فى الدنيا ؟
 لكل إنسان ملكان ، هل يوجد اتباع لنكرو ونكير ، لو دفن رجلان فى وقت واحد ، فكيف
 يستجوبانها ؟ كيف يسألان فى وقت واحد ، نكرو ونكير لا يمكن تواجدهما فى كل
 قبر ، الموجود فى الدنيا كلها هو الله سبحانه وتعالى ، يطيل زكريا القامل ، نظام
 عظيم وترتيب أروع ، هكذا تمسك الدنيا كلها فلا تفلت حسنة ولا سيئة ، يوما ما
 سيخلو إلى نفسه ويضع مطلبا مفصلا بما يرجوه للبصاصين ، ما يتعنى مجيئه من
 اساليب ، وسائل سحرية تكشف ما يفكر فيه الإنسان ، أخرى تعيد زمانا انقضى برمته
 لمواجهة إنسان ينكر ذنبا اقترفه ، الآن يقوم زكريا ، يقطع الحجرة جينة وذهابا ،
 يقيس طولها بخطواته ، أربع عشرة خطوة يمشيها متمهلا مطرفا تهاجمه الخواطر
 فجأة ، يد خشنة تقبض قلبه ، هاهو ذا الزينى يبدأ العداء ، حتى الآن لم يخط زكريا
 خطوة واحدة لهدم الزينى وإيذائه ، الآن مضت فترة ظن فيها استسلام زكريا ، هنا
 يبدأ العمل ، ولو تملدى السلطان فى مساندة الزينى ؟ هنا تضيق عيننا زكريا ، تسرع
 خطواته ، يصبح طول الحجرة عشر خطوات ، من الذى

ساند الملك المؤيد شيخ الحموي عندما جاء إلى دست الملك من ؟ الزينى لا يعرف ، السلطان لا يدري ، من الذى دفع به إلى كرسى السلطنة بعد سجنه زمنا طويلا فى خزانة شمائل ، فى السجن أقسم لو أنه خرج ليهدم الخزانة البشعة ويقدم مكانها مسجدا تتحدث به الأجيال ، وفعل خرج ، هدم خزانة شمائل ، أقام مسجدا تفخر به القاهرة الآن ، لكن هل يعلم المصلون فيه والفقهاء من الذى ساند الملك المؤيد ؟ من السبب فى بناء المسجد ؟ كتب التاريخ لا تذكر هذا ، إنما الأمر محفوظ فى ديوان البصاصين ، كبير البصاصين هو السبب ، كرسى السلطنة ليس بعيدا عن يدى زكريا ، من هنا يزحزحه ، لو طال العمر بشعبان حتى يقربا بينه وبين الغورى ، لكن الضرورة أوجبت قتله ، كان قمرا ، لكن لابد للأقمار أن تغرب وتمضى ، اليوم سيرسل زكريا فى إحضار المشرف على أبراج الحمام الزاجل ، نظام دقيق استحدثه يتفخر به على البصاصين فى أنحاء الدول والإمارات ، كل حماسة تعرف أى الطرق تسلك ، لا تطير فوق بيت فيه إنسان ، فوق قافلة فى الصحراء ، إنما تعبر الخراب إلى أهدافها ولو طال بها الزمن ، اليوم ستطير الأسراب ، ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات ومشايخ البلاد ، حتى العامة من الناس الذين خدعوا فى الزينى ، أى خطأ أتاه السلطان عندما ولى على أمة الإسلام فى مصر رجل لا يعرف له أصل ولا فصل ، لم يره أحد يصلى جماعة فى يوم جمعة ، يظهر العدل ، ولا يعرف أحد ما فى عقله ، أبطأ فى استخراج أموال على بن أبى الجود ، ومن يدري ؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد فى أذية الخلق ، ستطير الأسراب إلى بيت الأمير طغلق شادى العمائر ، وبشتك المعروف بين الناس بفول مقشر ، فتنة واحدة بين طشتمر وخاير بك لا تكفى ، سيعلم طغلق أن بشتك فول مقشر يحط من شأن المسجد الجديد الذى بناه للسلطان فى سوق الشرايشيين ، فى نفس الوقت يعرف بشتك أن طغلق يضحك عليه ، يقلده ويلمح إلى بشتك فى التشبه بالأمراء المقربين جدا من السلطان ، يقول عنه ، هذا رجل محدث نعمة ، الآن يبتسم زكريا ، خطواته تسرع ، سينتفخ فم طغلق يرمى زبدا أبيض ، يسلط كل منهما مماليكه على الآخر ، تضطرب أحوال الناس ، ترفع البضاعة من الأسواق ، يكثر النهب ، يقوم عدد من أشداء البصاصين بخطف عدة أبكار وغلمان ، الآن يتوقف زكريا عن الرواح والمجىء ، يمضى النهار وأدعا يكاد يسمع سريانه فى الفراغ ، ما أحب الشتاء إليه ، أمسك المطرقة الجلدية ، خبط الطبق النحاس ، مرة واحدة لها رنين .

★ ★ ★

مساء الثلاثاء سابع ذى القعدة نداء

يا أهلى مصر
نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر
نعبد ونسجد ونحمد
من اذل كل لئيم متجبر
يا أهلى مصر
البشرى لكم
يا امر مولانا السلطان
بعد اطلاعه على اوفى بيان
رفعه الزينى بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلى
وشرح فيه حقيقة الأحوال
وما يمس العباد من الرعية الفقيرة
تلقى الضريبة على الملح
وتطلق يد التعامل فيه
من بعد ان كان حكرا على القلة القليلة
يا أهلى مصر
يا امر مولانا السلطان
بعد ان اطلعه الزينى بركات على حقيقة الحال
برفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنبر
وسائر انواع الخضار
وان يبيعه الفلاحون فى الأسواق بلا وسيط
حتى تنحط الأثمان
ومن يضبط حارسا او مملوكا
من القراصنة او الجلبان
يتقاضى ضريبة على حمولة خيار او خضار
عند أى باب من ابواب القاهرة
يشنق بلا معاودة . .

من نداء طاف به المشاعلية مساء نفس الثلاثاء ، سابع ذى القعدة

يا امر مولانا السلطان

بعد ان اطلعه الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

على الأحوال

ألا يمشى مملوك ملثما بعد المغرب فى الطرقات

وألا يدخل مملوك بسلاحه الحارات

بعد العشاء

★ ★ ★

من نداء غير عادى شهره رجال الزينى مساء الثلاثاء ، سابع
ذى القعدة ، بين الناس الذين نزلوا الطرقات يسمعون بفرحة ما ينشر
وما يقال :

بعد الاطلاع على رأى الشريعة

واستشارة أهالى الرأى والمشورة

والبحث فيما مضى وانقضى

يا امر الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

يا بطل عادة نعى الموتى بدق الطارات

ومن ضببت تدق طارا على ميت

تشهر بغير معاودة

★ ★ ★

نداء أعقب السابق مباشرة :

خصص الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

بابا من أبوابه

لتلقى المظالم ..

كل من وقع عليه ظلم

من أى كبير أو صغير ..

فليتوجه إلى الزينى بركات

لإسترداد ما ضاع من حقه

(عنوان رسالة ، وصلت إلى دار زكريا بن راضى ، مع رسول خاص .
من رجال الزينى) :

« والتين والزيتون . وطور سينين وهذا البلد الأمين »
إلى كبير بصاصى مصر . ونائب الحسبة الشريفة .
الشهاب زكريا بن راضى له السلام ..

★ ★ ★

نداء فى ليلة الثلاثاء ، نفس الوقت الذى وصلت فيه الرسالة إلى
زكريا :

من الآن فصاعدا
ستعلق فوانيس كبيرة تضىء بالشحم
هندسها وسواها
الأمير طغلق شادى العمائر
بعد استماعه إلى رأى الزينى بركات
متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى
على كل باب حارة
تحت كل منزل وقصر
أمام كافة الوكالات
ستعلق الفوانيس الجديدة
وسيقوم رجال الزينى بإضاءتها كل ليلة
وبمعرفتهم
حتى تنام القاهرة آمنة
وحدار أن ينزع مصباح من مكانه
وإلا جوزى وعوقب أصحاب المكان
يا أهالى مصر
لن يكلفكم الأمر درهما
فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة
يا أهالى مصر
يا أهالى مصر

★ ★ ★

يأمر مولانا السلطان باستمرار زكريا بن راضي نائبا للمحتسب كما
كان في كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقب « الشهاب » :

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
اهتموا . اعتنوا بالفوائس الجديدة
ومن يضبط مخالفا لأوامر ناظر الحسبة
شقق بغير معاودة ..

من عمرو بن عدوى

إلى مقدم بصاصى القاهرة
تقرير فى وصف ما دار وما جرى
بين العلة والناس . ليلة الثلاثاء
سابع ذى القعدة ..

أجمع العجائز . وكتبه الدواوين . والقضاة . والمطلعون على حقيقة ما جرى
خلال الأزمان الغابرة أن ما شهدته القاهرة ليلة الثلاثاء سابع ذى القعدة لم يحدث من
قبل قط . لم يعرف مثيله فى بلد آخر . سمعت هذا باذننى من مجاورى الأزهر . وعجائز
زاوية الحلوجى وتجار الغورية والباطنية . والحلاقين الجالسين أمام باب المزينين .
وزاوية العميان . بجامع الأزهر . إذ لم يحدث طواف المنادين من قبل . كل نصف
ساعة . يتقدمهم طبل . وفى كل مرة ينقلون أمرا أو خبرا جديدا إلى الناس . ولكثرة
ما قالوه من نداءات لم يكرر نداء واحد قط مع أن العادة جرت من قبل أن يردد النداء
السلطانى أسبوعا كاملا خمس مرات يوميا إلا فى حالة وقوع حدث مهول . رأيت
الزحام عظيما . خرجت الباطنية برجالها ونسائها أجمعين . النساء يطلقن زغاريد
وأيد تلوح وحناجر تزعق . وتفاوت كلام الناس . وحتى لا اطيل وأكرر . أجمل
ما سمعت كما يلى :

أولا : كثر الدعاء بعد النداعين الاول والرابع . للزيني بركات . وكثر الكلام
الطيب من سائر الأفواه . خاصة النساء . اللواتى رحن يهتفن ويهرجن . ويصحن
« ادا م الله أيام الزينى » . وأجمعن على معرفة الزينى بما يقرص أبدان الناس
وارواحهم من مواجعههم لأنه ليس متعاليا ولا متغريبا . إنما يعرف أحوال الخلق .
ويشعر جسمه

لذكر المظالم ، يأنف تعذيب الإنسان ، ويركع الصلوات في أوقاتها ، قال الرجل (وهو بائع هريسة متجول ، اسمه شمس الرمضاني ، ويسكن اول ربيع في حارة الروم الجوانية عمره فوق الأربعين ، لحيته بيضاء ، أعرف مكانه) انه يرى الزينى بظل متخفيا في النهار والليل يتسمع احوال الناس ، يجس ما يؤلمهم ، وإن الله أرسله في هذا الزمان نصيرا للفقراء ، وقال انه يعرف خادما في بيت الزينى بركات يقول ان سيده يبكي طويلا قبل نومه لعلمه تماما ان الليل يرخى سدوله على حزانى مظلومين ، الزينى يتعذب كثيرا بسبب هذا ، يطلب من الله السماح في الدنيا والآخرة لأنه لا يمكنه إزالة كل ما يقع من مظالم ، واشيع بعد النداء الرابع طلوع الزينى بركات إلى السلطان وخلوه به فترة طويلة ، قال فيها للسلطان ، انت مسئول عن هذه الرعية أمام الله تعالى يوم القيامة وسوف تحاسب انت واحاسب انا على كل ذنب ارتكب علمناه أو جهلناه ، ابن نروح يومها من جبروته ، أصغى السلطان طويلا إليه ، كان حديث الزينى مشفوعا بآيات قرآنية واحاديث نبوية ، ونصوص من متن لا يجيدها إلا أفقه العلماء (قال التجار انه يحفظ القرآن كله وله شرح مخطوط لم يطلع عليه احد) ، تحدث الزينى عن الأمير شاريك ، واحتكاره للملح في بر مصر كله ، وانه الوحيد الذي يتجر فيه ، إذا ضبط إنسانا غلبان يبيع بنصف درهم ملحا يعاقبه بقطع ذراعه اليمنى ، واليسرى إذا كانت اليمنى قطعت من قبل أو ساقه اليمنى إذا سبق قطع الذراعين ، واليسرى إذا سبقتها اليمنى ، أو يحضر ابن المخالف أو اخاه أو امه أو اباه إذا وجد بلا أطراف ، احتكار شاريك للملح جعله يزيد في سعره كما يشاء ، أحيانا يعتدل مزاجه فينزل بالثمن إلى الحضيض ، إذا شط مزاجه وغضب شهر المناداة برفع السعر ، هذا لا يضر إلا بالرعية نفسها ، قال الزينى : الناس لا يجهرون عندئذ إلا بالدعاء على السلطان نفسه وأظهار النقمة عليه والغيظ منه ، قال الزينى الأمر أدهى وافدح خطرا بالنسبة للخيار ، لأن الأمير طغلق حرج على أحد المتاجرة فيه أو بيعه أو شرائه إلا عن طريق نوابه ، وأكد التجار ان الزينى أجرى الدمع من عيني السلطان حتى اطلق السلطان يده فيما يشاء ، بشرط الا تنخفض مالية البلاد درهما واحدا ، السلطنة احوج ما تكون للفلوس هذه الايام بعد انقطاع عديد من الموارد ، أبدى الزينى مقدرة على تحقيق هذا ، بعد نشره النداءات تعالت الشتائم ضد الأمير طغلق ولو طالته الأيدي لقطعته حنتا ، كما جهر البعض بهذا ، لعن العامة أجداد الأمير شاريك وكثر الدعاء عليه ، وحدث أن رمى بعض الفقراء نقوطا للمنادين إظهارا لفرحتهم وبهجتهم ..

ثانيا : سمعت بأذني ثلاثة رجال يتحدثون في قهوة (لانضى) ، أحدهم أعرفه واسمه فتوح الاسكندراني من سكان باب الشعرية ، عنده معصرة زيوت ، وله من

العمر خمسة وخمسون عاما ، يقولون كلاما له طعم آخر ، إذ أبدى فتوح الاسكندراني
شكا وريبة في نداءات الزينى ، قال فتوح ، الأمر لن يستمر على ما هو عليه ، السلطان
لن يسمح باستمرار الأمور هكذا ، إلا .. إلا إذا احتوى الأمر غرضا يتفق مع مصالحه ،
وبذل جهدا فى إقناع الحضور ، أكثر من إشارة يديه ، بلدرت إلى نكشه محولا
استخراج ما فى رأسه ولم يخرج حديثه مع صحبه عن هذا ، وفى مقهى آخر صاح
رجل اسمه أبو غزالة فى مصبغة بحارة الميضة « حقا .. ومتى كلن أحد الحكام يظهر
العدل ؟ »

ثالثا : قرب سوق القريبعة حيث يكثر تردد النساء على محلات التجار الشوام
هناك ، تساعل الرجل عن مغزى منع النساء من دق الطارات حزنا على الموتى ؟
أجمعت آراؤهم على حق الزينى بصفته محتسبا فى منع هذه البدعة ، لكن الأمر
الأخطر من هذا ، الأكثر فداحة ، ما يخص الفوانيس ، قال عبد الحميد رئيس طائفة
السقائين فى القاهرة (ومجلسه دائما عند هؤلاء التجار) ، قال هذه بدعة ما يصح
نشرها فى أمة الإسلام ، وقال أحد المجاورين فى نفس الموضوع (اسمه جاد الله ،
صعيدى يسكن رواق الصعايدة) يريد الزينى إدخال بدعة جديدة تنسب إليه ، قال
آخر ربما أخذت البدعة البركة من الناس ، كثر الحديث عن تعليق المصابيح ، قال
آخرون ، ربما منع هذا هجوم المنسر فى الليل ، وأجيب على هذا بسؤال ، هل يمنع
الضوء هجوم المنسر ؟ يعنى إذا قصد المنسر أو الممالك الهجوم على حارة من
الحوارى فهل يمنعهم هذا ؟ سيكسرون المصابيح وينفذون ما بأغراضهم ، قال اليهود
مادمتا لن ندفع درهما لا بأس ، وقال بعض المشايخ ، لم يظهر من الزينى إلا الخير
فلا بد من احتواء الأمر الجديد على نفع ، وبعد انتهاء المنادين من الطواف خرج
رجال الزينى طلوعوا فوق سلالم خشبية يدقون المسامير الكبار فى الجدران ، يربطون
إليها الفوانيس ، ثم يشعلونها وعند انبعاث الضوء منها يهلل الجميع ويزعقون
« هيه .. دامت الفوانيس ، هيه عاشت الفوانيس » الفوانيس ، الفوانيس ولم تنم
القاهرة فى هذه الليلة بسبب ذلك ..

رابعا : أثناء دخولى جامع الأزهر عند الفجر ، رأيت طالب العلم الأزهرى ،
سعيد الجهينى (ذكرته مرات من قبل) يجلس بين جمع من الطلبة ، كان يكثر من هز
قبضته ، على وجهه غيظ ، وعدم رضاء وكمد وحقد دفين ، وكلهم مصغون إليه ،
ألقيت السلام ، وروعت إذ وجدته يشير إلى امر لم يتردد على السنة الناس قط ،
لم أسمعه من مخلوق ، سعيد الجهينى يعلق على ما جاء فى النداء الخاص
بالفوانيس بإقرار الشهاب الأعظم زكريا بن راضى نائبا للمحتسب ، تركز كلامه فى
الآتى :

١ - وقوع قهر على الزينى بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائبا للحسبة .

٢ - إنه عليم بالزينى بركات وتأكده عن عدم رضائه عن القرار .

٣ - كل ما أذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن أخطر ما فى الأمر وهو إقرار الشهاب الأعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه .

٤ - قال بالحرف الواحد الجمل التالية :

« بدأت الأمور تضطرب ،

« هذا فال سيء ،

« اللهم نجنا واسترنا ،

وحتى كتابتى هذا لا يكف عن التنقل بين المجاورين يجهر بنية فى الطلوع إلى شيخه أبى السعود ، شارحا له الحال ، طالبا تدخله فى الأمر ، وهو مستمر فى سب الشهاب الأعظم بأنتن الألفاظ ، وأقبحها .

خامسا : خطب بعض الوعاظ ، وخطوا فى حق الفوانيس ، من فوق منابر المساجد ، وسخر الشعراء فى المقامى من الأمر الجديد ، وألفوا شعرا قالوا فيه :
« الحق يا متعوس ، وإلا اعلقوا لك فانوس .. »

نداء

الجمعة ، عاشر ذى الحجة ، ٩١٢ هـ

يا أهالى مصر
نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
اليوم ، قابل السلطان
قاصد ملك الحبشة
وقاصد ملك البنارقة
أنعم على كل منهما بخلعة
كاميلية محمل ، بفرو سمور
يا أهالى مصر
وقعت قطيعة مفاجئة
بين الأمير بشتك فول مقشر
والأمير طغلق شادى العمائر
لأن البشتك صنع على المنذنة
الجديدة فى جامع السلطان
قال ، بها بعض الميل

سعيد الجهيني :

هذا زمان الحيرة وسيادة الشك وفناء اليقين ، تغيب التفاصيل ،
تطغى رغبة ، أه لو هج في بيدا لا أول لها ولا آخر ، لا عرض لها
ولا طول ، ينحل شعره ، يبلى جسمه ، ربما عرف ما غاب عنه ،
ما هجره ، ما كساه السحاب ، ما تقنع بالضباب ، كيف يفنى
عمره ، ينوب وجده في عشق لا أمل فيه ، زاده .. شعوره بوجودها
في بيت لا يطرقه كل أسبوع إلا مرتين ، إنما يتمنى رؤيتها ، تطلع
الشمس من الشرق ، تنزل الغرب ، كم تبعد السماء الأولى عن الثانية ، عن الثالثة ؟
هل تقلس المسافة بالطول أم الزمن ؟ كم تبعد النجوم عن الأرض ، وأى سلاسل
ضخمة تربطها ، تمنعها من السقوط ، وهذه النجوم التي تهوى أهي أرواح شريرة
مطرودة من الجنة ؟ تبدو لحظات في العتمة ، تضيق فلا تصل الأرض ولا تستقر في
سما ، حتى ذيول اللهب التي تسحبها تمحي كحلماً ثقيل ، كيف لا تطغى البحار على
اليابسة ؟ كيف يمتلىء النيل ويفيض ثم ينحسر من جديد ؟ عندما ولد الزينى بركات
هل درى بما كتب في لوحه المحفوظ ؟ يوما سيصبح محتسبا ؟ سينظره رجل اسمه
زكريا ، كيف ، كيف يقبل استمرار زكريا بن راضى نائبا له ، يحيط الحسبة
باعتى البصائين ، أكثرهم مقدرة في بث الرعب والخوف ، في حجارة المباني ، في
الطيقان ، الزوايا ، فوق وسائد النوم ، وماذن المساجد ، في أرضية محراب الصلاة ،
هل ضل عندما ذهب إلى بيت الزينى ليصاحبه إلى كوم الجارح ، لكنه مازال يعلن ، من
له مظلمة فليطلع عنده ، ويوميا يتردد على باب كل صاحب شكوى ، الناس
لا يقصدون إلا هو ، عطل أبواب الأمراء والقضاة ، حتى أشيع أن الزينى ينوى
الجمع بين القضاء والحسبة ، ورد الزينى على هذا بركوبه بغلته وتوجه إلى جامع
الأزهر لصلاة الجمعة ، خطب في الناس نافيا كل ما يتردد عنه ، قال إن الحسبة
تقتضى منه وعيا ويقظة ، فهل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى ، هل
الناس له ، كبروا ، حاولوا تقبيل عباة ، نثر فيهم الزينى وأبدى غضبا وغيظا ،
لحظتها أطبق الهم على ضلوع سعيد ، رأى الشهاب الأعظم زكريا بن راضى ، أول
نواب الزينى ، يمشى وراءه ، يتشح بعباءة زركش صفراء وعمامة علوية بلا علامات ،
ياقوته حمراء فقط تتوسط رباط الشاش المحيط بها ، شكا إلى منصور صاحبه وزميله
في الرواق همه ، قلق منصور ، الأروقة تشفى من جديد برجال زكريا ، بمستصنعيه ،
لأبد من التزام الحذر في الكلام ، سعيد لا يجهلهم ، يسمع خطاهم الخفية وراءه ،
انسلاهم من الهواء ، تنفذ إليه نظرات عمرو بن العدوى ، عمرو اشترى عباءة جديدة
ومركوبا ، أشيع أنه يذهب إلى امرأة في بيت « أنس » يشتري لها اللحم ، والخضار
والسنبوسك ، سعيد يود لو يجالسه بقلب صاف ، ما الذى يدفعه إلى رفع كل أمة

وهمسة إلى زكريا ؟ لكن كيف يصل به الفكر إلى هذا ؟ صاحبه منصور لم يظهر ضيقا
بزكريا ، قال : الزيني لا يتحكم في الأمور كلها ، هو جديد على المنصب ، ورجل مثل
زكريا لا يستهان به ، ومستحيل تجاهله ومن يدري .. ربما هذه خبطة واعية من
الزيني ، حتى لو عزل زكريا فهو خطر كامن كالحفرة المموهة ، يمسك بأسرار السلطنة
والأمراء فهل يصطدم به الزيني أم يضمه ويحتويه .. لم يقل سعيد حرفا ، أي الأمور
أصبح ، رأى كل أمر في الدنيا يسلك طريقا لا حيدة عنه ، طريقا ملتويا ، عليه ضباب ،
دخان كثيف ، منصور ينتحي ركنا في مقهى « لانضى » يمد يده ، يسوى الدخان فوق
حجر الجوزة ، يفرق في لب الدخان ، خلاصة النجاة من الأحزان ، حبيبته الغائبة
تدنو ، يفتح ذراعيه ، يحتويها ، تقترب إليه ، تجثو عند قدميه ، يهاجر إلى أرض واق
الواق ، يغزو جزر النساء ، يرى الزيني رسولا منزلا ، وزكريا تابعه الأمين ، يحمي
الامن ، يقصي البلاء ، يدفع الفتنة ، منصور يقول قبل هجرته إلى دنيا النسيان ،
لا امر يعنيني فلماذا اشغل نفسي ، كتبت على سنين اعيشها في الدنيا ، والدنيا
فانية : فلأنهل من ينبوع اللذة ، اسلك طريق السلامة ، ولا أكون خفيف العقل ،
فانتسج لحظة ، وانتقلص لحظات ، يدعو سعيد إلى رفقة فهو يشعر بالوحدة لحظة
هجرته إلى عالم الغيب الأزرق حيث الحور والولدان ، يضيق سعيد ، يمضي خارج
دكان « لانضى » الطرقات تضيئها الفوانيس ، حتى الآن لم يحسم أمر الفوانيس ،
فتنة توشك على الاندلاع بسبب الفوانيس ، أهو مع تعليق الفوانيس أم ضده ؟
لا يدري ، لم يطلع إلى مولاة منذ أربعة أيام ، أه لو يرحل إلى الصعيد ، يرمى عن
كتفيه ما ناعنا به منذ سنوات مجيئه إلى الأزهر ، أه لو يمضي إلى جامع الحسين ،
يشد عمره إلى الباب الأخضر ، لايفارق الحبيب ، يتلو الأناكث ويناجي الشهيد ، أه لو
يمضي إلى سماح ، ينزع خمارها ، يضمها كنزا غاليا وطلسما وشعرا لم ينشد مثله
وجنة ضائعة ، لكنها سراب ظلميء لا يدري مايفعل ، سماح مسخت النساء كلهن فلم
يعد إلا هي ، ما عداها أرض خراب ، الأمان في بعدها عنها ، تحرقه الرغبة ليالي ،
يتكد فراشه في الرواق بنيران هادئة لا تخبو ، يحاول معرفة ما يجري في بيت
« انس » دخول الرجال ، انتقلوهم مايريدون ، لا يعرف الرجل اسم من ينام معها ، قال
منصور : في أول مرة سألت البنت عن اسمها ، فضحكت مني ، قالت راوية وعرفت أنه
ليس اسمها ، أه لو يذهب إلى بيت انس ، ألا يستطيع ؟ سماح لا تتجرد من ثيابها في
مخيلته أبدا ، لا يجرؤ على رؤيتها مضطجة في وضع مثير ، لحلم هي ؟ لا يذكر لون
عينها ، مذاق نظراتها ، ملامح وجهها التي تجعلها سماح ، وليست إنسانة أخرى ،
من أعوام كان سعيد صفحة بيضاء لم يجر فوقها المداد ، لم يخدشها سن قلم ،
تمتلىء الدنيا أمامه بالحروف ، الآن ، علامات التعجب والاستفهام ، ألف سؤال حائر
بلا هداية ، الدنيا كلها سؤال لا أول له ولا آخر ، باق مخلد في مخطوط عتيق تهرات
أوراقه ، متاكل الحواف ، كشطت حروفه .

« قسم خاص »

به « نتف » مما قيل بشأن واقعة الفوانيس

١ — جزء من خطبة الجمعة التي ألقيت من فوق منابر المساجد ، أخرجها القعدة ٩٠٩ هـ ، وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبيهم .

يا أهل مصر ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، نقول هذا لمن أحلوا تعليق الفوانيس ، أمام البيوت والدكاكين يدعون العلم بالتواريخ والأحداث التي جرت وينقصهم القول بما سيجيء ، هنا ندخلهم في زمرة الكافرين ، قالوا سبق لعديد من الأمم أن علق حكامها الفوانيس في شوارعها ، فهل ذكروا لنا مثلاً بعينه ؟ أهل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس ؟ وفي رحلتي الصيف والشتاء إلى الشام واليمن هل أضى طريقه بفوانيس صنعها بشر ، نقولها عالية ، نقولها بلا حرج ، نقولها ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدعون العلم بالحكم التاريخية ، والأحاديث النبوية ، والمتون الخفية ، والأصول المرعية ، وهم جهلاء يخفون جهلهم ، نقولها ولا نهاب لانخاف ، لا نخشى ، يا أهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس من قبل ، لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عن عورات الخلق ، والفوانيس تكشف عوراتنا ، خلق الله ليلاً ونهاراً ، ليلاً مظلماً ، ونهاراً مضيئاً ، خلق الليل ستاراً ولباساً ، فهل نزيح الستار ؟ هل تكشف الغطاء الذي أمدنا الله به ؟ هل نتناول ونبدد سواد الليل من كل شبر في المدينة ؟ هذا كفر لا نقبله ، هذا خروج عن الحد لانرضاه ، ولولا اقتناع الكل منا بسلامة نية الزيني بركات لقلنا أنه يقصد ما يقصد ، لكنه منذ استلامه أمور الحسبة لم يبدر منه إلا ما هو خير ، ولن تحول الفوانيس ثقتنا عنه ، لن تشككنا فيه ، يا أهل مصر توجهوا إلى بيت الزيني بركات بن موسى أفراداً وجماعات ، زرافات ووحدانا ، قوموا إليه ، إلى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك السر ، وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء ، قوموا إليه ضارعين متشددين ، راجين حازمين ، لا يرجعكم لين حديثه عما انتويتموه ، لا تغيبوا عن مقصدكم ، الفوانيس علامات آخر الزمان ، من علامات دنيا تخرج عما رسمه البارئ عز وجل ، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى إلى الزيني بهذا ، بحرقه ، برجمه ، هؤلاء الجهلاء دعاة العلم ، أه من يوم تسود فيه الفوانيس اللهم قنا شره ، اللهم أبعدنا عنه ، اللهم لا تمد أجلنا حتى نراه .
(وهنا تعالي بكاء الناس في الجوامع ، وزعق بعضهم ، اللهم اهدم الفوانيس ، اللهم اسحق الفوانيس)

فتوى قاضى قضاة مصر :

« الفوانيس تذهب بالبركة من بين الناس »

أول محرم ٩١٣ هـ

قاضى الحنفية يقول رأيا مخالفا :

الفوانيس تطرد الشياطين ، وتنير المسالك فى الليل للغرباء ، وتمنع ممالك
الأمراء والمنسرف من الهجوم فى الليل على الخلق الأبرياء .

قاضى القضاة بالديار المصرية :

« خرج أحد كبار العلماء عن الحد ، خالف الأصول ، ونفى الفروع ، بانحيازہ الى
صف الفوانيس . »

« الأمراء الكبار يطلعون الى القعة »

« مولانا السلطان ، تسبب تعليق الفوانيس بجميع الحارات فى تشجيع حريم
العامة على النزول بعد العشاء والتجول فى الطرقات ، والسهر أمام الربوع
والأسواق وهذا مخالف للحشمة ، وخادش للحياء . »

« خاير بك »

« العيال الصغار لا يرجعون الى بيوتهم الآن مبكرين .. إنما يبقون فى الشوارع
ساعات ينشدون ويغنون ، وأحيانا يقلسون ويرجمون مما ليكنا بالحجارة ، ويتبادلون
قبيح الألفاظ . »

« قوصون »

« مثل هذا الأمر لا يبتدعه إلا إنسان يبغى نشر الفتنة .. والفجور »

« طغلق »

« إنارة المدينة ، وسهر الأهالى على ضوء الفوانيس أمر جارح للهيئة ، ومهين
للسلطنة »

« قنك »

الزيني يرسل رجاله اول الليل ، يطلعون فوق السلام الخشبية لينيروا
الفوانيس وينظفوها ، كما ما يقول ، لكنهم يامولانا ويا أمراء ، لا يقومون إلا
بالتجسس على الخلق ، وعلينا ، يهتكون حياة الناس داخل بيوتهم «
« طشتمر »

* * *

« هذا حق .. هذا تمام .. »

« كافة الأمراء »

* * *

« قاضي القضاة عبد البر » :

« سجل قاضي الحنفية سابقة خطيرة لم تحدث من قبل ، خالف رأينا ، قال .. لا ..
وهذا حدث مهول »

* * *

رواق الصعايدة :

أبدى بعض المجاورين إستحسانا لرأى قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، قالوا إن رجلا مثله لا يمكن أن يشغل روحه بالفوانيس إلا إذا عظمت أهمية الأمر ليس كما ينهيا للبعض ، قال سعيد ، تبالفون فى الأمر ، أشار الى الطرقات الكبيرة فى مدينة القاهرة ، وإضاءة دكاكينها طوال الليل ، هنا قال أحد المجاورين : كلام غير صحيح ، الدكاكين تغلق بعد العشاء ولا ينتصف الليل إلا والكل فى بيته نيام ، علا صوت سعيد ، ايكره أحدكم إضاءة الحوارى والبيوت حتى يأمن الناس على أرواحهم ؟ ما يريده الأمراء أن تبقى العتمة حتى يعبث مماليكهم كما يريدون ، علا صوت عمرو بن العدوى .. بالضبط مايقوله سعيد صحيح ، قال مجاور شامى ، أنت ياسعيد تخالف دائما ، قال مهتاجا ، لا أخالف إلا ما أراه خطأ ، تساعل مجاور نوبى ، وهل يخطئ قاضى القضاة ؟ مال منصور الى سعيد ، يخالفه الرأى ، ما الداعى لبدعة الفوانيس ؟ ألا يوجد من أمور الناس ما هو أهم منها وأجدر بعناية الزينى واهتمامه ؟ ثم بصراحة ياسعيد هذه البدعة لاتزيد الأمور إلا فسادا ، اطرق سعيد ، من يدرى ، ربما تضمنت بدعة الفوانيس أغراضا تغيب عن عينيه هو ، تساعل المجاور الشامى ، الناس تقيم الدنيا وتقعدها ، لكن هل جرؤ كبير أو صغير على إزالة الفانوس المعلق أمام داره ، صاح مجاور من منفلوط ، يهابون الزينى ، قال عمرو ، بالضبط ، سخر منصور ، أيششاه اتابك العسكركر نفسه ؟ قرص سعيد طرف شفته العليا ، أه لو يقول لهم ، بدلا من إنهاك أرواحكم أرقبوا مايفعله زكريا ، كيف فرض نفسه على الزينى ، لكن .. أحقا فرض نفسه ، من يدرى ، ربما جاء المنصب برضاء الزينى ، قال عمرو بن العدوى ولكن الحكاية ليست حكاية فوانيس .. أبدا ..

* * *

هتف الخلق فى الجوامع والطرقات ،

لعن الله الفوانيس

لعن الله الفوانيس

□ □ □

سعيد الجهيني

من قبل ، سعى اليه ، بعد الفجر صحبه الى الشيخ أبي السعود ،
هاهو ذا البيت ، البوابة مفتوحة ، لم يزد الزيني في بنائه ، من
حقه كناظر للحسبة الانتقال الى بيت أكبر ، لكنه يبقى هنا ، أمام
البيت يقف رجل نوبى يرتدى القميص الأخضر ذا الياقة والأكمام
الصفراء ، أمر جديد ابتدعه الزيني بالنسبة لنوابه ورجاله فى
الطرقات التابعين له ، لباس واحد ، فى الناحية الأخرى يقف خلق
كثيرون ، يمتد الصف بهم حتى يخرج من الباب الآخر للبيت المطل على الطريق
الخلفى ، تساعل النوبى : هل تبغى مقابلة الزيني بنفسه ؟ أكد سعيد ، نعم ، غاب
الرجل عنه ، أصوات أصحاب المظالم خافتة برغم عددهم الكبير ، إذ يلتقى بالزيني
يفتح له قلبه ، سيقول له أعانك المولى على احتمال ما تتعرض له ، عندما مشى
بجواره فى هذه الليلة البعيدة ، لم يقل الزيني كلاما كثيرا ، لم يخض فى تفاصيل ، لو
رأه الآن ينقطع الحديث بينهما ، سعيد يقول له ما مهد الشك الى قلبه ، الزيني يذكر
كافة ما يضايقه ، ما يتطلبه منصب الحسبة ، ما يجنيه من كلام الناس . عاد الرجل
النوبى ، نزل الزيني من البيت أول النهار ، ربما رجع بعد العصر ، وكان سعيد توقف
فجأة بعد جرى ، تساعل ألا تعرف أين ؟ قال النوبى ، للزيني جولاته التى لايعرفها
انسان ، ليطمئن على الناس ، لكننى أعرف مهمة واحدة من مهامه اليوم .. كما تعرف
هناك وقبعة بين ممالك طشتمر وخاير بك ، ناحية حارة الجوانية ، انتهزوا فرصة
الخناق ونهبوا عدة دكاكين فى الخط .. والزيني قصد الحارة لاحصاء المال المنهوب
وما لحق الناس من أضرار ، ورفع الأمر الى السلطان ، وتساعل سعيد .. متى جرى
هذا ؟ قال النوبى معجبا ، طوال الليل ، كيف حدث ما حدث وسعيد لم يصله خبر ،
ربما لبقائه فى الدرس حتى الظهيرة ، لكن ألم يصبح الصلح وشيكا بين طشتمر
وخواير بك ؟ هز النوبى رأسه ، أبدا ، بعد أن اتفقا على ضرورة التخلص من الفوانيس
كبقية الأمراء ، قال خاير بك ، لا أتفق مع طشتمر أبدا ، وعندما بلغ طشتمر هذا ..
صاح .. أبحقرنى والله لأقلبها فوق رأسه . فجأة علت ضجة ، فلاحون وجوههم
معفرة ، عيونهم تطير هنا وهناك لا تستقر على حال ، رأى سعيد أطفالا صغارا فى
قريته البعيدة ، رعوسهم ضخمة ، رقابهم نحيلة كالعيدان ، يمضغون تراب الطريق ،
عيونهم أوطن للذباب ، وجد نفسه يحمد الله لأنه لم يخلق فلاحا يشقى فى الغيط ، فى
رفع الماء من التربة الى القنوات ، تفرض عليه الآتاوات ، يجلده الكشاف ، يسعى
الى المدينة ليجهر بالشكوى ، لايرجع الى عياله أبدا ، لم يقطع مايفكر فيه إنما تملأى
حتى تساعل ، كيف حالى لو خلقت فلاحا ؟ سأله البواب النوبى بعد لحظات صمت ؟

لكن ما الذى تقصده من مقابلة الزينى ؟ ، اكد ان نائب الزينى الموجود حالياً يمكنه
 الاصفاء الى ما يقوله ، قال سعيد ، الزينى يعرفنى لابد من مقابلته هو ، ، سعيد
 لايشى باحد لكن امامه ادلة وقرائن تثبت ان برهان الدين بن سيد الناس ، تاجر الفول
 صاحب عدة مراكب فى النيل ، ومكامير فى منية ابن خصيب ، برهان منذ مدة يشتري
 الفول من الفلاحين ويخزنه عنده ، انشأ من الصوامع ما يفوق الحصر والعد فى
 ساحل اثر النبي بمصر القديمة ، يبرطل على عدد من كبار الأمراء ليفوز فى نهاية الامر
 باقرار شرعى من السلطان يقضى باحتكاره الفول ، هذا يعيد بلية قديمة يعمل الزينى
 على إنهاؤها وهى احتكار فرد بعينه او مجموعة ناس لصنف معين من الخضار
 او البقول او البضائع ، فما بالك والامر يهم الخلق اجمعين ، ماذا لو طلعت فى دماغ
 برهان الدين بن سيد الناس ؟ يمنع الفول عن الأسواق حتى يعز وجوده ، والحق إنها
 حادثة لم يسمع لها مثيل ، لم يحاول تاجر من قبل احتكار بيع الفول فى مصر ، لن
 يسكت الزينى ، تساعل سعيد : ايقلقه الامر فعلا ؟ ام ينبغى التاكيد من عدل الزينى ؟
 الحق انه لايدرى الآن ، يعبر طريق امير الجيوش ، المطارق تنهال فوق النحاس
 الاحمر ، تشكله حلا واباريق ، مكارى ربط حماره الى وتد بالطريق قعد بجواره
 يمضغ رأس فجلة وخيزا ، ها هو ذا دكان حمزه بن العيد الصغير يرتاح الى الجلوس
 فيه لايعرفه مخلوق هنا ، يخلو الى روحه تماما ، حتى منصور صاحبه يبتعد ، أهلا ..
 أهلا .. يانهار الفل ، ترحيب دافىء من حمزة ، يرده برفع يده ، بسط راحته فوق
 صدره ، طلب جوزة ، فى الأنفاس الاولى يشعر بدوار خفيف لطيف مع خلو الكرسي
 من الحشيشة ، يرتاح اليه ، ما احوجه الى تأمل ما راح وما استجد ، استعادة
 ماسيقوله للزينى بركات لو التقى به فى المساء ، اما رؤيته سماح بعينى عقله ، فلها
 مذاق اخر ، إذ يجلس هنا ..

* * *

مرسوم سلطانى

« يقضى الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاض لمذهب الحنفية »

* * *

« من قاضى قضاة مصر إلى السلطان »

« حميت الحق ، وأعليت كلمة الاسلام ، أقصيت المارقين ، أبقاك الله حاميا

للديار .. »

* * *

مرسوم سلطاني

« تبطل عادة الفوانيس .. ويزال ما علق منها ، وكأنها لم تكن ،

* * *

من امراء الديار المصرية واكابرها

« ما قمتم به حق ، ما اثبتموه عدل ، لعن الله الفوانيس ،

□ □ □

سعيد الجهيني

« إحك عن دنياك .. »

يحار من أين يبدأ ؟؟

« مات الشيخ البلقيني عالم الحديث في الأزهر .. مات عن ثلاثة وتسعين عاما .

لا يبدى الشيخ جزعا ، إنما يهتز رأسه هذا خفيفا لينا ..

« يرحمه ويرحمنا أجمعين .. »

« زكريا والزيني على اتفاق .. »

« أعرف هذا .. »

يبدى سعيد دهشته ..

« الزيني جاعنى أمس .. بعد سماعي الخبر ، فكرت أن أرسل اليه لأعرف حقيقة

الأمر ، لكنه دخل على وشرح الأمر ..

عوده مولاه إلا يطيل السؤال أو الاستفسار ، إنما يصفى الي مايقال ، يستنتج

ويحاول الفهم ..

« مولانا .. كل شيء يحيرنى .. »

ابتسامه تقطر صفاء

« كل شيء ؟؟ »

« مولانا أنا صحبت الزيني إلى دارك ، مشيت امامه في موكبه كأي ركبدار ، بشرت

به ، تحمست له ، أنا الآن أشك فيه ، أتضرر منه ، من شهر قلت فلامض إليه أنقل

ما سمعته ، ما استوثقت منه ، عن رجل يقال له برهان الدين بن سيد الناس ..

برهان الدين ؟؟

« نعم يا مولانا .. برهان هذا شرع في احتكار الفول ، عرفت أساليبه ، مكابيره ،

عرفت أن سعر الفول سيشط في الأسواق ، عندما جلست إلى الزيني ، بعد مرات عدة

ترددت فيها عليه بدون جدوى ، شكا إلى ما يثار حول الفوانيس ، قال إن الأمراء

غرروا بالناس ، ضحكوا عليهم حتى أثاروهم ضد الفوانيس مما جعل السلطان
يلغئها ، تحدث طويلا عن موضوع الفوانيس ، قال إنه كان يرجو الكثير من وراء
الفوانيس ، أبدى نيته في رفع الكثير من المظالم ، تحدث عن ضيقه بمنصب
الحسبة ، ما يجره عليه ، تصور يا مولانا ، شكنا من قلة المال بين يديه ، لأنه قبل
الحسبة كان يسافر إلى بعض البلاد يتاجر في أصناف بعينها ، يشرف على أرض
قليلة عنده في دمياط لكنه أهمل الأرض والرزق ، ومرتبته من الديوان خمسون دينارا
لا يكفي المظاهر التي يستلزمها منصب الحسبة ، حتى لو أبطل هذه المظاهر فلا بد من
ارتدائه أزياء معينة كلما طلع إلى السلطان وهذا يكلفه كثيرا ، لم يخف عنى شيئا ،
أدق أموره حكاها لي ، والله يا مولانا وجدت نفسي قريبا جدا منه حتى كدت أصرح له
بما يزعجني ، لماذا قبل استمرار زكريا بن راضي نائبا له ؟ تمنيت لو أقول له ما يفعله
زكريا بالناس ، لم تتغير عوائدهم ، يملأون الأزهر ، فهل يقبل ؟ كدت والله يا مولانا ،
لكننى لم أفه حرفا أبدا أبدا ، قلت له ما جئت من أجله فعلا .. هز رأسه وقال ..
سأكلف نائبى بمراقبته ورصد حركته ، وعندما يثبت صحة ما يفعله يلقي جزاءه ،
تصور يا مولانا ، من سيقم العدل ، من سيمنع برهان الدين بن سيد الناس .. زكريا
ابن راضي . لكننى قلت فى دماغى ربما يحاول الزينى استخدام زكريا لما فيه خير
للناس ، رحت أرقب برهان الدين ، لكنه استمر على حاله ، طلعت إلى الزينى مرة
ثانية ، قال مثل هذه الأمور تستغرق وقتا ، وذكر حلقة الخياط الذى عاقبه لاعتدائه
على غلام صغير برغم شفاعته أكبر الأمراء له عند السلطان ، لا أشرى يا مولانا ما الذى
يقصده الزينى ؟ حتى الآن لم يهز أصبعاه فى وجه برهان الدين ، هل أندم على سيرى
أمامه يوما ، من ناحية أخرى توجعنى المظالم ، لماذا يجلد الفلاحون وينكر عالم كبير
من الأزهر أمه التى جاءت من الأرياف تزوره .. لماذا .. لأنها فلاحه ! كيف أصدق
يا مولانا أن الناس خلقوا متساوين ؟ كيف ، وما حدث ويحدث وما سيحدث ينكر هذا
ويكذبه ، كيف ، أود لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد ، ليس فى
الديار المصرية وحدها ، إنما فى الدنيا كلها ، لكن أعمارنا ستضيع وتمضى ولن نقدر
على هذا .. تصور يا مولانا ، إننى أخاف ، أخاف عندما أرى عمرو بن العدوى ،
أتساعل عما سيكتبه فى أوراقه عنى ، ما يجعلهم يلقون بى يوما فى المقشرة ، فى
العرقانة ، أو الجب ، لكن ماذا يفعلون بى ، ربما قطعوا دراستى بالأزهر ، يمنعون
راتبى ورزقى ، يسدون أبواب الوظائف فى وجهى ، فليفعلوا .. ما قيمة هذا كله ،
إذا رفعت الظلم عن إنسان ، ما قيمته ؟ لكننى أجد نفسى من جديد أخشى الحرمان
والسجن والقيد والعذاب ، ارتجف لو سمعت باسم زكريا ، تصور يا مولانا ..
أنا الذى يعذبنى مرأى الذباب على عيون العيال فى بلدنا ، أتمنى .. أحمد الله ..
تصور يا مولانا .. نحمده ، لأنه لم يخلقنى فلاحا أعانى قسوة العيش وظلم الكشاف ،

مولاي أعذرتني لأنني وضعت أثقالى كلها عندك .. لكن ما حيلتى والزمان يلجمنى
ويكسر فكى ويخرس البوح فى صدرى ..

الليل يمضى صلماً ، فى البداية ألوانه خلابة تزداد مع ضياع النهار قتامة
وعمقا ، حتى يغرق الكون فى سواد ، تضيع أصوات العباد ، تدور أصابع الشيخ
حول بعضها البعض ، سعيد يخشى الليل ، لا يلقاه فى الرواق أبدا ، يرى نهاية
الضوء فى الطرقات ، بعد إطراقة تدور عيناه فى الفناء الصغير ، راسخ رسوخ جذع
النخلة المروية بالسنين ، مرتفع من الأرض يتوسط الفناء لم يلحظه . الشيخ ساكت ،
يشير سعيد إلى كومة التراب ، بروز الأرض .. « لم أره من قبل .. »
بأى سؤال يكسر الصمت .

« من حين إلى آخر أحتاج إلى خلوة .. من أجلها حفرت لنفسى هذا السرداب ،
حفرتة لجسدى أودعه فيه كلما حارت الروح وأعجزها الزمان ..
هذه الفتحة الضيقة تؤدي إلى سرداب الخلوة ، بمفرده انتزع لنفسه مكانا من
الأرض ، داخله يخف من أثقاله ، من أحماله ، تطلق الروح إلى واد يمكن فيه الوصول
إلى الحقائق الأولوية ، يدق أبواب الكون ، يفصح عن خباياه ، فيبصر القلب ويرى
ما يرى .. »

★ ★ ★

نداء

يا اهالى مصر ..
نامر بالمعروف وننهى عن المنكر
انكشف المستور
ظهر المقبور
باننت فضيحة على بن ابي الجود
الليلة قبيل المغرب
سيقرا الفقهاء فى الجوامع
وثيقة تلقون فيها ما تشاعون
لقروا ، كيف امتص الظالم
دماء المسلمين
فحق عليه عقاب مبين .

★ ★ ★



● رسم : جين ليون جيروم - متحف الفنون الجميلة - فانكسر

نقف ضد تعذيب البدن ، فلا نرضى لإنسان مهما كان . أن يحرق
عضو في جسمه أو ينعل كالفرس .

السارق الثالث

وأوله ..

وقائع حبس على بن أبي الجود

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى كشف كل غطاء ، وبسط الأرض ، ورفع السماء ،
نتوجه إلى أمة الإسلام ، تكشف أمرا طال به الترقب ، ليكون عبرة
لن اعتبر ، الحى ومن غير ، تفاصيل هذا كما يلى .. منذ عام ، أمر
مولانا السلطان بالترسيم على المدعو على بن أبى الجود ،
وتسليمه إلى متولى الحسبة الشريفة وذلك لعقابه ، وكشف
المخفى وراء أبوابه ، ومنذ البداية أضمرنا الصبر حتى النهاية ،
لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان ، ان يحرق عضو فى جسمه ،
أو ينعل كالفرس ، وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلطنا على بن أبى الجود ، وكشف
أمره ، كشفنا من أمواله ما يعجز عن تصديقه إنسان ، وكل هذا امتص من دماء
المسلمين ، وإليكم ما وضعنا يدنا عليه .

بلغ دخله اليومى من أملاكه وأطيانه وضماناته وحماليته تمة ألف دينار يوميا .
واشتملت تركته على مائة وخمسين ألف دينار ذهباً ووجد عنده ياقوت أحمر ، زنة
الفص رطل ونصف ، وستة صناديق فيها جواهر ، ومن الماس وعين الهرمئة قطعة ،
وعلى ذهب مقدار قنطار ، وطاسات وأباريق فضة نحو ستة قناطير ، ومائة قنطار بفرس
سنجاب ، وأربعمائة قنطار بغير فرس ، وسروج ذهب . عشرون سرجا ، وجد لديه
أيضا خمسون فرسا ومائة بغل ، ومائة جمل ، ومن الغنم والجوارى والمماليك شيء
كثير ، ووجد عنده فى المرحاض شبه فسقية ، كشف عنها فإذا بها مملوءة ذهباً ،
ووجد لديه من القمح والفول والشعير مائة ألف أردب ، ووجد عنده سبعون مركبا
سارحة فى النيل .

كان اللعين يخفى ثراه ويبدل الكثير حتى لا يشعر به أحد من الناس لكن صبرنا
وطول دابنا أوصلنا إلى ما خبأه وأخفاه ، وسيتم طلوعنا بماله غدا محمولا فوق
بغال ، حيث تضم هذه الأموال إلى خزانة مولانا السلطان ، فى وقت نحن فى أشد
الحاجة إلى المال ، لتحرك اعدائنا علينا ، ومن شاء منكم الفرجة فلينتظر فى تمام
الساعة الرابعة عربى وقت الضحى ، أيضا سيعرض عليكم على بن أبى الجود
وسترونه سليما معافى لم يلحقه أذى ولا تعذيب ..

تم الحوطة على ثلاثين جارية ، ومائة وعشرين عبدا ، وأربعين خصيا خصاهم
اللعين بيده ..

يا أمة المسلمين

يا أهالي مصر

أتوجه إليكم برجاء ، أبلغونا حال وقوعكم على أي إنسان يكتنز المال من دم المسلمين ، لا نقبل أبدا أن يجوع الخلق ، وتستمتع قلة ، أبلغونا : مهما علا قدر مكنتز الذهب والفضة والبغال والعييد والجواري أخذنا لكم الحق منه ..

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اجعل هذا البلد آمنا

وقائع تعذيب علي بن أبي الجود ، مرفوعة إلى الشهاب زكريا
ابن راضي كبير بصاصي مصر ، ونائب الحسبة الشريفة ، من مقدم
البصاصين في القاهرة .

★ ★ ★

بناء علي ما أشرت به ، ونوهتم إليه قامت فرقة من أشداء بصاصينا بتنقيب
الأحوال وإظهار ما جرى لعلي بن أبي الجود ، وقد نفذنا عبر أسوار منيعة ، وعقبات
كبيرة ، لنجتلي سر الأشياء ، وبعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين مع
الزيني ، لكننا لم نعتمد عليه وحده ، فهو أول رجل ينضم إلينا من ناحية الزيني ،
استوثقنا من مصادر أخرى ، تعرفون بعضها ، والآخر نحفظ به حتى ننقله إليكم
شفاهة ، أما بعد ..

ثبت عدم وجود سجن في بيت الزيني الكائن ببركة الرطلي فهذا البيت ضيق
ولا يتسع لوجود سجن به ، وأي صراخ فيه يمكن سماعه من قريب ، لقد نقل ، علي ،
إلى بيت قصي قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة . لا نعرف متى
انتقل إلى ملكية الزيني ، من شيده وبناه وجار بحث هذا .. يقع تحته سجن يضم
أربع عشرة زنزانة ، ليست زنازين بالمعنى الدارج ، الواحدة منها حجرة مستطيلة
طولها ثلاث خطوات بقدمي رجل بالغ ، ارتفاعها أزيد من قامة رجل عادية بشبر
ونصف ، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه ، يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدي
إلى الخارج ترى منها السماء قطعة فضية ، لكن الفتحة لا تظهر أبدا من الخارج ،
فوق الباب من الداخل مصباح يضيء بنفس طريقة الفوانيس ، هذا المصباح يواجه
الإنسان أينما استدار أو حاول الهرب ، حتى لو نام تحت الباب مباشرة ، ولو أدار
ظهره فحتما يجدها في مواجهته ، يثر الضوء ليلا ونهارا ، يحدث وشا خفيفا لا يدركه
الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير في الأذنين بعد فترة ، ويبرز من الجدران لوح
خشبي قصير يتناول فوقه المحبوس طعامه ..

السجان القائم على أمور المحابيس هنا ، شلب مليح الوجه ، رقيق العبارة ، جميل
الصورة ، وهذا يخالف كل ما اتبع من قبل ، ابتسم في وجه « علي » خاطبه بأدب
« إذا احتجت أمرا أطرق هذا الباب بقبضتك مرة واحدة » ، وعندما أقول من ؟ فلا تقل
اسمك إنما قل « واحد » أنت منذ الآن واحد ، طوال حديثه لم تفارق شفثيه الابتسامة ،
حديثه في ظاهره رجاء لكنه أمر في جوهره ، نظافة المكان لم تطمئن « علي » أدركه

رعب خفي ، ليس حادا ، إنما يماثل غرابة المكان ، هدوءه ، الباب يوحى باحتمال فتحه المفاجيء ، ربما انطبقت عليه الجدران ، تتغير الابتسامة ، عندما جاءه الطعام تعجب للغاية وضع امامه ارزا مفلغلا ، طبق ملوخية ، قطعة لحم وبرتقالة ، وهذا لم يسبق حدوثه في تاريخ الحبوس ، لكن لابد من توضيح امر هنا ، على بن ابي الجود ، او غيره من المحابيس الذين ساقهم حظهم إلى هذا السجن ، لم يشعر بالشبع أبدا ، إنما يعيش جوعا خفيا ، الأكل في مظهره أكثر من كاف ، يحدث شبعاً مباشراً ، لكنه لا يقضى على جوع خفي مستور يأكل نخاع الغطاء الدفين .

بقي على بن ابي الجود ثلاثة وتسعين يوماً لم يرق خلالها إلا وجه عثمان ، إذا دق الباب في أي زمان ، يجيئه مبتسماً كأنه لا ينام ولا يفارق المكان أبدا ، كأنه يعرف متى ينوي دق الباب فينتظر ، وبمضي الزمن بدا على بن ابي الجود يخشى الابتسامة والعينين الهادئتين حتى صار يزوغ من صاحبهما ، وربما وجد نفسه محصوراً بالبول ، يكاد يطق ، لكنه يابى دق الباب .

استعاد حياته لحظة بلحظة مرات ، اختلط عليه الليل والنهار ، بدا له الزمن جسماً شأنها بلا ملامح ، يعرف وجود آخرين بجواره ، دائماً يسمع عثمان يسأل من ؟ ثم تسير خطواته حتى يتوقف عند باب قريب ، فشل تماماً في الإصغاء إلى أصوات المحابيس الآخرين ، بدا يفكر كيف يفكر ؟؟ تمنى لو يحرقونه ، حتى العالم يروح من عقله ، ومثل المصباح يمزق لحمه ويجفف دمه ، وفي لحظة بلغ فيها درجة من الضيق العظيم دخل عليه الزيني بركات بنفسه ..

قال بصوت خال من افتعال المودة .

« أنا الزيني بركات .. »

تطلع إليه على بن ابي الجود متعجباً ، لم يره من قبل ، وما ننقله هنا ، قاله الزيني بالتقريب :

كما ترى يا على ، لم تفعل بك مكروها ، لم نضايك في بدتك ، أنا أعرف حيازتك لعمال طائل ، أنت داهية في طريقة إخفائه ، أخبرني عنه وكما تعلم أنا لن اضع منه درهما في جيبى ، كله سيذهب إلى خزانة السلطنة ، أما حريمك وعيالك فأنا اضمن معيشتهم .

« أين الأموال ؟ »

« هو على بن ابي الجود رأسه ، »

« اتنكر ؟ »

« أكد النفي ، قام الزيني واقفا .. »

« اللهم إني بريء من ذنبك »

بعد زمن لم يعرف مقداره ، دخل عثمان ، عصب عيني على بن أبي الجود بقماشة مبللة ، لحظة طال انتظارها ، لا يدري ما سيفعل به ، لكنه يفارق هذا المكان الغريب ، هذا يكفي ، نزل درجات ، عبر أبوابا ، تركه عثمان في قاعة خلاء ، ارتعدت مفاصله . تهبب الجلوس ، خطا الوقت ثقيلًا كالخيل إذ تحتضر ، ارتعشت أطرافه ، دب الخدر إلى ظهره ، جسمه كله يهتز ، فجأة هوت يد قوية صفعته فوق عنقه ، أطارته شررا ونجوما زرقاء في فراغ عتيم أحاطه ، ثلاث صفعات صنعت حزاما ساخنًا حول قفاه ، وهنا تبدأ الوقائع الفعلية لتعذيب جسد علي بن أبي الجود .

اليوم الأول :

وفيه دهنوا باطن قدميه بماء وملح ، أحضروا عنزة صغيرة سوداء في رأسها بياض راحت تلحق الماء المالح على مهل ، التوت شفتاه ، ارتجفت ضلوعه ، صار يصرخ ، ثم ينقلب صراخه ضحكا حتى غشى عليه ، سكبوا على وجهه ماء باردا .
« أين أموال المسلمين ؟ »
ولم يجب .

اليوم الثاني :

من الثابت الذي لا يدع فسحة للشك أن الزيني بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التي يتم فيها « استخراج الحقيقة » وفي أول النهار أخذ الغيظ ، لثبات علي ابن أبي الجود ، دخل بنفسه ، راح يعد أصبع يده الوسطى بحركة ثابتة في صدر علي ابن أبي الجود ، في نفس الوقت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه ، بدأ نزول الماء قطرة قطرة ، بفاصل زمني معلوم ، لم يمض وقت طويل إلا انتفضت رقبته ، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاص إلى قسمين ، صرخ صرخة هائلة خارجة من الحشا ، هنا زعق فيه الزيني « أموال المسلمين يا علي » .
ولم يجب ..

عصر اليوم التالي :

أحضروا فلاحا من المحابيس المنسيين ، نزعوا عنه ثيابه تماما ، نظروا إلى علي بن أبي الجود ، قال الزيني « أنظر سأفعل بك كما أفعل بالرجل » اظهروا حدوتين ساخنيتين لونهما أحمر لشدة سخونتتهما ، بدأ يدقهما في كعب الفلاح المدعور ، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع علي ، وكلما حاول إغلاق عينه يصفعه عثمان بقطعة جلد علي قفاه ..

اليومان : الرابع والخامس :

ذبح ثلاثة من الفلاحين المنسيين ، أسندت رقابهم إلى صدر علي بن أبي الجود
والزيني يدخل ويخرج محموما مغناظا يسأل « ألم يقرب بعد ؟ » لا يجيب أحد ، يضرب
الحجر بيديه ..

اليوم السابع :

عندما أحضروا خليل ، أصغر أبناء علي بن أبي الجود بدا غائبا قائما ، لكن عندما
صرخ خليل : اتسعت عينا أبيه ولم يسمع صيحات ولده ..

تعليق :

هذا بعض ما وصلنا من وقائع تعذيب علي بن أبي الجود . لكن الثابت فعلا - وهذا
مخير - عدم إقراره بمكان المال ، إذن من أين عرف الزيني مقدار ومكان الأموال التي
نشرها على الناس . العجيب أيضا أنه بعد مدة معينة ، وبعد تنوع أساليب العذاب
الجديدة التي يسميها الزيني « كشف الحقيقة » أصبح علي بن أبي الجود معاقى ،
التغيير الوحيد أصاب عينيه ، أصبح لا ينظر إلا في خط مستقيم كالأعمى لكنه
عبصر ، إذا ناداه أحد لا يجيب ، إنما يتحنى ويدل لسانه كالكلب ولم تفسر بعد
ما حلق به .

(مقدم بصاصى القاهرة)

★ ★ ★

نداء

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
أمر مولانا السلطان
بإعدام علي بن أبي الجود
ضرباً بالأكف
سيرقص طوال الطريق
كما ترقص النساء
أضربوه
أضربوه
كلما كف
فمن شاء الفرجة
والقصاص من عدو الله
عليه الخروج بعد صلاة العصر
يا أهالي مصر

رجب ٩١٤ هـ

مقتطف « ب »

ويتضمن بعض مشاهدات الرحالة البندقي ، فيسكونتي جانتي
الذى كان يعبر القاهرة وقتئذ لأول مرة ، وكان قادما من بلاد الزنج
والسودان ، قاصدا ركوب البحر ، عائداً إلى بلاده بعد تجوال
طويل .

خرجت من الخان ، والحق اننى وجدت الزحام ثقيلًا ، النساء يختلطن بالرجال ،
الصبية الصغار يحاولون التسلل بين الأقدام للنظر ، وعلى جانبي الطريق وقف رجال
اشداء مدرعون يرتدون ملابس زرقاء بياقات صفراء ، عرفت من على مترجمى
ان الموكب خرج فعلا من بيت الزينى بركات محتسب القاهرة وقف عند مدرسة
ابن انزمن ، عرج على جزيرة النيل ، اتى إلى شبرا ، استمر حتى عبر قناطر ابي
المنجا وطلع من قنطرة الحاجب ، دخل من باب الشعرية ، كنت آف عند بين
الصورين ، (سوق كبير) امام دكان يبيع أصباغ الملابس ، انتشر قلق بين الناس
تدافعت المناكب ، صرخ طفل ، اطلقت امرأة صوتا طويلا ، بسمونه هنا زغرودة ،
بدات تباشير الموكب ، عدة خيول مسرجة ، كلها بيضاء ، ثم مرت أربعة خيول يدق
راكبوها طبلا ، يتوقفون ليعلن رجل قصير لم اسمع اقوى من صوته قط ، واخبرنى
على مترجمى انه يطلب من الناس ان يضربوا على بن ابي الجود كلما كف عن
الرقص ، حتى يسقط ميتا ، والموضع الذى سيسقط فيه سيدال بقشيشا من الزينى ،
والحق ، هذا اغرب طريق إلى الموت رأيتة او سمعت به ، اخبرنى على ايضا انه يزف
إلى الناس بشرى حسنة ، امر السلطان بتعيين الزينى بركات واليا للقاهرة إلى جانب
منصبه ، وقبل الزينى المنصب حرصا على راحة الخلق ، ومن اراد الاعتراض على
ولايته للقاهرة فعليه إبداء رايه بعد صلاة الجمعة فى أكبر مساجد العاصمة
(الأزهر) ومنصب الوالى يشبه حاكم الإقليم عندنا ، اما الحسبة فلا مثل لها فى
بلادنا إذ انه منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية ، ويتلخص فى ضمان
الخير ، وطرد الشر ، والحقيقة لم اصدق ما اخبرنى به على ، فيما يتعلق بحض
الرعية على الذهاب إلى الأزهر لإبداء رأيهم ، هذا تقليد لم اراه قط ، سابق لزماننا
لم اسمع به ، على الرغم من سعة تجوالى ، سمعت اسم الزينى يتردد كثيرا يبدو انه
شخص خارق للعادة ، وساحرص تماما على لقائه ، عندما انتهى المنادى طرق اذنى
وقع طبيل ، الجمع كأنه إنسان واحد ، تزايد الصياح ، تلويح الأيدي ، دفعت الناس

حتى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط
القامة يقف في غير ثبات مخلوق الحاجبين والحية ، كحلت عيناه كالنساء ، تنافرت
بقع حمراء على وجنتيه ، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل ، يهتز
كلما مال الرجل وتثنى ، إنه يهز وسطه هذا عنيفا غير منسق ، يستمر الطبل ، يميل
بمنتصف جسمه الأعلى إلى الوراء ، يرعش صدره إرعاشا قويا ، يعتدل فجأة يبرز
مؤخرته إلى الوراء ، طوال هذا الوقت تمتد أيدي العامة ، تصفعه ، تضربه ، يدفع
أحدهم عصا قصيرة بين يديه ، فوق جبينه يتساقط عرق غزير ، يتدلى لسانه ،
يتفانى الناس في صفعه وضربه ، إذا سقط ميتا سينال من حوله الحلاوة ، عبثا
يحاول رجال الزينى منع الأيدي التي تحمل عصيا ومراكيب من الوصول إليه ،
ابتعدت العربة ذابت في الزحام الكثيف ، ابتلعت لعابى ، وجه الرجل الشائه
المذعور ، جسمه ، يسد الفراغ ، والحق أننى فزعت ..

★ ★ ★

نداء

أمر مولانا السلطان
بتسليم الأمير كرتباي
والي القاهرة القديم
إلى ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة
الزيني بركات بن موسى
لمعاقبته ، وإظهار ما نهبه اللعين
من أموال المسلمين

زكريا بن راضى :

يظن زكريا بن راضى أن لقاءه بالزيني تم فى الليلة نفسها ، ساعات الليل الأخيرة عادة لا يزعجه أحد إلا بدافع أمر جسيم ، ليلتها أصغى إلى ، وسيلة ، تحدثه عن بلادها ، ما يحب الإصغاء إليه ، عادات الناس هناك ، ألوان الطعام ، يسألها كيف لم يفض تاجر الرقيق بكارتها منذ اختطافها ؟ عودتها الأسئلة الغريبة ألا تحجل ، قالت انه طمع فيها ، كل من رآها طمع فيها ، وحدث قريب حلب . هنا مد زكريا يده ، لمس شفتيها بأطراف أصابعه ، حدثيني عن حلب ، لم تدركها الحيرة اعتادت منه الانتقال من موضوع إلى آخر ، فجأة بدأت تسترجع المدينة ، الطرق المؤدية إليها ، رجال البريد فى المباني الصغيرة القائمة وحدها وسط الخلاء ، عيون فلاحات الشام المتطلعة إلى القافلة ، إسراعهن بإغلاق بيوتهن ، تذكر ترحيب الحراس بالقافلة ، مسرور التاجر يعرفهم كلهم ، يدفع لهم مجعولا معيننا من الذهب ، لا يتعرضون له أبدا ، بل يتولون حراسته إلى الطريق ، زكريا يمسك كوبا مضيع الحواف ، لا يشرب الخمر أبدا ، لا يحب لوعيه أن يهجر العالم لحظة واحدة ، حدث منذ مائتى عام أن أضاعت الخمر واحدا من أعظم البصاصين الذين عرفتهم مصر ، فى زمن الظاهر بيبرس ، أدمن ابن الكازارونى الخمر ، صار يقول فى مجالسه الخاصة والعامية كل ما يعرفه عن أحوال الناس والدولة ، تسبب هذا فى فضيحته ثم قطع رقبته ، كان قد ابتدع نوعا جديدا من الخمور ، قيل ، مجرد رائحتها تجلب للإنسان سكرا عظيما ، نسبت فيما بعد إليه ، وعرفت بالخمر الكازرونية ، أمر السلطان الناصر بن قلاوون - فيما بعد - بإبطلها وإراقة ما تجمع منها فى الدنان ، زكريا يعشق عصير الفلكهة ، استحضر جهازا من بلاد تلمسان يعصر أقسى أنواعها ، يصفى البذور ، يرشف عصير العنب ، يمد يده إلى جيد وسيلة يمر عليه مرا هينا لطيفا تستمر فى حديثها ، ترتعش الحروف ، فجأة بينما تطلع يده وتنزل تقترب أصابعه من صوان أذنيها ، تخرج أنفاسه ساخنة فوق مؤخرة عنقها ، قشعريرة بدنها تنتقل إليه ، يتابع اختلاج ركنى فمها ، فجأة يحتوى أذنها الصغيرة فى فمه ، يرضع اللحم القاسى ، تشهق ، تتباعد أطراف جسدها ، تحيط ثدييها بيديها تغمض عينيها تروح إلى بعيد ، فجأة بضربة واحدة ، يمزق الثوب ، لا يفك أزراره ، إنما يمزقه ، يصفى إلى تقطع القماش ، تنكشف له بدايات العالم الطرى ، تبدأ حركة من عينيها تجسد فى السن ، تفتح الزهرة ، صبية تطرق أول العمر تدهش إذ تقف عند حدود الدنيا ، أمثل هذه المتعة توجد فعلا ؟ فى اللحظة ، هذه اللحظة تماما ، جاءه شهاب الحلبي طرق درع النحاس المعلق فى الدرقاعة السفلى ، نزل إليه ، أرسل الزيني بركات مبعوثا يطلب

من زكريا الحضور بسرعة لأمر جليل ، أو ما زكريا برأسه ، طلع إلى خزانة ثيابه انتقى رداء شيخ أزهرى ، منذ إقراره نائبا للحسبة لم يرسل إليه الزينى ، كل صلتها تقرير يومى يرسله زكريا إلى الزينى ، طبعاً تقرير يعد بشكل خاص ، مرات قليلة أرسل الزينى يسأل عن أمور ذكر أنها عامة ، جابج عليها زكريا وهو يضمه تعجبه لتفاهة هذا المطلب ، مثلاً أسماء الجوارى اللواتى اشتراهن الأمير بشتك فى عام ٩٠٧ هـ ، مقدار الخمر الذى يشربه الأمير قوصون كل ليلة ، اسم والدة بلع مخلل بالحسينية ، أصناف الطعام التى يفضلها قاضى القضاة عبد البير ، أو عدد أمتار الثياب اللازمة لعمل عباءة زركش لخوند زينب زوجة طشتمر ، كم مملوكا له ست أصابع فى كلتا يديه وعددهم فى الأبراج ، زكريا قابل هذا باستغراب ، تدارك رأيه بسرعة ، ليستبعد السخرية والاستهزاء ، مثل الزينى لا يطلبها إلا لأمر جسام ، عندما التقى به أول مرة فى بركة الرطلى ، أدرك قدرته ، كل منا خلق ليلقى الآخر ، نزل السلم بسرعة ، عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته ، ستحدث إليه بهدوء ، لاشيء يمثل مفاجأة بالنسبة لزكريا ، بل سيوحى إليه أنه ضمن نية الزينى فى استدعائه ، طلع إلى الفناء الواسع ، لأوراق الشجر حفيف مسموع ، ما أذ الرجوع إلى وسيلة ، لم يرتو منها تماماً ، دار بعينيه باحثاً عن مبروك ، مبروك الوحيد الذى يميزه حتى لو اختفى فى زى الجان ، يبدو للغرباء أحرص لكنه يتحدث قليلاً جداً ، أحياناً يعنف زكريا ويلومه لوما قالسيا ، زكريا يقبل هذا ويصغى إليه ، وينفذ ما يقوله مبروك ، سأل زكريا ، « أين رسول الزينى ؟ » تقدمه مبروك ، همس زكريا « إذا لم أرجع حتى ظهر اليوم التالى فقل لمقدم القاهرة أن يهتدى بما يقوله شهاب الدين كاتم السر .. مفهوم ؟ دخل زكريا إلى حجرة الجلوس بالديوان ، قام رجل بدوى ملثم ، أهلاً بالشهاب الأعظم زكريا .. » نظر زكريا إلى الوجه الملثم ، الحزام العريض المرصع بفصوص معدنية بارزة ، زكريا يتفحص رداءه ، هذه الأمور الصغيرة ، تبدد دهشته عندما رأى الزينى بنفسه ، دخل الزينى مباشرة فى عرضه قال : بدون لف أو دوران ، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط .. أين أخفى على بن أبى الجود أمواله ؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمنى ، باختصار كعناوين البطائق ، لا أعرف ، زعق طائر غريب الحس فى السماء ، الليل يشيخ ، قام الزينى مرة واحدة ، على مهل اقترب من زكريا « أنت يا زكريا تعرف تماماً أين موجودات على بن أبى الجود ، أنت لا تخفى عنك شيء ، ولو خفى لما خاطرت بسمعتى وأقررتك نائبا للحسبة ، أنت تعرف ليس لأنك شغلت منصب نائب على بن أبى الجود إنما لأنك زكريا ، أتفهمنى ، لأنك زكريا بن راضى أعتى من تولى منصب كبير بصاصى مصر ، لم يرد زكريا ، ليقل الزينى ما يريد ، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه ، الضوء خافت غامض مرعوش ، يوشك على توهج

لكن يدا قوية تحبسه ، توشك على إلغائه ، قال الزينى بركات بن موسى ، أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان ، الآن بعد مضي زمن على مجيء الزينى آخر الليل لم تبرد حرارة ما قرره زكريا بعد انصراف الزينى ، ربما امتد الزمن سنين طويلة ، لكن ما قرره لابد أن يتم ، يتحقق يوما ، يراه مجسدا ، أى قوة استطاعت فى أى زمن منع كبير البصاصين من تحقيق غرض أضمره ، لن يمنعه إنس ولا جان ، ولا ألف طلسم ، أبدا لن ينسى أيام العزلة التى فرضها على نفسه فى اليوم التالى لزيارة الزينى ، أمر بالآ تدخل إليه تقارير ، طلب من مبروك ألا يريه ملامح أى إنسان ، الطعام مضغه بضيق عندما اضطر إلى تناوله ، عندما أنهى عزلته ، جاءه رجاله مهنتين ، لكنهم ارتدوا عنه خائبين ، قابلهم بوجوم وضيق ، سرفى نفسه عندما أخبره شهاب الحلبي باستعداد كبير أطباء السلطان للمجيء إليه طوال أيام عزلته ، فى الأسبوع الأول ، التالى لمجيء الزينى ، دخل مبروك قال « الزينى بركات جاء » فى الغناء وقف ، يتحسس بعصاه جذع نخلة ضخمة مغطى برقائق نحاس ، قال ، أفضل لو جلسنا فى الشمس ، بيتى فى بركة الرطلى لا تدخله الشمس ، الزينى ينكت الأرض بعصاه الرفيعة ، زكريا يسند جبهته إلى يده اليمنى ، أرجو أن تسمعنى ، ان يتسع صدرك لى .. زكريا يهز رأسه ، جاء الزينى بثيابه العلية ، لا يرتدى الملابس البدوية ، أفكار كثيرة تدور فى عقلى ، لكنها لن تتم إلا بعرضها عليك ، أرجوك أن تخطئنى إذا بدا لك هذا ، أنت أكبر منى علما وتجربة بما سأقول ، القرد واضح فى الفاظه ، ارتياح خفى يتسرب إلى زكريا ، أردت أن أفضى إليك بما أوده وأرغبه لنظام البصاصين ، هل يمكن لإنسان أن يتخيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدون عيون قوية مخلصه ترى فى كل مكان ما أراه أنا .. قال زكريا بسرعة ، عندك رجالك .. نفخ رأسه بسرعة ، سرور فى صوته ، ربما لاستجابة زكريا إلى الحديث ، أعرف أنك ستقول هذا ، لكنك يا زكريا تهول من أمر رجالى ، اليس من الأفضل للإنسان رؤية الدنيا بعينين بدلا من عين واحدة ، صحيح ، ستقول ومعك الحق كله ، لدينا آلاف العيون ، صحيح ، لا أعترض ، ولكن لو وجدت مجموعة أخرى لها نظام مخالف ، طريقة ثانية ، ألا يصبح هذا مفيدا ، أولا .. اعذرنى لأننا لا نلتقى بما فيه الكفاية مشاغلي كثيرة جدا يا زكريا ، تصور إنسانا يقر بالعدل بين الناس فى مثل هذا الزمان ، أنت تعلم ما ينويه ابن عثمان ومهما طال الزمن فالحرب واقعة لا محالة ، مهما طال يا شهاب ، لقد أخبرت مولانا بهذا ، وأقولها لك صريحة ، بل إن ثقتى بك تدفعنى إلى التصريح بما هو أكثر من هذا ، المشرق لا يحتمل دولة بنى عثمان ودولة المماليك فى مصر ، إما نحن وإما هم ، لا تندش يا زكريا ، أو بمعنى آخر لا تصنع الدهشة ، أنت أدري منى بهذا ، من يعطس فى

القسطنطينية تسمعه أنت هنا ، كل حركة هناك أنت تعرفها ، وبإذن الله سوف يتغلب عليهم ، ببركة البيت الذي يحميه مولانا ، فكما ترى ، الأحوال صعبة ، لا بد من لقائنا كثيرا ، ننظم أمورنا معا ، ما ينقله رجالي سأقدمه لك ملخصا كل يوم ، عندك تجربة مهولة ، عندك أدق نظام في الدنيا لاستخدام الحمام الزاجل والبريد ، وأنا وأنت نشهر سيف العدالة ، أنا وأنت نقيم الميزان صحيحا لايميل ولا يخل ، ما أريده يا زكريا أن يصبح رجالنا أداة العدل بين الناس كل الناس لا بد أن تعرف هذا ، كف الزيني فجأة عن الكلام ، بقى زكريا ناظرا الى الأرض ، قال بعد لحظات « أه .. وبعد ؟؟ » ، وكان الزيني لم يتوقف قط ، قال بسرعة « حتى لا أعطك جئت اليك بأوراق فيها ما أتخيله ، أرجوك إبداء الرأي فيها » .. عند الباب شد على يد زكريا ، أدعوك الى الغداء عندي .. أى وقت تختار ؟ ، قال زكريا « لا أفارق البيت إلا نادرا .. » اتسعت ابتسامة الزيني ، « سوف أمد لك مائدة حافلة .. » قال زكريا إذن سأرسل لك وثلثي قريبا ، عاد إلى الحديقة ليرجىء التفكير فيما قاله حتى الليل ، بعد قراءة هذه الأوراق ، لا بد من النفاذ الى باطن كل حرف ، الأمر ليس هزلا ، ما قدره منذ هذه الليلة ، يزداد رسوخا في عقله ، لكن الحقيقة ، الزيني رجل لم يعرف له مثل ، أحيانا يفكر زكريا ، بضرورة مجيئه بعد هذا الزمان بسنوات ، لا يدري مقدارها تماما ، ولكن أليق به العيش في زمان بعيد ، يلقي فيه أدوات يحلم بوجودها ، لا يدركها لعجزه ، وعجز زمانه عن تجسيدها ، هذا الزيني جاءه أيضا من العصر الغامض النائى الذى يود العيش فيه ، مثله لا يستهان به ، مع مجيء الليل أدرك زكريا خاطر مزعج عند زيارة الزيني الخفية ، يعود الى ممارسة وظيفة لم يشرع فيها من قديم ، تقريبا منذ توليه منصب مقدم بصاصى القاهرة ، قبيل إرتقائه الى منصب كبير البصاصين ، الليلة يرتد الى زمن بعيد تعقب فيه الخلق بنفسه ، كان يتخفى فى ثياب أرباب المهن والطوائف ، وقتها استحدث طريقة جديدة فى اقتفاء الأثر ، تعقب الانسان بالسير أمامه ، وهذا لايقوم به إلا عتاة البصاصين ، زكريا ابتداء العمل بصاصا من أصغر الدرجات لم يسبقه أحد فى هذا ، الليلة يرهف حواسه التى خدمته بصاصا صغيرا مبتدئا ، لكن أين ؟ هنا فى بيت ، كيف عرف الزيني أمر المملوك شعبان ؟ كعادته عندما يتفحص أمرا محيرا ، يمسك قلما ويرسم أشكالا وخطوطا ودوائر ، لا معنى لها فى ظاهرها ، لكنها تساعده ، تركز فكره ، من رافقه عند ذبح المساجين ودفن شعبان ؟

مبروك ..

لن ينفى عنك الشك ، لايعلو مخلوق عنده على الشك ، أبدا .. يوضع مبروك فى الدرجة الأولى حتى يثبت عكس ما يظنه ، ثم ، من يفترض أنه تابعهما ، أو راقبهما خلال الدفن ؟ ، فى هذه الليلة خلا البيت تماما ، لكن ليحصر المترددين على البيت .

— شهاب الدين الحلبي .

— مقدم بصاصى القاهرة .

رجال الديوان ، وكلهم معروفون لديه .

ربما نفذ أحدهم ، استطاع رؤيتهما بطريقة ما ، لم تتضح حتى الآن ، نقل ما رآه الى الزينى ، هذه فعلا مصيبة ، كيف يطل الغريب عبر الأسوار ، لابد من مراجعة مآكثب عن رجاله واحدا واحدا ، أصولهم ، أحوالهم ، أمزجتهم ، أفكارهم ، ثم تضيق الحلقات ، يمد الخطوط ، يضع الدوائر ، حتى تضيق الحلقة حول عنق بعينه ، ثم ينتقل الى معارفه وأقاربه خارج رجال الديوان .

— الحريم .

(أ) نسأوه الأربح

(ب) الجوارى

من الليلة ، سيرى كلا منهن ، ليبدأ بأقدمهن ، حكمت ، أولى حريمه ، هجرها منذ وقت ، ولم يزرها ، الليلة يبدأ بها ، وعندما يشم عبير المسك ، يرشف عصير العنب ، يأكل الدجاج المسقى بالسمن وماء الورد ، تخرج الأسئلة منه تائهة بلا قصد ، الباقيات لكل منهن وقت يلى الليلة ، الجوارى ، « وسيلة » لكنها طفلة لا تكاد ، جاءت قبيل تولى الزينى بأسابيع ، من يدري ، لن يخرج أحد عن دائرة الشك ، يبقى احتمال لجوء الزينى الى حيلة جديدة يجهلها زكريا ، هذا ماسيحاول الوصول اليه ، لابد من ذهابه الى « بركة الرطلى » ، الزينى يقترح عليه بحث الوسائل والخبايا يريد معرفة طريقه ، لا يغيب عن زكريا الضيق الذى جاءه ، صحيح أنه يأخذ حذره من جميع الناس بما فيهم أقربهم اليه ، العاملون فى بيته ، حريمه ، فليات الذين يشهرون به ، الذين يلعنونه ، ليروا أى هم يعانيه ، أى متاعب تحل به ؟ خط عدة دوائر ، منذ الآن سيكون كل واحد فى بيته عينا على الآخر ، كل امرأة سترقب الاخرى ، الرجال ، يذكر بعض التواريخ الخاصة بالبصاصين ، تمكن ملك المغول - أحد أحفاد كبيرهم جنكيز خان - استطاع أن ينفذ إلى بصاصى بغداد ، انسان واحد فقط اعلى منصب نائب كبير بصاصى دولة الخلافة العباسية ، وهكذا وقف على أسرار الخلافة كلها ، راسل بها المغول زمنا طويلا ، حتى اجتاحتوا بغداد وهم على علم بأية أرض يخطون فوقها ، وكان ما كان ، قام زكريا تحن روحه الى التجوال فى المدينة والليل مطبق فوقها لكنه لن يخرج أبدا ، عندما يتبين له الانسان الذى أبلغ الزينى بما تم ، يتخيله الآن ، الغل يعتمل فى بئر قلبه ، يرى بعينى عقله ألوان العذاب التى سينوعها لصاحب تلك الفعلة ، أى طريقة مستحدثة لا تخطر ببال جن ولا انس يختارها لانهاء حياته ، أى طريقه ، أما ما قرره بخصوص الزينى بركات بن موسى فلن يتراجع فيه أبدا حتى لو أفنى عمره كله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ،
وجادلهم بالتى هى احسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله
وهو أعلم بالمهتدين) .

«ما اقدمه إليكم ليس الا مجموعة خواطر وأفكار تراءت لنا ، اذا ما رأيتم صلاحيتها
أرجو ان نعمل معا على اقرارها ، حتى يستقيم العدل ويستقر ولن نبالى فى هذا إلا
إلا مرضاة رب العالمين ، وكما تعرفون فإن أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، قال
(من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم ، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله
إليهم ، ومن أحسن فيما بينه وبين الله - تعالى - أحسن الله فيما بينه وبين الناس ،
ومن أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله شر دنياه» .
وبعد ،

كان أسس عملنا - أنا وانت - اقرار الامن والعدل فى ربوع السلطنة ، وسأقصر
حديثى الآن على دائرة اختصاصى (القاهرة والوجه البحرى الذى أضافه السلطان
الى نظارة حسبتى أخيرا) أما فيما يخص ربوع الشام ، فهذا أمر أنت عليم به ، خبير
فيه ، ولا أقر عليه ، وحتى يستقر العدل فى بر مصر لأبد من اقامة أسس قوية ،
ودعائم متينة ، وكما هو معروف لدينا ، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس ، فمن سبقك
لم يظهر الا جانبها الوحشى ، حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها وعدم استمرار
الدنيا بدونها ، من هنا فلا بد من وصولنا الى لحظة يصبح فيها كل بصاص محبوبا
مبجلا من الجميع ، رجال الدنيا والدين ، وسيتم هذا بوسائل عدة سنناقشها معا ،
لكن ما يهمنى الآن تقسيم الجماعات والفئات التى سنعمل خلالها ، وتحديد أهمية كل
منها ، وضرورة التركيز على بعضها دون الآخر .

تنقسم مصر الى فئات (وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات)

- ١ - السلطان والأمراء الكبار
- ٢ - المماليك والأمراء الصغار
- ٣ - أولاد الناس ، المتعممون ، والفقهاء أرباب الطوائف والحرف ، التجار .
- ٤ - العامة من الناس .

بالنسبة للفئة الأولى ، يجب النفاذ الى خباياها ، عن طريق بصاصين متخصصين
على درجة عالية من الرفعة والإمام بالعلوم والقدرة على المناقشة ومعرفة تقاليد
هذه الفئة وعلومها ، وغرضنا هنا حماية مولانا السلطان والامراء الكبار ، وأرى

ان يكون البصاصون المخصصون للتوغل داخلهم من نفس الفئة (على خلاف المتبع حاليا) .

● الممالك والأمراء الصغار وتخصصهم فرقة تتبعك وتقوم بعملها خير قيام .
● الفئة الثالثة لابد من التركيز عليها ، والاهتمام بها اهتماما كبيرا فلهم تأثير عظيم على الفئات القريبة منهم ، الجماعات العلوية (الامراء والأكابر) أو السفلية (العامه والأوباش) .

● عامه الناس وهم دائما مثيرو الفتن ، ربما حركوا بعض المتعممين والفقهاء في ظروف عدة ، واجدنى مضطرا الى تقسيمهم .

(أ) طلبة الأزهر والكتاتيب ، وهؤلاء لابد من تتبعهم باستمرار ، وإثارة بعض الفتن من حين الى حين لكشف من ضل ومال الى جانب اثارة الفتنة والغم ، وتحريض الأوباش على سادتهم ، هؤلاء لا يجزرون من بين الناس فر بما أثار هذا سخط العامة ، إنما يعاملون بطرق مختلفة وأساليب متنوعة سنتفق عليها معا .

(ب) بالنسبة للعامة فهؤلاء قطع يتجه كيفما توجهه انه بحر زاهر طوع الريح ، وحش بلا عقل تسوسه فيطبعك ، والاعمار في هذه الفئة لا قيمة لها ، فكلما ضاقت سبل العيش ، قلت قيمة الحياة ، وذهب عناء الحرص عليها ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين الى آخر ، بطريقة لا يعرفها أحد ، وهذا يرهب الباقين .
أرجو مساعدتي في اعداد كشوف تضم اسماء جميع العاملين في الحرف والمهن والصناعات والتجارة ، كشف يحوى اسماء القصاصيين وآخر به البنائون ، والمرحمون والصباغون ، والنقاشون ، والعقادون ، والصدفجية ، والنساجون ، وباعة الحلوى والمشبك ، والشربتلية ، وغيرهم .

لابد من حصر المواليد الذين يجيئون الى الدنيا وكل أب ينجب طفلا لا يبلغ عنه الى نائبى فى المنطقة التى يقيم بها يعاقب بالجلد ، ويأذن الله أنوى شئق عدد منهم فى البداية حتى يرتدع الباقي وهكذا يمكننا معرفة اعداد القادمين ، من سيخلفوننا فى دنيانا ، ندرجهم فى كشوف ، نتابعهم فى نموهم ، تلقىهم التعليم ، سواء أكان التعليم دينيا أو دنيويا ، فى طائفة أو حربيا بالنسبة لأولاد الامراء والممالك ، تقدم عنهم التقارير كل فترة بعينها ، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم ومكان الخطر فيهم ، حتى اذا ولينا عن الدنيا ، حانت أجالنا ، وهذا الامر لا يعلمه إلا الله ، تركنا لمن يأتى بعدنا سجلا نافعا جامعا لكل ما عر كناه ، وما رأيناه فى زماننا ، وبالنسبة لهذا الامر قررت شهر النداء به والعمل به بعد أن وافقنى السلطان عليه .

أرى ونحن مقبلون على عصر كله محن ، وفتن ، ونظرا لتعدد الطوائف والأجناس في بر مصر ، أن تعد بطائق صغيرة من الجلد ، يحملها الصغير والكبير والبصير والضريير ، يوضح في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج ، بالكشف أيضا المهنة التي يزاولها الشخص ، الجهة المقيم بها . تختم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائبى في منطقة الإقلمة ، والآخر من مقدم البصاصين في نفس المكان ، ومن ضبط بدون بطاقة جلد ، عوقب معاقبة شديدة ، وعند وفاة الإنسان تقوم أسرته بتسليم بطاقته الى مقدم البصاصين لترفع الى الديوان فيشطب إسمه من الأحياء ، وينقل الى كشوف الأموات ولا يستثنى الجريم .

في المدة المنقضية على ولايتى للحسبة ، لاحظت طلوع حكايات بين الحين والحين تنتقل بين الناس الغرض منها التشهير بأحد كبار رجال السلطنة ، ومنى شخصيا ، وهذا أمر تتفق معى على ضرورة مقاومته وإزالة أسبابه حفاظا على هيبة الأمراء ، والرجال الأكاير ، وأضرب مثلا بسيطا ، عندما أردت انارة القاهرة بالفوانيس ، تردد كلام كثير حول الموضوع واعتبر واقعة عظيمة أدرجت في كتب التاريخ ، مما اضطرني الى الرجوع عن أمر انتوينته ، وشرعت فى البدء فيه ، هذا لم يغضبني قط ربما أخطأت الوقت ، لكن ما ألمنى وأوجعنى هذه الحكايات التى تردت على السنة العامة ، وهم يحبوننى ، مما دفع بى الى الظن باختلاق هذه الحكايات والنوادر ، وأنت كنائب للحسبة ونائب لى فى جميع ما أتولاه من مناصب (قررت هذا أخيرا) ، وما يلحق بى اليوم ، يلحق بك غدا ، ومما يمسنى بمسك ، لهذا أرى أنك الوحيد القادر على مقاومة وإخفاء هذه النوادر والحكايات حال ظهورها ولن أقبل عذرا ، فلا مستحيل يحول بينك وبين ما تريده .

واقبل منى السلام ، وأدعو معك أن يجعل الله هذا البلد آمنا .

(متولى حسبة الديار المصرية)

والى القاهرة

الزينى بركات بن موسى

عمرو بن العدوى

لا يدعه يغيب عن عينيه ، اذا بعد عنه ، عرف اخباره من اصحابه المجاورين ، يجلس هادئا بينهم ثم يسأل عنه سؤالا عارضا بلهجة يعرف الآن كيف يلونها تماما ، ألم ير احدكم سعيد الجهيني ؟ ، يقول احدهم «خرج منذ الصباح» ، يجيب آخر «سعيد تعود الجلوس في مقهى قريب من جامع قلاوون» ، يقول عمرو «سعيد ابن حلال» ، يسكت ، منذ ايام خرج عمرو الى الطرقات يرى اياما نائيات يمسك فيها بجلباب امه ، خرجا الى الحقول لينتزعا البطاطا ، رائحة الضباب لم تفارق أنفه رائحة الخبيز ساعة الظهيرة ، البوص ، وهج الاقران ، جريه مع الأولاد عند مجيء نائب المحتسب ، نظرات الحريم المذعورة من الطيقان الضيقة ، خوف يضم القلوب ، عند سوق النحاسين يشم دخان المستوقد المجاور لحمام قلاوون تسوى فيه قدور الفول المدمس .

صباح الخير .. يرفع حمزة بن العيد الصغير يده .. «أهلا .. أهلا بالقمر ..» منذ ثلاثة أسابيع يمر يوميا على حمزة ، يشرب القرقة بالحليب ، يدفع درهما كاملا بدلا من نصف درهم ، في أحد الايام تغيب عن المجيء ، في اليوم التالي أبدى حمزة جزعا ، تمنى ألا يكون لحقه مكروه ثم دعا له بطول الستر ، عمرو يجيء هنا في أوقات معينة ، يعرف من تتبعه لأخبار سعيد ، مواعيد حضوره ، قال مقدم البصاصين ، تردد سعيد الى مقهى حمزة ، أمر جديد لم تبلغ عنه الا أنت ثم قضاؤه وقتا في تدخين المعسل هذه علامة جديدة ثم ما الذي دفعه الى اختيار هذا المقهى بالذات ، تلك أمور لا بد من ايضاحها ، في البداية حامت حوله الظنون ربما يتخذ الدكان مكانا للقاءات مريبة ، لكن الرقابة الصابرة المحكمة ، أثبتت أنه يقضى الوقت كله منفردا لا يتحدث الى أحد فيما عدا حمزة بن العيد الصغير ، حامت الظنون حول الألفاظ المتبادلة بينهما ، لكن ثبت أنها لا تعدو طلبه الحلبة ، أو تحية ، أو تبادل المودة ، وكلها ألفاظ لا تخرج عن حديث زبون وصاحب مقهى ، وان تميزت بؤد زائد ، أيضا طريقة طلبه للحلبة لا تدعو للريبة ، لا يقرن طلبه بأية اشارات خفية أو رموز سرية ، ربما تضمنت معاني دنيئة تغيب عن اللبيب الفطن ، أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى مقدار ساعة أو ساعتين ، في مرة أخرى قال مقدم البصاصين «لا بد من وجودك على مقربة من سعيد الجهيني» عمرو يعرفه ، ينام في الرواق بالقرب منه ، عالم بطبائعه ، بلحظت سروره ، ولحظت كآبته ، وما يصاحبها من علامات ، أو انقباضات وجه ، من هنا يمكن لعمره لو راقبه جيدا تتبع اختلاجات وجهه ، ارتعاشات عينيه وحركات يديه ، ربما توصلوا الى شيء ، لكن لا بد من الحذر ، بحيث

يجلس عمرو في مكان لا يمكن لسعيد أن يلحظه ، تساعل عمرو «كيف يمكن هذا والمقهى ضيق على صاحبه ؟ ، هنا فرد مقدم البصاصين بين يديه ورقا عريضا ، به رسم للمقهى وما احتوى عليه من اوان ، ومقاعد منحوتة في الجدار ، أشار الى فجوة في الحائط قريبة من نصبة الفحم والحلابة والسحاب ، «هنا ستجلس» وسعيد لا يدخل إنما يبقى في الخارج ، تستطيع رصد حركاته بدون أن يراك ، لكن يجب ألا يأتي جلوسك هنا مرة واحدة من اليوم ، اذهب الى حمزة بن العيد الصغير ، عامله بمودة ، اجزل له العطاء ، كوب الحلابة عنده ثمنه نصف درهم ، اعطه درهما كاملا ، هل تحب الحلابة ؟ ياه .. نسيت عشقك للقرفة بالحليب ، الثمن واحد ، عموما ستأخذ مصاريفك كاملة اول كل اسبوع ، من اليوم ستذهب الى الدكان لمدة خمسة عشر يوما ، بعد صلاة المغرب في أى وقت بعد العشاء يمكنك أن تجلس في أى مكان تشاء . سعيد لا يأتي في هذه الأوقات ، في اليوم السادس عشر اذهب مبكرا الى الدكان ، اطلب الى حمزة بن العيد الصغير أن يبيحك جالسا في هذه الفجوة ، هنا .. ابق ولا تتحرك ، أظهر الحزن ، وعدم الرغبة في الكلام سيجىء سعيد .. سيجلس هنا ، هل ترى ؟ ومن مكانك ستراه تماما ، لن يتمكن من رؤيتك .. هل فهمتني ؟ أبدي عمرو تعجبا لدقة التفاصيل . سخط الدكان ومسح ليبقى بهذا الحجم فوق الورق ، قال المقدم «توكل على بركة الله .. اسمع .. هل تحتاج نقودا ؟ ، هز عمرو رأسه ، خيرك يغرقني ، بقيت يده معلقة بين يدي المقدم ، «ما أخبار الوالدة ؟ ، كان فصا مر الطعم ذاب في ريقه ، لا يعرف لها خبرا ، عندما رجع شيخ زاوية العميان ، أسرع اليه ، يعرف انها لا بد سترسل اليه شيئا من البلد ، ربما أرغفة بتلو ، قدر مليء بالمش والجبنة القديمة تصل به الزمن الذي قطع المسافة بينهما ، عمرو لن ينسى أبدا صوت الرجل قال «لم أعر لها على أثر ، قالوا في البلدة انها لم تمت ، منذ مدة بدأت تتحدث عن مجيء هاتف في المنام أنذرها بقله ما تبقى من عمرها ، لا بد من رؤية عمرو ولدها ، وحتى لا تشغله عن طلب العلم قالت لصاحبها سكينه الدودة التي تصنع اوانى الفخار ، الدودة هي التي تلقت عمرو عند ولادته ، فوق كوم يرسيم أخضر قطعت حبل خلاصه «يا دودة أنا سأسافر الى مصر لأرى كبدى ، قالت الدودة «مصر بعيدة وانت مارحت اليها أبدا ، لكنها أصرت ، قالت لكل رجل في البلدة والنساء ، حتى الأطفال ، توقفهم في الطرقات وتحكى لهم عن ولدها عمرو ، ضرورة رحيلها إليه وتتمنى لهم أن يكبروا ويصبحوا مثله . اعطتها الدودة زوادة اكل ، في يوم صحت فلم تجد أم عمرو ، داروا عليها في غيطان البطاطا ، وملقة البطيخ ، لم يعثروا لها على أثر ، ولم يذكرها أحد ، بعد وقت قليل لم يحتجها أحد يوما ، إنما هي التي احتاجت الناس دائما ، تعجب شيخ زاوية العميان قال «ظننت أنها جاءت اليك ، غامت عينا عمرو ، رأى امه فوق طريق مترب مهجور يصل بين

قريتين ، تقطعه ترع ، حفر ، غابات نخيل ، ينزل عليها الليل لا تلقى ما تدفىء به معدتها ، تسأل القدامين والذاهبين عن الطريق الى مصر ، أحيانا يوقن عمرو بقربها منه ، ربما يلتقى بها فجأة ، هل سيعرفها ، ربما غيرتها المسافة ، ربما ضعف بصرها . فلا يمكنها رؤيته ، ثلاث سنوات لم يسمع لها حسا ، لم يلحظ ارتعاش هديبها ، هو تغير ، تجيء لحظات يلوم نفسه لوما عظيما كيف انقطع عنها ثلاثة أعوام ، كيف .. لا فائدة ترجى ، جرح غرس نفسه في كليته في قلبه لكن ماذا يحدث لو مرت في الطريق أمامه ، اثناء مراقبته لسعيد ، هل يقوم منتفضا ، كاشفا نفسه ، يعانقها ، يدرك سعيد ما يحك له ، يعلم مقدم البصاصين بإفساد ما تم تدبيره ، عمرو ليس بمفرده في المقهى ، يعرف هذا تماما ، هناك عين أخرى ترقبه ، ربما حمزة ابن العيد الصغير نفسه ، ربما غيره ، شخص واحد ينفى عنه الشك هو سعيد الجهينى نفسه ، ومن يدري ، ربما يتعرض لاختبار رهيب تمهيدا لتصعيده في سلم البصاصين ، أبدي المقدم تأثرا واضحا ، قال هذه حالة أصعب من الموت نفسه ، قال انه سيوصى النواب في سائر البلاد بإبلاغه عنها . لا بد من كشف أمرها ، في لقائه مع المقدم رأى تغييرا ملحوظا لا تخطئه عين في طريقة حديثه ، معاملته ، لهجته أرق ، يبدى اهتماما زائدا عن الحد بشئونه الخاصة ، لا يهدد كالعادة ، هذا أفضل . عمرو أكثر قربا منه بعد اللقاء ، الآن يجلس منكشا في الفجوة ، تعلم من المقدم ألا يمل ولا يزهق من مرور الزمن ، ربما دفعته الظروف إلى النظر من خلال ثقب مشربية يوما كاملا ، يرقب وصول إنسان بعينه قد لا يجيء ، عليه ألا يدع للضييق سبيلا إلا روحه ، بالفجوة رطوبة ، وفي القلب حنين إلى عجوز لا يعرف مكانها ، إلى أى أرض تمضى ، بأى أرض تموت ، لكن الحنين يجب أن يتوارى ، الآن يعمل ، يسعى من أجل عيشه ، لم يقربه حمزة كما رجاء ، جاء ثلاثة من مشايخ الكتاتيب التى تحفظ القرآن للصبية ، أحدهم يرشف السحاب بصوت مسموع .. تضايق عمرو ، ترحم أكبرهم سنا على أيام زمان عندما كان الصبية يسعون بأرواحهم إلى حفظ القرآن وتلاوته ، لكن الزمن ما عاد الزمن ، الصبى ابن العاشرة يجلس أمامك وكأنه قاعد على فرخ جمر ، ما يصدق الحصة تخلص حتى يهج ، قال أحدهم « والشقولة .. أعوذ بالله منها .. » ، قال ثالث « هذه علامات الساعة » تسأل عمرو بينه وبين نفسه « ما الذى يقصده بعلامات الساعة ؟ » لينتبه ، صحيح أنه هنا من أجل سعيد ، لكن لا بد من الإصغاء إلى ما جرى ، ربما طلع بحديث له قيمته ، ربما وقع مصادفة على ما لن يقع عليه بالترتيب والتدبير . قال أكبرهم « أى والله .. لا أعجب لو أخبرنى أحد عن بغلة أنجبت » ، قال الثالث : أقصرهم قامة « نستعيد بالله يامولانا .. لو حملت بغلة وأنجبت لكان هذا علامة على انتهاء عمر الدنيا » قال غليظ الصوت ، « وما أدراك أنها

لا تنتهي ، أصغى عمرو ، حديث طريف لكن له مغزى .. بأى سيم يتخاطب العجائز؟؟ ، ليفتح أذنيه تماما ، عندما قابل مقدم البصاصين أول مرة قال له ، « البصاص المكين عبارة عن أذنين وعينين ، يسمع ويرى ، يحفظ وينقل ، حتى فى ساعات نومه ، ، عشنا وشفنا بدعا لها العجب ، يعنى الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلى الجامع إلا بقطعة الجلد هذه .. والله عجيب ، ، قال قصير القامة » لم نسمع بهذا من قبل ، أه لو يعرف عمرو أى الكتاتيب يديرون؟؟ سيسأل حمزة عنهم آخر النهار أو غدا حتى لا يثير ريبتة ، وحتى يثبت التزامه بقواعد البصاصة الصحيحة ، لو صح أن حمزة عين ترقبه ، انتبه عمرو إلى وصول رجلين من التجار ، دخل أولهما ، أشيب الشعر وهو يسأل؟ ، يا ترى هل خلع السلطان عمامته الخفيفة ، ولبس الكبيرة ، قال الثانى ، « لو تم هذا فمعناه شفاؤه من مرضه لكن البشائر لم تدق بهذا ، ، تساعل عمرو ، من أى حى هما؟؟ فى الناحية الأخرى أكبر الشيوخ « ومن علامات الساعة ظهور المسيح الدجال ، ، التاجر أشيب الشعر ، « أنا متأكد أنه ارتدى العمامة الكبيرة وقابل الأمير طومانباى ، ، يقول ثانى المشايخ ، والله أشعر أن المسيح الدجال يسعى بيننا ، يدق قلب عمرو ، هذا خطير ، التاجر الصغير : لا أصدق أبدا أن السلطان ارتدى العمامة الكبيرة ، وإلا .. فأين البشائر ، أه .. أين البشائر؟؟ » الشيخ أشيب الشعر ، « أى والله ينقصنا طلوع الشمس من المغرب ، التاجر الصغير « عموما .. أنا لا أستبعد هذا .. ربما ، دخل رجل رفيع أسمر حول رأسه عمامة صغيرة زرقاء نصرانى من أهل الذمة ، حمزة بن العيد الصغير حدث عمرو عنه ، لا يتحدث كثيرا ، إنتظار الكلام منه كنزول المطر فى يؤونه ، كل يوم يجىء أربع مرات ، مرة بعد طلوع الشمس بمجرد فتح الدكان ، وفى الضحى ، ثم العصر ، وقبيل إغلاق الدكان ، أه .. يضحك المشايخ ، هل فاته شىء؟ أشيب الشعر يقول ، سيمد الله فى أجلى حتى أشمت فى زمنى ، يضحكون ، لابد أن يتذكر الجملة جيدا ، التاجر الصغير ، اشترينا الأردب بدينار ونصف اضطررنا إلى هذا .. ، تغير موضوع حديثهما ، النصرانى فى كل مرة يشرب كوبا من اليانسون بلا سكر ، يدخل كرسيين من الدخان ، لا يدخل تبغ الدكان ، إنما يحمل معه كيسا جلديا متشققا مليئا بالتبغ الأصفر الجيد ، له رائحة لا مثيل لها لا يعرف حمزة من أين يحضره؟ يتناول مقدارا معينا لا ينقص ولا يزيد ، يطلب من حمزة رص الكرسي ، يتابعه بدقة ، يبدأ التدخين ، ينفث الدخان من أنفه كأنه يتألم أو يعانى وجعا ، يحرك رأسه يمينا وشمالا ، يشكو شكوى صامتة إلى الشيشة ، يحدثها عن ظلم فلاح حل به ، قرب انتهاء الكرسي ، ينظر إليه ، يسوى الفحم ، يضغطه ، يحيط الحجر بيديه ، يميل عليه ، ينفخ بفيه ، رجاء أخرس ألا تنتهى أنفاس الدخان ، يقول الشيخ قصير القامة

« أى والله .. أى والله » ، يرد أشيب الشعر ، لكننى لم أصدقه قط .. أقسم الإيمان
المغلظة لكننى لم أصدقه ، حمزة حكى ما يعرفه عنه ، يسكن فى وكالة الفراخ ،
قرب خان الخليلى ، لا زوجة عنده ولا أولاد ، مرة رآه حمزة يبكى ، يبكى بدموع
تنسال من عينيه سهلة لينة بلا مانع ، بلا تشيخ ، تساعل عمرو ، من أين يأتى
بالتبغ ؟؟ ما الذى يجعله مهموما ؟؟ كأنه يتحدث إلى رجال اختفوا عن العيون كلها
إلا عينيه هو ، أه .. سعيد يجلس أمام الدكان ، حضور مفاجيء لم ينتبه إليه ،
لم يذكر رؤيته المفاجئة : هذا أمر يحسب عليه ، يقعد فوق الدكة ، أطرق ، عمرو
يحاول تهدئة دقات قلبه ، حقا لا يزال الشوط بعيدا حتى يصل إلى حد الكمال ،
أن يرى مهما يرى ، لكن مشاعره لا تتغير ، لا تتبدل ، هذه درجة راقية لا يصل إليها
إلا كل بصاص مكين ، أه لو هناك حيلة يتفذيها الإنسان إلى ما يدور فى عقل الآخر ،
لعرف البصاصون دلالة رعشة العين ، أى الخواطر دفعت الأنف إلى اختلاجة
سريعة ، تراجع عمرو حتى ألصق ظهره بجدران الدكان .

★ ★ ★

نداء

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف ، وننهي عن المنكر
انكشف المستور
منذ ستة شهور
تسلم الزيني بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة
تسلم الأمير مامى الصغير
وبعد أن قرره ، احتاط على موجوده
وظهر لديه ما قيمته ،
تسعون ألف دينار
وهذا يزيد عما طلبه السلطان
بعشرين ألف دينار
وقد سلمت الأموال ، جميعها
إلى بيت المال ،
يا أهالي مصر
أمر الزيني بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة
بفرض ضريبة على بيوت الخطأ
ومنع تردد من هم دون العشرين عليها
حفاظا على الخلق ، والشريعة
يا أهالي مصر
بعد يومين ، يسافر الزيني
إلى جهات دمياط ، والدقهلية
لكشف أمورها

ودفع العربان عنها
وإقرار النظام بها
وسوف يقوم بأعماله في غيبته
عبد العظيم الصيرفي
صراف الحسبة
ونائبها لشئون الأموال
وجميع الأمور ستبقى على حالها
وسيعاقب المخالف
يا أهالي مصر
تعهد الزيني بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة
إلى مولانا السلطان
باستلام الأمير بكتمر الساقى أمير عشرة
واستخراج أموال المسلمين منه
ويقدرها الزيني بخمسين ألف دينار خالصة
غير ما يظهر
من المخبأ ..

★ ★ ★

عاجل :

إلى مقدم بصاصى القاهرة

فى يوم الإثنين ، فى الصباح ، حيث خرج الخلق يحتفلون بشم النسيم ، يمارسون اللهو والفرجة ، رأيت سعيد الجهينى ، وفى الحال توأريت عنه ، لم يكن بمفرده ، إنما تصحبه امرأتان ، إحداهما كبيرة السن ، اقتفيت خطواتهم ، من باب الخلق إلى حدائق بولاق ، وهناك لحق بهما شيخ معمم إسمه ريحان البيرونى ، اعلم بتردد سعيد على بيته ، وبدا سعيد - وأنا أقطع الشك باليقين ، والتردد بالثبات - مولها ، مدلها ، غارقا حتى أذنيه فى عشق إبنة الشيخ البيرونى ، وعرفت من أصحابى المجاورين أنه كثيرا ما يلفظ باسم « سماح » أثناء نومه وسماح هى إبنة الشيخ وقد أمضيا اليوم كله فى حدائق بولاق ، انفرد سعيد بها مرتين ، حدثها وحدثته ، وسوف أتابع ما يستجد .

عمرو

نداء

يا أهلى مصر
يعلى عبد العظىم الصىرفى
صراف الحسبة
إن كل شىء على حاله
والأسعار كما قرر الزىنى
وأى تاجر يتلاعب
دمه مباح
حتى يرجع الزىنى من غيبته

نداء

يا أهلى القاهرة
أمر عبد العظىم الصىرفى
بشئىق بائع بىض على باب دكانه
لأنه زاد سعر البىض

نداء

يا أهلى القاهرة
أمر عبد العظىم الصىرفى
بقطع السنة ثلاثة شبان
ضبطوا يشيعون البلبلة

نداء

يا أهلى القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بتسليم ثلاثة مغاربة
إلى الشهاب الأعظم زكريا
النائب الأول للحسبة ، ولوالى القاهرة
بعد ثبوت اتصالهم بابن عثمان
* * *

نداء

يا أهلى القاهرة
يأمر عبد العظيم الصيرفى
بأن يفتح كل إنسان أذنيه
ويدل على من شك فى أمره
بوجود صلة له مع ابن عثمان
وله مكافأة
يا أهلى القاهرة
غدا ..

يتوجه الشهاب الأعظم زكريا
إلى جامع شيخون
ليوم الصلاة
ويخطب فى المؤمنين
والجامع مفتوح أمام الراغبين
* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم اجعل هذا البلد آمنا

« ديوان سر الشهاب زكريا بن راضى »

نبذة مرسله بالحمام الزاجل

إلى الزينى بركات بن موسى متولى حسبة القاهرة والديار المصرية ، ووالى
القاهرة ، إلى دمياط .

١ - من هو الشيخ ريحان البيرونى ؟؟

هو الشيخ ريحان بن زيد محمد الأسيوطى بن عامر الفاضل أحمد بن إبراهيم ،
أما البيرونى فلقب لصق بالشيخ ، منذ أن درس علوم المنطق على يدى شيخ ضرير
أتى إلى الجامع العتيق فى أواخر عام ٨٠٥ هـ . جاء من بلاد الشاه إسماعيل
الصوفى ، اسمه الشيخ البيرونى ولم يكن شيعيا ، او منتميا إلى أى طائفة من
طوائف الرافضة ، إنما هو سنى متعمق ، عاش بمصر ولم يتزوج حتى مات
عام ٨٨٣ هـ . دفن بالقرافة الشرقية مع العلماء الصالحين .

عمل الشيخ ريحان كاتبا صغيرا بديوان سر قاضى القضاة ، وفى هذه المدة قام
بصياغة الحجج والفتاوى التى تصدر عن قاضى القضاة ، وأتقن عمله ، كما أتاح له
هذا فرصة مشاهدة الأمراء وكبار رجال السلطنة عن قرب ، ومن قبل لم يرههم إلا فى
المواكب ، وعندما كان يلمحهم يتساعل ويروح عقله إلى بعيد ، هل يضحك هؤلاء
الأكابر كبقية الناس ، هل يتبادلون النكات ، والقفشات ، هل يداعب الواحد منهم
صاحبه ، يناديه بألفاظ الألفة والموودة ، تساعل كثيرا عن طريقة أكلهم وكيف يقدم لهم
الطعام ، يغمض عينيه ، يرى نفسه مقربا إلى أمير كبير ، وقريب من مجلس السلطان
نفسه ، لكنه لا يدرى ما يقوله لهم ، بل من الثابت فعلا ، وهذا دلت عليه شواهد
وقرائن ، أنه تساعل إلى أحد أصحابه - فى الفترة ما بين عامى ٨٦٣ هـ و ٨٧٥ هـ -
عما إذا كان شخص مثل الأمير ترمبغا أتاك العسكر وقتئذ ، يبول ويفعل كبقية
الناس ؟؟ بل قال لصاحبه ، كيف يتعرى السلطان ويلفح الفراغ مؤخرته الضخمة
عندما يعلو امرأقا من حريمه ، يسيل ريقه ، يغمض عينيه وترتعش أطراف حنكه
شهوة ورغبة ، واعتبر البيرونى مثل هذه الأسئلة أمورا كبيرة ، تستحق مؤلفا
ضخما ، تمنى لو نفذ إلى الأكابر العظام ، صاحبهم بادلهم الرأى فى الزمان ،
ما يأملون فيه ، ما يحلمون ، رأى نفسه يجلس إلى أتاك العسكر ، يدخلان سويا بعد
عشاء هنىء ، يميل عليه الأتابك ، يسر إليه بسر لا يعلمه إلا هو ، أو الأمير الجوكندار

المحمدي ، يقص عليه حكاية خاصة جدا تتعلق بالسلطان ، ثم يطلب منه الا يفضى بها إلى أحد من الناس ، لأن السلطان لو عرف بتسربها لأطاح برقبة من حكاها ومن سمعها ، لا يتخيل مدى سروره وفرحته وعظمة بهجته عندما تفضى إليه اسرار لم يسمعها غيره ، أن يمشى في شارع الصليبية ، سوق الليمون تحت باب الفتوح ، حوله الخلق ، باعة ومشترون ، في عقولهم مشاغل الدنيا الصغيرة والتافهة ، اما دماغه هو فيعج بالأسرار ، وعندما يجلس بأحد الدكاكين ، يشرب الحلبة او السحلب المخلوط باللبن ، يرى نفسه وقد قضى الليل كله في قصر امير كبير ، لم ينام ، لم يأخذ راحته وحقه في النوم ، يضطر مع هذا إلى الذهاب إلى ديوان المكاتبات ، يصوغ الفتاوى والحجج ، هنا ، يشعر بعينيه مجهدين فعلا ، بل يتعاب عدة مرات ينظر إلى المحيطين به ، يلحظون كسله وتراخيه ، لو سألوه فسيوضح لهم فورا طوال الليل يجالس الأمراء ، ينادم الكبار العظام ، فيعذرونه ، ينتهزون لحظات راحته فيسعون إليه ، يطلبون منه رفع أمرهم إلى نوى الشأن الذين يعرفهم ، يرجونه في الوساطة وقضاء شئونهم ، فهو طيب القلب لا يرد محتاجا عن بابه .

تتكاثر عنده الفتاوى التي يعمل في صياغتها ، يضيق بطلبات عبد البر ان يسرع ، يرى نفسه داخلا على الشيخ عبد البر قاضي القضاة ، يقف امامه ، عبد البر تأخذه الدهشة ، ما الذي غير حال مستخدمه ، نظراته جامدة ، عمامته كبيرة ، عطر وطيب يفوحان منه ، بهدوء يميل عليه الشيخ ريحان يطلب منه ببساطة الا يتعجله ، حسه منخفض ، لا بل مرتفع ، أبدا الأفضل أن يكون منخفضا وانقا ، الفاظه بليغة ، سيقول لعبد البر أنه يطيل السهر مع الأمراء ، أنه من خاصة الأمير بكتمر ، وتديم منطاش ، ومستودع سر الأمير طومانباي نفسه ، اما الأمير تمرغا فلا يتوكأ إلا على كتفه ، سيفزع عبد البر ، تغشاه رهبة ، يخشى على نفسه ، يأمر الشيخ ريحان بأن يعمل على مهله الا يتعجل أبدا ، أن يحل ويربط على هواه ، ليس بعيدا ان يأمر السلطان بخلع القاضي عبد البر ، فيسعى عبد البر إلى الشيخ ريحان ليرجوه ان يشفع له عند السلطان حتى يرده قاضيا .

حدث حوالي عام ٨٧٦ هـ ، وعمر الشيخ ريحان حوالي خمس وعشرين سنة ، أن عرف الطريق مع أحد أصحابه إلى بيت « سنية إبنة الخبيرة ، قرب الفسطاط ، هناك قدمت له صبية فلاحه إنقطنها من الطريق وعلمتها عمل الفاحشة ، والثابت فعلا أنها المرة الأولى التي ينام فيها الشيخ ريحان مع امرأة في حياته ، في أول مقابلة ، قال انه يشغل وظيفه خطيرة ، وظيفه وثيقة الصلة بالأمير اقباغا ، سألته الصبية من هو اقباغا ؟ فقال « اقرب الناس إلى السلطان ، فضربت البنت صدرها الجامد الناهض وشهقت « يا خراب اسود ، ضم شفثيه حذرهما من البوح بهذا السر

إلى صاحبة البيت ، رقيبها ستطير عندئذ ، وظيفته السرية ، تمنعه من الظهور علانية مع الحريم ، أو السعى إليهن ، وامرأة أى أمير أو كبير فى تناول يده ، بل يوقن أن الكثيرات منهن يرغبنه فعلا ، لكنه لا يستطيع ، وظيفته السرية تحوشه عن هذا ، وقبل الوظيفة هناك ضميره ذاته ، أثناء حديثه توقف مرات ، هز أصبع يده اليمنى محذرا إياها من البوح بما يقول إلى نفسها حتى ، خافت الصبية ، صدقت مقاله ، خاصة أنه أعطاها بقشيشا محترما تنذر تناوله من أى واحد يخلو بها .

« فى كل يومى اثنين وخميس يمضى الشيخ ريحان إلى الفسطاط ، ومرة وجد الصبية متغيبه ، رفض مضاجعة أخرى برغم تحليل المعلمة سنية ابنة الخبيزة ، عاد ليجد الصبية متزينة فى انتظاره ، عندما تجرد من ثيابه ، تمدد بجوارها خبط جبهته بيده ، قال .. ياه .. خافت الصبية ، مالك ؟ أجاب ، نسيت أمرا مهولا كلغنى به الأمير منطش ، يسكت لحظات ، مجرد سماعها هذه الأسماء ، طريقته البسيطة فى النطق بها ، تخشى وتخاف ، يتأسف قائلا والله أخطأت فى حقه ، منطش كريم معى جدا ، جدا تصورى ، ويراعى حقى لكننى لا أعيره التفاتا ، لا أهتم به ، لكنه يجب أن يعذرنى ، مشاغلى لا تحصى ، أى والله لا تحصى .. وينفخ بقمه ، يضرب ركبته بقبضته ، الصبية لا تعرف ما تقوله ، وعندما تأخذها الحيرة تزحف إليه تلتصق به تقول « لا عليك يا حبيبي ما تغتم يا حبيبي » مرة ثانية يتمدد جوارها راضيا يضحك « يا سلام على طومانباى .. أما ولد ، ، تتسع عيناهما ، يحكى عن الأمير الدوادار كأقرب الناس إليه ، يذكر إسمه بلا تفخيم أو تعظيم ، تسأله « ماله يا حبيبي ؟ » ، فيقول « سهر معى طوال الليل .. ياسلام .. أما حكايات غريبة غريبة جدا ، يصمت لحظات ، يقول « لكننى لا أعرف كيف جرى هذا ، كيف ؟ » ، وفى مرة تلقى حلما ثديها الأيسر ، يمر على حوافه بشفتيه ، عادته المفضلة ، قالت الصبية وجسدها يختلج : سنية ابنة الخبيزة تعانى ضيقا وعسرا من متولى الحسبة - كان فى هذا الوقت على بن أبى الجود - قرر عليها زيادة فى الضريبة ، وتمنت لو أن الشيخ ريحان تحدث إلى أحد أصحابه المقربين الأكبر العظام ، هنا انتفض الشيخ ريحان عاريا ، وعرق الغضب يطق من جبينه ، « أنت مجنونة .. ضاعت رقيبنا الآن ، هل قلت شيئا يا مجنونة مما أقوله لك لابنة الخبيزة ، إرتعش جلدها وقفقت ، أقسمت بحياته عندها ، بالبيت ، برحمة أبيها الذى لم تره قط إنما الصحيح أنها فكرت فيه ، هى لا تعرف من الأكبر غيره ، وبكت بين يديه ، حتى هدأت ثورته ، وخفت حديثه ، فقال أنا لا أمانع ولو كان الأمر معقولا لا يمسنى ، لكننى ماذا أقول لآى أمير من أصحابى ؟ هل أقول له إننى أريد إنصافا لابنة الخبيزة .. سيسألون ، وما الذى عرفك بلبنة الخبيزة ؟؟ أه .. عندما يتعلق الأمر بالعظام الأكبر أصحابى لابد أن توزن الأمور ،

الا تؤخذ كما هي .. ، « وبقي الشيخ ريحان مبلبل خاطر ، عندما يقابل ابنة الخبيرة ينظر إليها ، يحاول تلمس أى دلالة على معرفتها بما يقوله ، يخشى مفاجاته بسؤال ترجوه فيه التوسط لدى الأكاير ، ويقلت لسانها بحديث أمام المتردين عليها ، يفهم منه شيء عن أحاديثه المستمرة إلى الصبية ، عرف منها شخصيات بعض المتردين هنا ، موظفين فى دواوين الأمراء عند المحتسب ، مشايخ ، بعض الأمراء الصغار يجيئون خفية .

حدث فى هذه الفترة أن استدعاه القاضى عبد البر ، وعندما مضى إليه دارت فى أسه الدوائر ، ربما وصلت أخبار أحاديثه إلى عبد البر ، سيجازيه القاضى مرتين .. الأولى لذهابه إلى بيت من بيوت الخطا ، الثانية لكثرة تخريفه ، راح يجهز ما سيقوله ، سيرجو القاضى العفو عنه بسبب التردد على البيت فالألسن لا ترحم ، لكن ماذا يقول عن الأحاديث ، واختلاق الحكايات حول الأمراء ، قابله عبد البر مرحبا ، ابتسم فى وجهه ، طيب خاطره ، وهذا ما لا يحدث أبدا ، فعبد البر عبوس دائما ، فظ اللسان ، غليظ القلب ، أخبره بمجيء الأمير سلامش الجمدار المختص بإلباس السلطان ، إذ يقف السلطان ويوليه ظهره ، يفرد ذراعيه فيقوم سلامش بإدخالهما فى كم الرداء ، ثم يسويه ، وهذا منصب لا يصل إليه إلا صاحب ثقة عظيمة توفر الاطمئنان للسلطان ، بحيث يدير ظهره إليه ، ويسلمه نفسه ، قال القاضى عبد البر ، الأمير سلامش طلب منه شخصا موثوقا به ، ليحرر مكاتبته ، وبحث القاضى عبد البر كثيرا فلم يجد أخلص من الشيخ ريحان ، لكن حتى يتم الأمر ، عليه أن يبحث عن عروس سالحة يتزوجها ، فالأمير سلامش لا يقبل عزبا فى قصره ، وقال القاضى عبد البر « ثم إنك لست صغيرا يا شيخ ريحان ، .

قام الشيخ ريحان وقبل القاضى عبد البر ، مشى فى الطرقات يرقص فرحا وطربا ، أخيرا سيرى الأمراء والضيوف ، يحرر المكاتبات ، يطلع على أسرار الدولة ، تمنى لو قال هذا للصبية لكنها ستتعجب ، ألا يخبرها دائما بقربه والتصالقه بالأمراء والأكاير ؟ !

مضى فى تفخر ثيابه وقتنذ إلى قصر الأمير سلامش ، بلغ كثيرا فى إظهار علامات الأدب واللياقة ليوحى أنه خدم طوال عمره فى بيوت أكابر ، انتظر مقابلة الأمير ، لم يلتق به ، قال لنفسه ربما انشغل الأمير بشيء عنه ، وعندما سأل نائب الأمير عن زواجه أخبره « تزوجت منذ أسبوعين ، وفعلا كان قد مضى إلى أحد أقاربه واسمه المعلم محمود بن سلامة ، أحد تجار العدس فى أثر النبى يمتلك ثلاثة مراكب سارحة فى النيل تنقل له المحصول من الصعيد ، غير القلل والأزيار (مات عام ٩٠٩ هـ) المهم أثنى المعلم محمود على الشيخ ريحان حافظ كتاب الله وحارس البخارى ، وبعد أسبوع دخل على ابنة المعلم فى داره بالفسطاط حتى يبحث له عن بيت يستقر

به ، وصار المعلم يقول « زوج إبنتي رئيس عند الأمير الجمدار ، .
في قصر الأمير سلامش اتخذ الشيخ ريحان حجرة صغيرة في مبنى منعزل عن بناء
القصر الأصلي ، حجرة مظلمة تضاء بقنديل ليلا ونهارا ، ثاني وثالث يوم لم يقف
الشيخ بين يدي الأمير ، كذا الأسبوع الأول ، والثاني والشهر الأول والثالث فعلا
عدم مثوله بين يدي الأمير قط .

عندما يلتقى به المعلم محمود بن سلامة يسأله عن صحة الأمير الجمدار
وأحواله ، يهز يده ، يقول « والله .. صحته بالأمس كانت على غير العادة .. صحا من
نومه فوجد عينه اليمنى ترف .. وهذا عنده فال سييء ففضى بقية يومه مغتما .. ،
يبدي المعلم جزعا ، يزعم بصوته ليسمعه زملاؤه التجار يتحدث عن أمير كبير ،
يتساءل : « ألم يقصده الطبيب ؟ » يقول الشيخ ريحان « وجاءه وفصد دمه .. هنا
يطلب المعلم محمود - بصوت عال - من زوج إبنته أن يبلغ سلامه إلى الأمير ،
أن يخبره بدعواته الصالحات من أجل شفائه ، فيهرز الشيخ ريحان رأسه ويجيبه -
بصوت عال أيضا فهو يعرف قصد المعلم « سأقول له .. والله حملني سلاما خاصا
إليك .. أي والله ، .

كثيرا ما يجيء إلى المعلم ، يزعم من بعيد « الأمير سلامش يهديك سلام
الإسلام .. » ، يشرق وجه المعلم ، يبرم شاربته ، يتخلل لحيته بأصابعه ، « والله
عندما ترى الأمير ابغضه سلامي ، .

بدا هذا القول يؤلم الشيخ ريحان ويورثه حسرة ، لم ير سلامش بعينيه ، حتى
نائبه لم يلتق به إلا مرة واحدة ، عندما تسلم وظيفته ، كل المكاتب تجيئه يوميا مع
أحد الطواشية ، والثابت فعلا انه لم ير الأمير قط حتى عندما انجب إبنته الأولى
« سماح ، (أنجبها عام ٩٠٢ هـ بعد ثلاث سنوات من زواجه . لم ينجب بعدها ،
وهذا امر يتكرر وقوعه بين قلة من الرجال) بل أرسل إليه الأمير سلامش مع نائبه
دنخير وكسوة (بالضبط عشرة دنانير اشرفية وقماش اطلس ، وقميص زركش لطفلة
صغيرة) .

بعد مجيء سماح بعامين (٩٠٤ هـ) غضب مولانا على الأمير سلامش - وهذه
واقعة معروفة - عندما لم يحكم لف الشاش حول العمامة السلطانية الكبيرة مما أدى
إلى فكه لحظة جلوس مولانا السلطان إلى قصاد الحبشة مما أوقعه في حيرة ،
وتسبب في حصول كسفه للسلطان مما جعله يستدعى سلامش وحقق معه ، وبطحه
أرضا وضربه حتى كاد يهلك لظنه ان واقعة عدم إحكام لف الشاش امر مدبر ، وأمر
بإلقائه في المقشرة ، ولا يزال سلامش محبوسا حتى الآن بعد مضي ما يقرب من
عشرين عاما على الحادثة .

يشاء حظ الشيخ ريحان ، أن الأمير سلامش أرسل - قبل حدوث واقعه - إلى الأمير طغلق ليحرر مكاتيب صادرة إلى بلاد اليمن ، واثناء تواجد الشيخ ريحان عنده ، وقعت حادثة الشاش ، هنا عرض عليه طغلق البقاء عنده ، وارتضى الشيخ ريحان بالحال ، وتزايد سروره ، لاتصاله مباشرة بطغلق ، وخروجه معه أكثر من مرة . وأفضى إلى المعلم محمود وبعض خاصته أن بعض أصحابه من الأمراء والكبار أسروا إليه بما سيحدث مع سلامش ونصحوه بالابتعاد عنه ، وتوسطوا له عند طغلق الذى لم يكن غريبا عليه ، فأخذه عنده ، وعند ركوبه مع طغلق يحاول الاقتراب منه ، ويجول بنظراته فى الطرقات متمنيا أن يراه أحد ممن يعرفهم ، وهو معتمد بغلة بسرج عال فى موكب طغلق ، وهذه مرتبة قل أن يدنو منها إنسان . منذ سنوات جاء من بلدة جهينة ، شاب صعيدى يمت إلى الشيخ ريحان بقرابة بعيدة ، أقام فى بيته فترة من الزمان ، حتى التحق برواق الصعيدة ، وللأمانة فلا نقطع بخلوه إلى سماح إبنة الشيخ ريحان خاصة أنها وقت وصوله لم تتجاوز سن العاشرة .

طبقا لما هو تحت بصرنا وسمعنا حتى الآن لا يمكننا تحديد التاريخ الذى بدأت محبتها تدب فى قلبه ، ولكن بعد تحليل طريقة مشيته وأحاديثه معها يوم شم النسيم فى حدائق بولاق ثبت عشقه لها والأيام لا تزيده إلا وجدا وصليبة مع أنه لا يراها إلا نادرا جدا (وهذا نثق به) .

الثابت أيضا جهل الشيخ بما يكنه سعيد لإبنته ، وجار الآن لم تفاصيل أدق تصل بنا إلى لب الحقيقة وجوهرها الخفى .

(ديوان سر كبير البصاصين ونائب المحتسب)

ونائب والى القاهرة

« ختم »

(زكريا بن راضى)

نداء

يا امالى القاهرة
يعلمن عبد العظيم الصيرفى
عن قرب وصول
الزىنى بركات بن موسى
متولى حسبة الديار المصرية
ووالى القاهرة
بعد عودته من بلاد الصعيد
فعلى اصحاب الدكاكين
والمغنين
واصحاب الربابة ، والرقاصين
الخروج لمقابلته
عند دخوله من الجيزة
ظهر يوم الثلاثاء بعد غد
ومن تخلف ، وقع عليه عقاب شديد

كوم الجارح .

مسافات لا أول لها ولا آخر في عيني الساعي ، والمسافر على قدميه ، زاده عشق الذات العليا ، وجد يشده إلى أقصى الأرض يعبرها متاملا العبر ، يرثي المبتدأ والخبر ، ما أوجع أحزان القلب في بيوت خراب ، في بلاد عامرة نسي أهلها الأول والآخر ، ما أعذب وقفة الملاح عند رأس قارب مفرود القلوع ، الكون بحر ، كله بحر ، المركب يميل ليعتدل ، يعتدل ليميل ، يزعق الملاح زعقة نابغة من فص الحنجرة ، اعمق الأصوات ، خلاصة الآمال ، ونهاية الآلام ، صرخة ملاح في وجه خلاء لا ير له ، ولا يلبسه تبدو ، لا يذكر الشيخ أين غالب الدوار ، أحاط فمه بيديه ، ومن شرايين القلب ، من حدقتي العين ، من خلاصة سر الكبد ، من لوعة المشتاق إلى آخر الأفق ، من سنى العمر ، من بئر القلب الدفين ، من عذابات وجد قديم ، من بقايا عشق يتيم ، صاح زعقة واحدة ، ألغت الحشا ، خفت حمل البدن ، ولاح سر الباطن ، وكادت الحقيقة الأولية ان تفصح عن نفسها ، وسوست النجوم ، وألقت السماء دمعاً ضئيلاً .

يا واحد .. يا احد .. أين انت .. نجنى ..
نجنى ..

لا يذكر اسم البحر ، عند طوافه بالدنيا لا تعنيه معرفة أسماء البلاد ، الدار كبيرة ، لا عرض بلديا لها ولا طول ، وتعليل النفس بالوصول إثم عظيم ، لا هذا العام ، ولا العالم الذي يليه يحمل البشرى ، في زعقته طرح السؤال ، عبر البحار السبعة ، الأراضي السبع ، تجاوز قاف ، واق الواق ، جزائر النساء ، ونفذ عبر بطن الحوت ، يرى بعيني وجده سدرة المنتهى ، غاية الأمل ، صوته الضعيف المخزون سمع هناك ، أه لو حوله بحر الآن ، أه لو يقف فوق الصاري الكبير يزعق ملقاعا ، تتجسد صرخته في الهواء حبلا طويلا من هيام ووجد لكنها الآن همسة ، حيرة مقطرة ، استغلة نجاة يهمس بها طائر ضعيف الجناحين . هاجر وحيدا فارتمى بلا رفقة ، لحظات كثيرة رآها في حياته ظن الخلاص وشيكا وما يفصله عن الحقيقة الأولية ، خطوات قصار ، لكن الأحداث تعيل فتعكر صفو الرؤية ، تخدش حياء النفس ، عينا ، تلوح الأنوار الإلهية في زمان كهذا ، محال أن يرق الجسد حتى يخف ، يشف ، الآن يرى أيامه البعيدة ، عندما رأى العالم مال بخده على الحجر الأسود ، مداعب النور الوحشية ، مص الرلظ متلمسا رشفة رطوبة تنزع حراشيف العطش عن حلقه ، حديثه إلى برابرة غزاة يحلون لحم الإنسان ، أه لو يودع الثبات إلى الحركة ، يترك الركود

إلى ديمومة لا تنتهي ، طوال عمره لم تلجئه الأحداث إلى الخلوة الطويلة وهاهي
ذى سنوات قليلة في موطنه تدفعه إلى حفر سرداب حفره بأصابعه ، فيه يغمض
عينيه عن رؤية السجن ، يسد أذنيه عن أصوات البشر ، في أول العمر يكشف
الإنسان عوج الدنيا فيحاول تقويمها ، لكن في آخره ، عندما يبدو كل شيء على
حاله ، ولا أمل في تحول ، في انقلاب ، حتى أولاده لا يبركهم ، عندما يربط ظهر سعيد
البلكي ، يراه واحدا منهم ، لم ير أحدهم شابا ، في أول خطى الحق تزوج في
خوارزم ، لم يكمل العام ، إنما رحل في وجه الجبل مخلقا وراءه أثرا ، لا يدري ، هل
جاء الدنيا أولا ؟ في مدينة بشرق الصين ، في قرية فوق جبل شاهق العلو في الهند ،
في جزيرة صغيرة في المحيط الشرقي الكبير ، كل ساكنيه أربعون نفسا ذكرا وأنثى ،
لم يضم واحدا من بنيه إلى صدره ، لا يعرف تعدادهم لكن قلبه خفق بحبهم ، بأى
أرض مر عنده ثقة ، أنه عالم بأحوالهم يعرفون بأى أرض هو ، فالعالم كله واحد ،
ربما رأى أحدهم في أسواق فارس المزدحمة ، في ميناء البصرة ، في ربوع كالزخستان
لا يعرفهم ويعرفهم ، لولا أن الدمع جف وهجر المأقى من زمن لشارك سعيداً البكاء ،
أول مرة يراه بلكيا ، طفل أنوه ، أمور السوء توائم متلاصقة ، تأتي مع بعضها ،
البصاصون لا يخفون أنفسهم الآن عند اقتفاء أثره ، منهم من يصيح بصوت عال بعد
الاقتراب منه ، أمثل هذا يتزوج بقمر ؟ ، يسمع هاتفيا ينتهك إسمها ، سماح ، يلتفت
برأسه مفزوعا ، الكون كله يصغى ، أربع مرات أرسل مقدم البصاصين يطلبه ، أوامره
لا ترد ، أما زكريا بن راضى ، الآن أمام المصلين بجامع شيخون ، يقرأ الفاتحة
بصوت عال ، الناس تقبل يده تبركا ، تيمنا ، ومن القلعة ، رأس الدولة ، نخاعها
الأمين ، تسرح البطائق إلى بلاد ابن عثمان ، عرف ما يجرى في السر ، ما من همسة
أو كلمة تقال ، إلا ويرسلها خاير بك وجان بردى الغزالي ويونس القاضي إلى ابن
عثمان ، وليلة زواج سماح ، طاف سعيد ، طير لم يكتمل ذبحه ، كل هؤلاء الأكلبر
جاءوا إلى حفل العرس ، العريس ابن أمير كبير ترك الخدمة ومات منذ عامين ، شاب
وأمامه مستقبل ، أحاطوا الشيخ ريحان ، الدنيا لا تسعه من الفرحة يتمازحون
معه ، يتباسطون ، والزيني بركات يمد مدة حافلة لعشاء الفرح ، أما برهان الدين بن
سيد الناس ، فهو محنكر الفول الوحيد في مصر ، إذا سأل إنسانا قيل له ، وهل تأثر
سعر الفول ، لم يزد طفافة من درهم ، ما من سؤال صعب إلا ورده المقنع جاهز عند
الزيني ، وتبدو الأمور معقولة ، وما الإنسان إلا خلاصة زمانه ، لكن يحدث أن تتركز
خلاصة الزمان في شخص بعينه ، يجمع الحسنات والسيئات ، الشيخ يرى خلاصة
العكارة ، عندما بث أشجانه للشيخ الزاهد العابد بهاء الحق علوان (لم يتوقف بعد ،
ومازال طوفا عظيما ، في كل ليلة يذكر إسم الله كل ليلة في موضع مختلف

بين آخرين ، السكون عند موته) ، قال الشيخ بهاء الحق كلما ظن نفسه تخفف من
الأعمال والأثقال ، يرى الوهم ، كثيرا ما فكر في اعتزال الكون ، قضاء ما تبقى من
عمره في السرداب ، لكنه يلوم روحه ، كيف يحوم الأذى في أرض هي أول ما لامست
رأسه . اختارها راضيا لقضاء وقت ما قبل الخلاص الأبدى ، أن يرى البلد آمنا ،
مجال ، ما يراه بسيطا كالحروف ، مشروعا كالأنفاس ، في حقيقته مجال ، هز الشيخ
بهاء الحق رأسه .

« كلنا نحترق .. أنت في ثباتك ، وأنا في طوافي ، لكن إن مالت الروح عما رماه بها
الزمان فقل علينا السلام .. »

★ ★ ★



● رسم : لودج دويتش

السراقة الرابع

و فيه يدبر الزينى و الشهابه زكريا
أمورًا شتى !

زكريا بن راضى :

سرح البريد بالبطائق والرسائل ، الى بلاد المغرب ،
وصاحب فارس ، وملك الحبشة ، وامير البندقية ، والهند ،
والصين ، فيما عدا دولة ابن عثمان ، الامور الآن لا تسمح
لكبير البصاصين هناك بالمجئء الى القاهرة ليحضر
اجتماعا كبيرا يضم كافة كبار البصاصين العتاة فى هذه
البلاد ، إذ يجتمع شملهم هنا ، يتدارسون الامور
والواجبات ، يتبادلون ما جرى لكل منهم ، ستتحدث كتب التاريخ عن هذا الاجتماع ،
سيذكر فى سطر ، ما يدور به ، سيظل خفيا مستورا ، لكن آثاره ستعم العالمين .
لا يعلم اخبار الاجتماع فى مصر إلا اثنان ، زكريا بن راضى ، والزينى بركات
ابن موسى ، صاحب الفكرة ، لأول مرة يحدث امر كهذا ، لم يخف زكريا فرحته ،
الزينى المص الى انه سيتعرف عند جلوسه إليهم ، طريقة كل منهم ، وأسلوبه ، طبعاً
لن يقول أى واحد منهم عما يتبعه ويطبقه ، على زكريا استكشاف خباياهم بما يروق
له من طرق ، حتى إذا ما دب العداء بين الديار المصرية وصاحب أى مملكة منهم ،
يجد زكريا نفسه عليماً بأدق اسرار البلاد التى يعمل فيها ، مطلعاً على طريقة
بصاصيها ، مما يتيح له النفاذ الى ادق الامور ، وهو بمجلسه هنا ، بالقاهرة ، عندما
سمع زكريا افكار الزينى تساعل ، من أين له هذه الخواطر ؟؟ لكنه قال بعد إطراقة
قصيرة ، هل تعرف .. منذ عامين انتويت تنفيذ هذا . ان اجمع كبار البصاصين فى
العالم ، لكن المشاغل الهتنى ، خبط الزينى ركة زكريا ، طبعاً .. امر كهذا لن يفوتك
ابداً .. الآن يطوف الزينى بلاد الصعيد ، ينزل كل قرية فى جمع من رجاله الأشداء
ونوابه حاملا الميزان والصنح . الزينى الآن يحتسب على الديار المصرية كلها ، يقيم
العدل فيها ، اخبار جولاته تصله يوماً بيوم ، نجح فى ضم رجلين من رجال الزينى ،
لكنه لم يعثر على مخلوق واحد من بصاصى الحسبة ، بعد جولة الزينى فى
الصعيد ، سيسافر الى دمياط ، من شهرور تعهد للسلطان بدفع مبلغ معين من المال ،
عن دمياط والمنصورة ، لا يذكر زكريا مقداره الآن ، إنما فى حدود ثلاثين ألف دينار ،
بعد التعهد توجه عدد من الامراء الى الزينى ، قالوا فيما بينهم ، لو نجح الزينى
وجمع الثلاثين الفا لأظهر لنا السلطان عين الغضب وقال : انظروا الى ذمم المسلمين

وكيف تكون ؟ ؟ قبلوا الزينى ، ابدوا إشفاقهم عليه ، دمياط والمنصورة لا تدر أكثر من عشرة آلاف دينار سنويا ، كيف الحال لو انتهى العام ولم يدفع الزينى مال السلطان . ثم ما الذى يدخل جيبه ؟ هل يرهق روحه ؟ يطارد الفلاحين عندما يسافر ، ويصرف ، ويشنق أرواحا ، مقابل ماذا ؟ رد الزينى قائلا لن أقتل ولن اشنق أى إنسان لأنه تأخر فى دفع ما عليه ، إنما ساعذر كل مخلوق ناعت به الحال ، سكت لحظات ، قال أعاننى الله على جمع مال السلطان وإذا كنت دمياط لم تدر فى جميع العصور أكثر من عشرة آلاف دينار ، فاصالح أمورها ، واستخرج منها ما لن يتخيله انسان ، خرج الأمراء من عنده وهم فى غيظ عظيم ، أرسل زكريا خفية الى كل منهم ، لن ينسى ما قرره يوما ما قط ، ألمح اليهم بنية خبيثة يضمورها الزينى ضدهم ، هاجوا وطلعوا الى السلطان ، إتكوا عليه فى الحديث ، ابدوا تعصبا ضد الزينى ، لكن السلطان خاطبهم بكلام يابس ، قال .. انتم هكذا إذا ما ظهر انسان يبغى العدل ، حاربتموه ، ولما زادوا عن حدهم قام الغورى هائجا ، رمى العمامة ، قال : « والله اخلع نفسى وتسلموها انتم خربة بورا ، الخزائن خلوية وابن عثمان متحرش بنا ، العامة لا يهداون ، وتجار الفرنجة ما غادوا يعبرون من الاسكندرية الى دمياط ، خسرتنا دخلنا ، وعندما يظهر انسان يتفنن فى جلب المال ، نقف ضده ، ونمانعه ، والله هذا كلام لا يرضى مؤمنا ولا كافرا ، زكريا نفسه حار ، كيف يجمع الزينى ثلاثين ألفا من دمياط والمنصورة ، فى الليلة نفسها قرر ان يمد مقدم البصاصين بدمياط برجال أكفاء يرصدون اساليب الزينى ، وما يستحدثه من بدع ، فى الشهور الأخيرة ، لا يتكر زكريا إعجابه الخفى بخطط الزينى وتدبيره ، زكريا يقدر الناس حق قدرهم ، مهما بلغ كرهه لبعضهم ، كبير البصاصين فى بلاد ابن عثمان مثلا ، عدوه الاول الآن ، لم يره قط ، لكن عنده أوصافه كلها ، ومزاجه ، درجة عشقه للغلمان والنساء ، قدرته على اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالمصائر ، فى ديوان السر دفتر كامل عنه ، كان زكريا صاحبه دهرا طويلا مع انه لم يره ، زكريا يراه بصاصا من أعظم البصاصين قدرة ، منذ عامين انشا فرقة خاصة ، بعضهم يتحدث بلسان العثمانية ، كانوا ولدوا فى القسطنطينية نفسها ، قسمهم الى فروع ، منهم من اختلف بتاريخ ابناء عثمان وامزجتهم واحوالهم ، آخر تخصص فى امور الجيش العثمانلى وما يستجده من اسلحة ، زكريا يقدر تماما كبير بصاصى الدولة العثمانية خاصة بعد ثبوت امر قاطع كحد السيف وهو اتصال عدد من امراء العماليك بدولة ابن عثمان ، زكريا عندما علم بالأمر انزعج انزعاجا شديدا ، ليس لوجود ممالك يتصلون بابن عثمان ، هذا طبيعى ، سهل اكتشافه ، وإن لم يستطع كبير البصاصين العثمانليين هذا فلا يستحق منصبه ، زكريا انزعج لرتبهم ، منهم مثلا خيربك ، وهو من أشد الأمراء قربا الى السلطان ، زكريا لم يبلغ السلطان ، لا بد

من جمع أدلة أكثر ، أمر بفك رسائل الأمير خير بك لكنه لم يعثر على إشارة ، إذن توجد طريقة خفية تخيب عن بصاصيه حتى الآن يرأسل بها العثمانلية ، الأدلة كلها شفوية ، حتى بعد توافر الأدلة القاطعة ، سيبقيها زمنا تحت يده ، ربما تجيء لحظة يشهرها سيفاً فوق رأس خير بك إذا بدرت منه بادرة ، السلطان بلا أدلة ملموسة لن يصدق ، خير بك تقرب جدا منه ، بل أعطاه ولاية حلب القريبة جدا من ابن عثمان ، لكن لا بد من التلويح لخير بك بالأمر ، زكريا يحوم حولهم ، صحيح سيأخذون حذرهم ، لكن لا بد أن يعلموا ، زكريا يعرف ويسكت ، ثمة فكرة بعيدة في قرارة العقل .. من يدري ربما دارت الأمور واعتلى واحد منهم كرسي ، زكريا يكره طفو الخاطرة الي وعيه ، يكره ما وصلوا إليه من خيانة استلذهم ، والبلد الذي رضعوا خيره حتى صلبت عظامهم ، يقدمون ما فيه مطبوخا جاهزا ليأكله ابن عثمان ، هذا جرم يعلم به زكريا ، قليلة المعلومات التي تثير في نفسه شعورا معيننا بعينه ، طالما تعنى بخول واحد من أمراء ابن عثمان في خدمته ، سيرحب به ، يجزل له العطاء لكنه بينه وبين نفسه سيحتقره ، لكن حتى الآن ، يتفوق عليه كبير البصاصين العثمانيين في هذا ، ضم من عنده أكثر من أمير ، وزكريا لم يضم أميرا واحدا مشابها لخير بك وغيره ، عندما وصل اليه ما يفيد باجتماع الأمراء الباغضين للزيني ، تساعل عما يريدون ، هل يلتقون مع زكريا فيما قدره ، ما يسعى اليه بتآن عظيم ، لكن الخلاص من الزيني لا يتحقق بضربة خنجر ، ولا سائل يدس في طعامه ، ولا فرسان يقطعون عليه الطريق في الصعيد ، أو فوق مدق زراعي بدمياط ، أبدا ، الزيني تحدى عمره ، ما أسهل أن يتخلص منه الزيني بنفس الطريقة ، أمر لن تمنعه احتياطات زكريا ، عندما قرر القضاء على الزيني لم يقصد ذبحه ، قتله ، إنما الخلاص منه وهو حي يرزق ، يأكل وجباته ويضاجع نساءه ، يقتله لكن يبقى على حياته في الوقت نفسه ، هذا أشق وربما استنفد عمرا ، لكن الخلق لا يعاملون كلهم هكذا ، رجل مثل الزيني لا يجود الزمان بمثله ، زكريا يزن قدره تماما ، يدرس أساليبه ويأخذ ما يخدمه منها ، حتى لو استعملت هذه الأساليب ضده هو ، راح زكريا يرقب الأمراء ، أطلق البصاصين في ركاب كل منهم ، كيف سيتخلصون من الزيني ، الأذان تنقل إليه إحاديث القاعات المغلقة ، العجائز يسعين اليه بالأخبار ، قرايد ضيق الأمراء عندما تسلم الزيني الأمير أردمر الصغير ، تعهد باستخراج مائة ألف دينار ذهبيا خالصا منه ، فيما بينهم قالوا ، لو تركناه يفعل ما يشاء لدار علينا واحداً واحداً ، ننقضح في عيون العامة ، وتنزل هيبة المماليك في مصر ، وتذهب حرمتهم . أيقن زكريا بخطورة الحال في الليل التالي . خرج متخفيا الى بركة الرطلى . وقتها كان الزيني يستعد لبدء رحلته الثانية الى بلاد الصعيد . عند باب الفتوح . تلكأت خطواته . كيف قرر هذا ؟

أحقا يمضي الى الزيني يحذره من القتل ؟ يقترح عليه تغيير أماكن نومه كل ليلة في

بيت يحدده زكريا . يبتث حوله العيون والأرصاد . فى الوقت الذى يرصد فيه حركات
الأمراء وسكناتهم . لا ينسى ما الحقه الزينى به من مضايقات . هل ضعف امامه
اليست فرصته ؟ ابدأ هذه طريقة سريعة الخلاص اذا ما ذبحه الأمراء فسبيكيه
العامه . ويتحسرون عليه . سيخطو بينهم ميتا أكثر من خطوه حيا يرزق . عندما قام
الأمير طيغافا فى زمن الناصر بن قلاوون . وندى بالعدل وصار ينصر الفقير على
الغنى . ضايق الأمراء مضايقة شديدة . دسوا له السم البطيء . لم يخف الأمر على
العامه . بكوه بكاء مرأ . لطموا الخدود . شقوا الثياب زمنا . صاروا يقولون فى كل
صغيرة وكبيرة . لو طيغافا موجود بيننا . حتى عندما قام كبير البصاصين فى ذلك
الوقت بتكليف العلماء لوضع كتيب ورسائل تدم فيه . إزداد العامه تمسكا به .
صنعوا له بلاليق من الحلوى . تباع فى الموائد ولا تزال بلاليق طيغافا ترص فى
دكاكين الحلوى كلما اقيم مولد لسيدنا الحسين . او سيدى إسماعيل الامباجى او
سيدى الليث او أى ولى آخر . لكن الأمراء اغبياء مناكيد لا يدركون هذا . هل الحق
الزينى ضرراً باحدهم كما الحق بزكريا ؟ زكريا لا ينسى ابدا ليلة تجمع الأدلة القاطعة
حول امر طال تردده فى قبوله . رفضه الاقتناع بصحته . ليلتها دخل عليها القاعة
مكروش النفس . مبهدل الثياب . وعندما واجهها فى ضوء النهار الخائن المتسلل من
ثقوب المشربية . ايقن صحة ما تردد فى الاقتناع به . عرف أنه خدع . هذا شعور لم
يطاه من قبل . حتى عندما بدا بصاصاً صغيراً ينقل كلفة الأخبار . كل الأدلة لم تقنعه
لكن نظرة عينها فى تلك اللحظة أنهت التردد . ذبحت الشك . وتذكر بصاص مصر
الأعظم الكازرونى عندما أمسك بأحد امراء الظاهر بيبرس . وفصل أعضاء عن جسمه
مبتدئاً بذكره . اطل عذابه حتى لفظ الأمير روحه فى خمسة واربعين يوماً . بدأ بحلق
شعره الناعم المتسلل كالحقد فى عروقه . شوه الوجه . حتى لا يرق القلب لتضاريس
العمر البكر . أدخل سن خنجره المحمى فيها إداره على مهل . لم تتحمل فخدمت
انفاسها بعد ليلة واحدة . حزن عفى أوغل فى قلبه . والحزن إذ يعرف الطريق إلى
قلب رجل مثله علامة ضعف غير مستحبة . لام نفسه إذ تسرع بقتلها . لكنها لم تحتل
قط . بالغ فى تعذيبها كلن لا بد ان يعرف منها . ابن ومتى نفذ اليها الزينى . واستطاع
ضمها الى صفوفه . أدخلها بيت زكريا قبل توليه الحسبة بأسابيع . كان لا بد ان يعرف
مكها اية أدلة على جماعة البصاصين التابعة للزينى . قال مقدم القاهرة . جماعة
الزينى هذه اما محكمة البناء بحيث لا يمكن النفاذ اليها ابدا . او غير موجودة
بالمره . زكريا يثق من وجودها . وإلا فإلى أى النفس تنتمى . وسيلة ؟ فعلا تسرع
فى ذبحها . هل يوجد آخرون فى البيت يسهلون اتصالها

بالزيني ، كيف كانت تنقل المعلومات الى الزيني ، لابد من رصد أهل البيت ، مراجعة
المرات التي خرجت فيها وسيلة ، محاولة التعرف على بككين القماش والطور التي
قصدتها ، مع أي الباعة تحدثت ؟ أمور كلها سيتابعها زكريا بنفسه ، أمر « وسيلة »
يجب ألا يشيع ، سبة في تاريخه . سيصير نادرة لبصاصي الأزمنة المقبلة ، أه لابد
أنها أخبرت الزيني بطريقة نومه معها ، قشعريرة سرت في ظهره ، كأن الزيني ثالثهما
في كل خلوة ، عيناه اللامعتان تتأملان مؤخرته العارية ، من يدريه ، ربما واحدة من
حريمه الآن على اتصال بالزيني ، كلما خطر له هذا لا يقربهن . يتراجع عنهن ، هل
الحق الزيني اذى بأحد مثلما الحق به ، مع هذا يطرق بابهُ ليخبره بما دار بين
الأمرء ، ليحميه ، عندما يقدم على حمايته يسن نصلا خفيا ، نصل لا يفتنى ، الى
قلب الزيني ، قلبه الزيني بذراعين مفتوحتين ، بدأ الحديث عن أمور تحدث في
الأزهر ، مجاورون كثيرون يجهرون بكلام في حق السلطان ، بل يتحرشون بسمعة
زكريا والزيني نفسه ، قال الزيني « سأرسل لك أسماء المجاورين المشاغبين ، وبهذه
المناسبة ما أخر أخبار هذا الولد .. اسمه . قال زكريا (سعيد الجهيني) . صاح
الزيني « تمام . تمام .. » ابتسم زكريا « لا تفوتنا حركته ، نحن أدري به من نفسه ،
بعد زواج حبيبته كان حزينا جداً ، قلنا إنه سيلقى نفسه في النيل ، أو يشرب فصا
ساماً ، ثم بدأ يكثر من الخلوة الى نفسه في مقهى حمزة ، أحياناً يجلس معه واحد
الزيني « منصور ؟ » قال زكريا « منصور الركليبي ، عندي معلومات كافية عنه ، إنه
أكثر تعقلا من صاحبه ، ويجيء منه الخير .. » أشار الزيني بيده « المهم .. لنرجع
الى الولد سعيد » قال زكريا « إدمان الدخان ، والمشروب الجديد الذي وصلنا من
اليمن .. القهوة ، وبعد زواج حبيبته بشهور بدأ يتردد على بيت سنية إبنة
الخبيزة .. يروح هناك كل يوم ثلاثاء ، ولا ندري السر في هذا ، مال الزيني وأسند
ذقنه الى يده ، « أكثر من إطلاق رجلك في أثره بحيث لا يكون الهدف رصد حركته ،
إنما إشعاره أن هناك من يرصدها .. » هز زكريا رأسه « فعلنا ما هو أكثر .. أمرت
رجالي باقتفاء أثره ثم النداء باسم سماح بصوت عال ، كاد يجن .. » ضحك الزيني
« عال .. عال .. وأخبار الصلاة ؟ » ابتسم زكريا ، « يدى قبلة الشفاه .. » تزايد ضحك
الزيني ، إسمع يا زكريا .. لا بد أن تحتل مكانة في قلوبهم أكبر ، غدا اركب حصانك ،
دع رجلا من رجلك يرتدى ملابس فلاح ، وأخر من رجلك في ملابس مملوك ، ليضرب
الثغني الأول ضربا فظيحا ، وطبعاً يتصادف عبور موكبك هنا ترجل أنت أنصف الفلاح
واقبض على المملوك ، أكثر من أشباه هذا يحبك الله الى قلوب الخلق ، وعندما يصل
البصاوصون يجدون لأول مرة في تاريخ الإنسان بصاوصا عظيما لا يتقن عمله فحسب
إنما يحبه الخلق ، ويحترمونه ، هذا يساعدنا في نشر العدالة وإقامة الميزان .

سكت زكريا ، الفكرة اعجبته ، كاد ينسى ما جاء من أجله ، هل يدرك الزينى غرضه
فأثر شغله بالحديث ، هل يؤجل الحديث عن الأمراء ، وإذا جهل الزينى قصة مجيئه
سيضطرب ويحار ، ويتساءل عن السبب فى مجيء زكريا ، تأخذه ظنون هنتى ، غير
أنه قال فجأة بعد لحظات صمت أثقلها ضوء خافت من شمعدان وحيد ، أنت يا زينى
ستقتل .. ، ، أصغى الزينى ، بعد يومين ، عندما تجول زكريا فى حديقة بيته ، تراءى
له وجه الزينى ، ثم قيامه المفجئ ، عنقه لزكريا ، لمح فعلا دموع القاتر فى ركنى
عينيه ، قال ، مثلى لا يمكنه العيش بدونك يا زكريا ، فى البيت لاحظ زكريا ميلا خفيا
الى الزينى ، خاصة بعد قبول الزينى الذهاب الى المواضع التى حددها زكريا ،
ونومه تحت حمايته ، لكن ، هل يصفو قلبه تجاه الزينى ، أبدا . الاستسلام
او الرجوع عن القرار القديم مذبحه بعدها زكريا لنفسه ، حتى يؤكد لنفسه ثباته على
قراره القديم ، بدأ فى استنبات بذور مشروع قديم مدفون فى عقله ، ارسل فى
استدعاء « أبو الخير المرافع » ، أبو الخير بصاص قديم عمل زمنا فى أقصى
الصعيد ، منذ أيام وصل القاهرة ، يقول متباهيا ، فى حيايتى خربت عشرات البيوت ،
هدمت عائلات ما ظن احد قط أنها ستهدم ، إذا حام أبو الخير حول إنسان فلا بد أن
يطرحه أرضا ، خاصة اذا وصل الى علمه استقرار أمر هذا الانسان أو فرحته بعياله
وامراته ، يهوى إحالة الفرخ حزنا ، والسرور قهرا ، والغنى مذلة ، دعوب فى اغلاق
البيوت وإفساد سعادة الناس وفرحتهم ، يرقص طربا لحظة طلاق امرأة ، زكريا يتأمل
وجهه المسحوب بحديثه ، ينظر الى تقوس ظهره ، عيناه تنظران الى فوق دائما ، من
لحظة الى أخرى يدفع أبو الخير الهواء الى انفه بقوة ، كأنه يعانى ضيقا ، يتساءل
عما سيحدث فى اللحظات التالية ..

★ ★ ★

نداء

يا اهلى القاهرة ..
تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر
ينهى اليكم
الزيني بركات بن موسى
متولى حسبة الديار المصرية
ووالى القاهرة
والمتحدث عن الوجه البحرى كله
انه سيخطب يوم الجمعة
ويكشف للخلق فى اركان الارض
حقيقة الحال ، وسر ما قيل وما يقال
فاذا شئتم الاطلاع على الحقيقة
فانهبوا الى الجامع الأزهر
يوم الجمعة
بعد الصلاة ..

□ □ □

من مشاهدات الرحلة البندقى ، فيسكونتى جانتى ، الذى وصل
القاهرة للمرة الثانية عام ٩١٧ هـ واقام بها ثم رحل الى الشام
وبلاد الحجاز ، ثم عاد الى القاهرة ، واقام بها ، وفى هذه المرة كان
قد تعلم لغة اهل البلاد ، فلم يعد بحاجة الى مترجم عربى .

★ ★ ★

« لم ارتد ملابس تاجر تركى ، خاصة ان الاهالى والشرطة يتعقبون كل عثمانى ربما
امسكوه ، يسلمونه فى احسن الاحوال الى كبير بصلصى الدولة ليعاقبه عقابا مريرا ،
ليقر اى معلومات كلف بجمعها وإرسالها الى ابن عثمان ، نزلت ممسكا عصا قصيرة
اندفع بها لذى الكلاب عنى ، رايت المدينة تغلى . من النادر جدا تواجد الاهالى خاصة
النساء بعد العشاء فى طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التى يشرف على نظامها
رجل قوى ، متمسك بالدين وفروضه ، له هيبة عظيمة عند الناس ، وهو محور هذا
الغليان ، لا أقصد الزينى بركات . لم يعمر رجل مثله فى وظيفته مع ان الأوضاع هنا
سريعة التقلب ، وهناك من يتولى منصبا فى المساء ليخلع فى الصباح ، رايت
المشاعل معلقة امام الدكاكين فقط ، رايت عجوزا يجلس بجوار جدار قديم ، اراه فى
الليل والنهار ، لا يرعش طرفا . كأنه بروز حجرى على هيئة إنسان واذكر اننى رايت
فى زيارتى السابقة ، لا يتغير ، بودى لو أرقبه ، اعرف متى ياكل ، متى يفك قبضته
عن العصا ، امرأة بدينة تجلس امام قفص كبير ، فوقه البقدونس والجرجير ، رجل
يبيع حلوى لذيذة الطعم من الدقيق والسمن والسكر ، يحبها اهل الشرق ، اسمها
بسبوسة ، اشتهر فى القاهرة عدد من الباعة يتقنون صناعتها اذكر منهم
رجلا قصير القامة ، اعور قبل المغرب يخرج من بيته الى ناحية حارة لا يسكنها
إلا العطارون ، يقف جامداً يتوافد اليه الناس رجالا واطفالا ونساء ، لا يزعم
احدهم ، اذا علا صوت رجل يطلب الإسراع لتلبية طلبه ، هنا ينظر اليه
ويشير اشارة واحدة موجزة « إمش .. » ، ولا يمكن ان يبيع له ابدا حتى
لو تردد عليه مرات ، وعندما يقطع البسبوسة ، يمد يده بسكينة قصيرة
سلاحها عريض مثلث ، حركات يده مرسومة محددة ، كأنه يشكل الذهب ، ينحت
المرمر ، تخلو الصينىة الا من فتات جلو متناثر يلعب فوق طبقة رقيقة من السمن
كلاشعة الصفراء ، بالسكين يجمع الفتات ، يلمه الى حافة الصينىة ، فى اللحظة
التي ينتهى من تجميعه ، يجيء رجل عجوز طويل رفيع معصوب العينين ،

يمشي منسربا لا حس له ، يحمل طفلا صغيرا لا يبكي ، يعطيه البائع الفتات ملفوفة في ورقة صغيرة ، يضم الحامل الخشبي المثلث تحت إبطه ينصرف ، احببت الوقوف قريبا منه ، أراقب يديه ، وجهه الجامد ، لم أذهب اليه بعد ، محلات الأكل كلها مفتوحة ، تسمع وانت تسير امامها اصطدام الأطباق والأوعية ، تتصاعد روائح الطعام . السمك المقلى . الفراخ المحشوة بالبصل ، السنبوسك . وهو نوع رقيق العجين . يشكل في مثلثات محشوة باللحمة . تقلى في السمن حتى يحمر العجين . من بعيد . ترتفع أصوات . تدور وتتجه جماعة نجارين يركبون عربات تجرها الدواب . يصفقون . يكبرون مهللين . يرددون في إيقاع منتظم . ابن موسى . ابن موسى ، لم أميز بقية ما يقولون . من أن الى آخر ترتفع صيحات هادرة عن جماعة . تبعد كلماتهم شائهة مضطربة . تغيب ، فجأة سمعت من يقول . « ابن موسى لا يأتي مرتين في زمن واحد » . رد آخر « لو جاءهم من يصلح أمرهم لابد أن يخلقوا فيه العيوب » ، العجيب أنني سمعت بالأمس رجلا عجوزا يقول عند بكان عطور قديم في الحمزاوى « ظهور ابن موسى علامة من علامات خراب الدنيا .. أنا أعرف عنه ما يقشع الأبدان ، لكن الحضور نظروا اليه ، سكتوا لحظة . تسابقوا في الثناء على ابن موسى . كأنهم يدفعون عن أرواحهم أذى مكتوما . ينفون استماعهم الى العجوز . أى أمر محير هذا . لم أر مثله في أى البلاد . الناس تحب شخصا بعينه ، كل لسان يحمده سيرته ، يثنى عليه ، في الوقت نفسه يسرى شيء خفى . شعور لا يبين في الأرواح والجماد رهبة خفية من الزينى ، لا تبدو على وجه بشر إنما ترى بعيون خفية . هذا أمر حيرنى فعلا وأريكنى ، سمعت طبل المنادى ، إذن سيخطب ابن موسى في الناس غدا . المدينة ساهرة ، لم أر فارسا مملوكيا واحدا ، عرفت من خادمى أن ضررهم بلغ حدا فظيعا لا يحتمل ، منذ عام كامل الخروج بعد العاشرة مغامرة ، أهالى الحارات يخلقون أبوابها ويعينون منهم من يجلس وراءها ، وعندما تزايد الأذى ، طلع ابن موسى الى السلطان وشفع فى الناس ، قال : « الدنيا ستخرب إذا استمر الحال على ما هو عليه ، من خطف نساء وذبح أبرياء ، واستجاب السلطان لرجاء الزينى وأمر بمنع المماليك من مغادرة ثكناتهم العسكرية والنزول بعد العشاء إلا بإذن خاص ، أمر بمنع أى مملوك من ارتداء لثام حول وجهه ، لم اعاصر هذه الفترة فى مصر ، لكن أخبرنى خادمى باستمرار الدعاء ثلاثة أيام فوق منابر الجوامع للزينى بركات ، ولم يحدث هذا لآى إنسان من قبله ، حتى أمر ابن موسى بمنع هذا . أخبرنى خادمى بذبح ثلاثة شبان فى هذه الفترة بسبب ذمهم ابن موسى ، ذبحهم العامة بأيديهم عندما قال الشبان ما يفعله الزينى مشكوك فيه ، هو الذى أثار المماليك ، حتى يطلع الى السلطان ويشفع فى الخلق ، وعندما يمنع السلطان ممليكه ، ينادى ابن

موسى بالكف عن الدعاء له . رجعت الى بيتي وفي رأسي دوار . بلا شك هناك أمن
 يعيش بين الناس وادعا . لم تفارقني ضجة الناس ، لهوهم . في اليوم التالي قمت من
 نومي مبكرا . صعب علي دخول الجامع . لو فرض وأمسكوني فساطلب عون الزيني .
 ما من أجنبي خاصة الفرنجة يدخل مصر إلا ويسجل اسمه والناحية القادم منها . هذا
 نظام جديد لم يتبع في زيارتي الأولى . لو سألني عما افعله في المسجد ساخبره
 بطوافي . برغبتي في رؤية الدنيا . ابن موسى سيفهمني . لا بد من لقائي به هذه
 المرة . لم أره إلا في موكبه يوم مشيه في موكب اعدام سلفه بأغرب طريقة قتل
 رايتها . الرقص حتى الموت . قلت لن يفوتني سماعه . فلادخل المسجد . لمحت رجالا
 يرتدون ملابس زرقاء يالقاتها صفراء . يقفون بين المصلين . يرقبون حركاتهم . يزداد
 عددهم كلما اقتربوا من الصفوف الامامية وحتى أمن على نفسي جلست ملاصقا
 لاحدهم لم اخطيء في القيام والركوع ، اعرف الصلاة هنا أهون من قرى الهند
 والمعابد والعبادات التي لا تنتهي ، بين الناس سرت مهمة . دوائر تتسع ، تتسع
 بعد إلقاء حجر في مياه ساكنة ، تعلقت العيون بالمنبر الخشبي ، وفوق السلام
 الخشبية طلع حاكم القاهرة ، محتسب الديار المصرية ، الزيني بركات بن موسى ،
 اصغيت مرهفا ، حديثه عامي اللهجة ، وهذا يخالف الأصول على حد علمي ،
 اضطررت الى إحاطة أذني حينما بيدي حتى أسمع ما يقول . بدأ ليئا ثم علا ، سمعت
 مجيء الزيني الى وظيفته ، حرصه على إقامة العدل ، وإقامة العدل في العالم أمر
 محبوب للبعض ، مكروه لآخرين ، كانت الفرصة مفتوحة امامه . ينهب الأموال
 ويكسب اليواقيت . اللؤلؤ والمرجان . كما فعل الأولون . وكما يفعل الآخرون . لكنه
 ابي خوفا منه وحده (يقصد الله) . وما هو ذا لا يملك أكثر مما يقيم أوده . وقال إنه
 تعهد بتقديم المال عن جهات معينة . وتمكن من استخراج اضعاف الأموال التي تدرها
 هذه الجهات عادة ولم يشك إنسان . او يتضرر . لم يصار فلاحا فقيرا يعمل بها . لم
 يتسبب في خروج بعضهم عن بلاده ، وضع حدا لهجمات العربان على بيوت
 الفلاحين ، هذا ما تم في الريف ، أما الضرائب هنا فهل شكنا منها مخلوق ؟ لقد الغى
 العديد من الضرائب ، وهنا تعهل صوت الزيني ، استمع الناس الى سر من أسرار
 السلطنة لا يجرؤ مخلوق على قوله . كان السلطان ينوي فرض ضريبة جديدة (وهنا
 علا صياح الناس ، حمك الله .. حمك الله) ، لقد شاعت رحمة السلطان وعدله أن
 يستجيب لشفاعة ابن موسى ، فيلغى ما عزم عليه ، (حمك الله .. حمك الله) ، وما
 قيمة الشفاعة إذا لم تجد صدرا رحيمًا كصدر السلطان يتقبلها ، وبعد نزول الزيني من
 القلعة ، نزوله يوم سبت وسفره الى الصعيد للاطمئنان على الأحوال (هنا توقف
 الحديث وبدا التأثر في لهجة الزيني) ، سرى هياج بين الناس ، لاحظت صدور

أصوات من مكان قصي في المسجد ، أما الرجال المرتدون الملابس الزرقاء فبدأوا يقتربون من بعضهم البعض ، ثم يتفرقون ، لكن ليقفوا في مواضع غير أماكنهم الأولى في الظهيرة ، ظهيرة السبت طلع الى القلعة هذا الرجل ، سامحه الله أبو الخير المرافع ، أبو الخير الذي خرب في عام واحد ثلاثا وثلاثين أسرة ، ابن موسى لا يذم أبا الخير ، إنما يذكر وقائع مدعومة بدلائل لا تقبل الشك ، الذين خربت بيوتهم أحياء يترزقون ، أما اليتامى فيشهدون على آباء رحلوا قبل الأوان ، من أخبره بهذه التفاصيل ، من أوضح له حقيقة أبي الخير المرافع ؟ إنه نائبه المخلص الأمين ، نائبه الذي يفار على العدل كما يفار على أهل بيته (أشار بيده الى أول الصفوف) انه زكريا بن راضي ، وتطلوات اعنق الناس ليلمحووا زكريا لكنهم لم يستطيعوا فرزقوا (أبقى الله زكريا . أبقى الله زكريا) اقترب الرجال نحو الأردية الزرقاء من ركن المسجد ، يبدو أن شغيا يجري . علا صوت ابن موسى ، رأيته يضرب صدره بيده ، أبو الخير المرافع افتري عليه ، تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينار من الزينى بركات ، بعد أن يتسلمه ويجرى عليه العذاب . (زعق الناس .. لعن الله أبو الخير .. لعن الله أبو الخير) . لكن السلطان بما أوتى من قوة بصيرة ونفاذ سريرة . هل يدري الناس ما قاله السلطان . أولا .. أمر بزج أبو الخير المرافع في القيد الحديدى ، قال له هل تظن أنني لا أدري ما يمتلك ابن موسى . سأحكى لك حادثة بسيطة . عندما انعقد مجلس السمر الليلي . تأسف الأمير ملامى الطبردار (أى حامل الطير والفأس) . وقال ، حتى اليوم كنت أظن ابن موسى واحدا من الأثرياء والمال عنده كاللؤلؤ يديره كيفما شاء لكنه جاعنى . وكان مضطربا زائغ العينين . طلب منى قرضا قيمته .. تساعل السلطان عن قيمته . تأسف السلطان ثانياً وقال خمسة دنانير .. أى والله خمسة دنانير . قال السلطان ، هل تظن شخصا يرسل فى طلب قرض كهذا تستطيع اخراج آلاف الدنانير منه . ثم لماذا ستون ألف دينار . أه .. ابن موسى أدخل إلى خزائنى آلاف آلاف الدنانير . لم يأخذ منها درهما لنفسه وعندى عيونى التى تخبرنى بكل كبيرة وصغيرة فى بيته (هنا علت همهمات من أقصى المسجد ، وسرت همسات بين الناس) فوق المنبر وقف ابن موسى صامتا .. رأسه مطرق ، يدها تضمان طرف عباة السوداء . وصاح الناس مطالبين بعضهم بالسكوت ، رأيت الناس فوق سطح المسجد المطل على الصحن الداخلى يروحون ويجيئون . ثم ظهر ثلاثة رجال يلبسون الملابس الزرقاء يدفعون الرجال الذين يختلسون النظر الى أعلى . أيقنت جمال المنظر لو صعدت فوق المئذنة الجديدة التى بناها السلطان الحالى هنا ، تشبه مئذنة ذات الأربع رؤوس والمنبثقة من جامعته الجديد فى أول سوق الشرايشيين . هذه المئذنة أدمنت النظر إليها . المرور من

تحتها . يتساقط فوق روحى وهج رخامها الملون . عصور سحيقة أراها فى الصباح .
أعود إليها وغبار العصر يغطيها فألقى منظرا جديدا . أجلس فى دكان مشروبات
قريب من الأزهر ، أرقبها تغوص بقمته ، برؤوسها الأربع فى الليل . حتى تندمج
بظلامه . أخشى عليها من ضياع . أرجع اليها من جديد . لم يتحدث ابن موسى
إلا بعد هدوء الضجة . « أعذرونى إذا رويت لكم فيما رويت بعض أسرار بيتى . »

أنتم أخوتى .. يا أخوتى ..

هل سرقت واحدا منكم ؟؟

(تألفت الحناجر .. تسد الفراغ ..)

حاشا لله ..

هل أتيت فاحشة ؟؟

لا ...

هل ظلمت واحدا منكم ؟؟

وتداخلت الأصوات . علت ، رأيت ابن موسى يشير بيديه ، عندما هدا الناس تقدم
رجل قصير يرتدى قميصا من الجلد ، أجهدت نفسى محاولا سماع الرجل ، لم أستطع ،
عندما رفع ابن موسى يده كان هذا الرجل يشكو ظلما وقع عليه ، أحد رجالي ضربه
لأنه كان يمشى حاملا قربة من الماء فهو سقاء وسط الطريق وهذا يعرض ثياب المارة
للبلل ، وتساقط الماء فوق الأرض يغطيها بالطين ، وهذا يخالف الأصول التى وضعها
المحتسب بالنسبة للسقائين ، ومع هذا لا بد من رد حق السقاء ، اعتداء رجل من رجال
ابن موسى على أى إنسان بضرب غير شرعى . مرفوض . لن يقبله المحتسب أبدا .
« بعد الصلاة تعال عندي ، أخبرنى عن المكان الذى مشيت فيه . وسأحضر أمامك
رجالى كلهم المتواجدين فيه ، ولا بد من رد حقد إليك . »

وفى لحظة بعينها ، قبل تهليل الناس ، انطلقت صيحة من أقصى المسجد .
انطلقت فى هفوة صمت ، تخللت حديث الزينى ..

« كذاب ... »

هنا لم يصدق ابن موسى ، صوت نشاز ، لم أخف تعجبى ، الحق أننى لم أر مثل
الرجل طوال سنى عمرى التى قضيتها راحلا عبر البلاد ، تزايد إعجابى بابن موسى ،
عندما عاد إلى إطراقته ، لا يتكلم إلا إذا ساد هدوء ، لمحت ضيقا خفيا حل به ، طبعا
لا بد أن يضيق بهذه الصفاقة ، ربما وصل أعداؤه ليفسدوا عليه حديثه الى الناس ،
مرة ثانية أشار بيده الى الصف الأول ، تابعه المخلص الأمين الشهاب زكريا
بن راضى (دام زكريا .. دام زكريا) هو الذى قبض بنفسه على أبو الخير المرافع
تسلمه وحبسه ، لا لأنه طلع وترافع فى حق الزينى ، ابن موسى فكر فى العفو عنه .

يكفيه معرفة السلطان بالحق واهله ، لكن الشهاب الاعظم سيديقه ما اذاق الآخرين ،
ابن موسى لن ينتفى ، لن يتراجع عما يراه عدلا ، السلطان معه . وقلوب الناس
تحميه ، فليات اعداؤه بما يشاعون . كل ما يرجوه ، أن يمضى اليه صاحب المظلمة
وإذا ثبت أنه ظلم مخلوقا ، فسيقبل أى قصاص يقع عليه كأي مخلوق . (علت ضجة
من نفس المكان الذى انطلقت منه الصيحة) . بدا ابن موسى فى نزول درجات المنبر
الخشبي . صاح البعض « الله أكبر . الله أكبر . الزينى . زكريا . قواك الله وحمك » ،
دق بعض الدراويش كئوسا نحاسية وضاعت الأصوات التى علت تشوش على
الزينى . لم أخف بهجتى . وازداد إصرارى . لا بد من لقائى به قبل سفرى ..

□ □ □

نداء

يا أهلى القاهرة
نوصى بالمعروف وننتهى عن المنكر
اليوم نبشركم
بقلع السلطان الصوف الأسود
وارتداءه اللباس الأبيض
مع دخول الحر
يا أهلى القاهرة
امر الشهاب الأعظم ، زكريا بن راضى
نائب محتسب الديار المصرية
نائب والى القاهرة
بشنق أبى الخير العرافع
وسوف تبقى جنته ثلاثة أيام
عبرة لمن اعتبر
ودرسا لمن جاء ومن غبر
يا أهلى القاهرة
ممنوع على دكاكين المشروبات ، والحلوى
السهر بعد العشاء
ومن ضبط مخالفا
عوقب بخمسين جلدة
يا أهلى مصر
جاعت الأخبار
بوقوع معركة
بين فرساننا الأشاوس
ورجال ابن عثمان
وقتل فرسان سلطاننا
أربعين فارسا عثمانيا
وهذا لول دم يسيل
فانتبهوا يا أهلى مصر
يا أهلى مصر

نداء

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
أمر من مولانا السلطان
بتعيين الزينى بركات بن موسى
ناظرا للذودخلفاه
ونائبا للدوادار الكبير
الأمير طومانباى
فلزم القنويه والتنبيه
يا أهالي مصر
من سمع أحدكم بعض أعداء الدين والملة
يقع بالكلام فى حق السلطان
أو حق واحد من الأكابر
فعليه بإبلاغ الأمر
الى نائب الحسبة
الشهاب زكريا بن راضى
وله الجزاء ، والمكافأة
ومن سمع وسكت
قطع دابره بغير معاودة
فاعلموا
وعوا ..

□ □ □

سعيد الجهيني

فى القلب جراح صعبة الاندمال ، النفس غابة أسنة وحراب .
مرشوقة لا تنتزع ، لاسد يوقف الأسى المنثال ، يذوى الأول
والآخر ، يضيع المثنى والمفرد ، التاء المفتوحة نهاية النهاية ،
موت الآمال وليد فراق الأحبة ، أما الأمانى فتناى ، فى أول العمر
يهتف خاطر خفى دفين ، جبينك لم تدركه الغضون ، صدى
وسوسات النجوم . يشد الأرض الى السماء . قلوب الخلق تنهج
بالمرو والبلوى . لكن صبرا . مهلا . بعد سنوات ستجىء الأيام السعيدة . لن يستقر
الأمر على حاله . أول العمر يغمض عينيه فيرى أياما مقبلة . وربيعا فتيا يخرج
الخلق بمامن من عبث الممالك . لا يدركهم خوف من هجوم المنسر . أو كبسة مفاجئة
من بصاصين يسعون فى أثر إنسان . لا يحب الإنسان مرتين . أول من يخفق لها
القلب . لا تنفى ضرباته . لا تصرع خفقاته . لا تنتزعه من الصدر وتسلمه الى منقار
طير جارح . يلهى به أفراخه الصغار . فى الزمان المرتجى اطفال صغار لا تعرف
لغاتهم لفظ الخوزقة . قطع رقبة . وباء . فى الوجوه صفاء اعتاد رؤيته فى وجه مولاه
الشيخ أبو السعود . لن يطول انتظار هذا . يقول لنفسه خمس سنوات .. خمس
سنوات لاغير . وتمضى الأيام وتناى . يسأل ملتاعا . ألم تمض السنوات الخمس ؟
ربما بعد خمس أخرى ، أبدا أبدا . حتى أمنيته العذبة . أن يصبح له سكن مستقل
يفلق ضبة بابه . بورة مياه لا يشاركه فيها أحد . حتى هذا صعب ومحال . يقول
منصور صاحبه : جئنا الى الدنيا وسنمضى عنها فنحن لسنا بمعمرين وسنترك
آخرين يأملون فى قدوم الأيام السعيدة . يا سعيد لماذا نخدع ارواحنا ؟ لماذا نصدم
رعوسنا بالصخر . ياسعيد إنما نأتى شيئا إمرأ . بعد خمس ثم خمس أخرى .
الأصابع تنتنى لا تلاحق ما يمضى . وسبع وعشرون سنة مضت . عطن الدنيا أبدى .
عبث الجان بالخلق لا ينتهى . الظلم كثيران المجوس لا ينطفىء ..

* * *

الطريق الى بيت الشيخ ريحان لايعرفه الآن . فى الأيام الضائعة انغلق . ضبة
المفتاح تلغ فى قلبه . قال منصور . فى الزمان دواء عظيم اسمه النسيان . أحيانا
تمطى أيام معدودات تخف فيها حدة الأسى . يهتف بالله المكبود . هاهو ذا الدواء
يسرى لكن فى لحظة بعينها . أى وقت من أوقات النهار أو الليل . ربما فى جلسته
الصباحية المعتادة عند حمزة بن العيد الصغير . فى رشفة معينة من كوز الحلبة .
فى صحن الجامع عند إصغائه الى الدرس . فجأة يحط عليه ثقل عظيم أوردة قلبه

يندفق منها دم معتم يظلم الروح . يذكر لحظة بعينها تنفر ألامه جامحة . يهب واقفا .
 ما العمر إلا حلقات نحاس محمية . تكوى النفس . ما العمر إلا ذكرى طويلة اليمه .
 تدثره . تزمه . ترى فى أى الأفلاك منقذه ؟ أى العوالم الأرضية تخفيه ؟ أى النجوم
 تخطف البلوى . أو تنبئه بها قبل مجيئها من بعد قصى . أى قمقم يفوص فيه هربا من
 عصره . من دنياه لا يفتح إلا فى الزمن السعيد الآتى . يفتحه صياد بسيط فيخرج
 منه شعاعا . يخرج منه روحا وصفاء . يهبه الحياة . والحب الضائع . يؤويه
 الصياد ، تضمهما الأبدية . لا يضل الطريق إلا من أحب . أما زمانه هذا فلا يقبل
 ما وجود به القلب الحنون . لا يجفف دمة أم على إبنها القليل . لا يبدد الهجر .
 لا يحيى موات الأمل . لا يجفف الجراح الطرية . أبدا . أبدا . يقول سعيد . ستأتى
 الأيام السعيدة . يصبح منصور . متى ؟ لماذا نصدم رعوسنا بالصخر العنيد ؟
 يا سعيد لا شفاة للخلق ترجى . حتى لو اتلنا الحبيب المصطفى . وحاول ملء
 الأرض عدلا وسلاما . من بعد أن ملئت ظلما وجورا . يا سعيد انا مقطوع الأمل من
 المهدي المنتظر . لو قام ناطق الزمان . لو ظهر . لو جاء من الكعبة يشهر سيفه
 الذهبى . سينصدى له زكريا . سيحرمه دخول الديار . سيقبض عليه ويرميه فى
 المقشرة . الحقيقة الوحيدة فى الدنيا . الحقيقة الأولى والأخيرة هى المقشرة .
 المقشرة . وما عداها باطل . لابل والشهاب والزينى وسنيه إبنه الخبيزة . أه .
 يصغى سعيد كثيرا الى منصور يتأمل كلماته . يلفها يقلبها ويعدل حروفها ، منذ أيام
 طلع الى المئذنة الجديدة ، رأى السواد يلف المدينة لاحس فى العلو الشاهق ،
 الفراغ بحر بلا قرار ، خلل من المحار والأصداف ، رأى نفسه وحيدا ، أول الخلق فى
 الدنيا ، رأى نفسه ينتزع ضلعا من ضلوعه ، تجيء سماح ، حلقه ضلق بلعابه ،
 وانفاسه ، أرسل الما كالصهد ، شفت روحه وخفت ، تحررت من أسر الجسد ، علت ،
 جناحها دموع صافية ، نجوم الأعلى خرساء ، تقول حديثا خفيا غير منطوق ،
 لا يسمعه مخلوق ، أه ، اليس على حق ؟ إذن لماذا لا يتجسد دعاؤه صاعقة منزلة ،
 تزلزل الأرض زلزالها ، ينكشف الزبانية الملتحفون بقفاطين ملائكية ظاهرها الخير
 وباطنها الأذى ، سداها الشر ولحمتها الضرر ، يؤمون الصلاة ، يعتلون المنابر ،
 أرسل دما صادقا ، كطلوع النهار ، رأى بعينى عقله سماح الرقيقة ، التى تسأل
 يوما ، أحقا تمضغ وتاكل ، وتأتى ما يأتى البشر ؟ رآها عارية تماما ، يخور فوقها
 لوطى عارى المؤخرة ، يصول ويجول فى أرض كانت حراما ، يحرق عشبها ، يجنز
 التين والزيتون ، يحصد غلتها ، يطفىء وهجها ، تذكر يد سماح ، يدها الصغيرة ،
 رقيقة كهمسة ، كبيت شعر اتقنت صياغته ، احتواها فى يومه اليتيم النفسك ، عند
 خروجه معهم للنزهة ، شم النسيم ، هذه اليد الرقيقة لأبد أن تتحسس الظهر الخشن

المنحنى فوق النبع الغزير ، أما الشيخ ريحان فلا حديث له إلا عن زيارة العظماء
 الأكابر ، ليلة العرس همس إليه الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ، جاءه بعدها
 الزينى بركات ، يسأله عما قال الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ضحكة متواضعة
 وبسط راحته فوق صدره ، « إعفنى يازينى من البوح بما قاله ، لا أبوح بما
 استوثقنى عليه » ضحك الزينى ، قال ، أتعرف أنها المرة الأولى التى يميل فيها الأمير
 سودون على إنسان ويهمس إليه بسر ، طاش عقل الشيخ ريحان ، طفت عليه
 الفرحة ، إبنته زوجة لنجل أمير قديم ، فى عروقه تجرى نماء الأمراء والعظماء
 والأكابر ، أه ، أى فائدت ترجى من اجتلاب هوام الأفكار ؟ أى نفس خربة ، معطبة
 يضمها بين ضلوعه ، أهذه روح لم تعش إلا سبعة وعشرين .

* * *

لا يبالغون فى إخفاء أنفسهم ، يجهرون بالظهور أمامه ، يعبرون الطريق أمام دكان
 حمزة . كثيرون يروحون ويجيئون ، لكن سماتهم الخفية لا يخطئها إنسان ، ربما
 ظهوروا فجأة ، ربما فى هيئة عجوز فلاح فقير يمشى الهوينى ، نظرة خاطفة من
 عينيه ، تشى بحقيقته ، تقول من هو ؟ ما الذى دفعه الى المرور من هذا المكان
 بالذات ؟ ربما امرأة شابة ، ربما عجوز بلغت من العمر قصيا ، الأطفال حتى ، أطفال
 لا حصر لهم ولا عد يخدمون الشهاب ، يفسد الابن على أبيه ، لا يصدق إلا شهادة
 الطفل ، من هو دون الخمس السنوات ، وهذا أمر مستجد لم يعهده أحد من قبل ،
 سعيد لا يمشى مع صاحبه منصور ، سيقتفون أثره ، يجهدون أنفسهم فى النفاذ
 اليه ، سعيد يعلم تماما ، حركاته ترصد ، أنفاسه تحصى . يتحدث كثيرا فى الرواق
 فى المسجد ربما فسروا حديثه . أضافوا اليه مالم يقصده . الغريب أنه سمع بعض
 المجاورين يسبون الأمير طشتمر جهارا . قال . ربما من البصاصين . لكنه سمع
 مجاورا شاميا من أهالى حلب يقسم بصحيح البخارى . أن الأمير خير بك يرأسل
 السلطان العثمانى فى الباطن . يخبره بأحوال الخلق فى الشام ومصر . ينقل اليه
 الصغيرة والكبيرة . وارتفعت الأصابع تتخلل اللحى . فى العيون حيرة . أى بلاء
 قادم . أى مصائب تحوم ؟ ما أدهش سعيد . ليس اتصال خير بك بالعثمانية . ربما
 فكر فى واقعة كهذه ، أمر قريب ممن لا أهل له ولا يد . لكن ما روعه . اللهجة التى قيل
 بها الكلام . أى الخواطر ترقب عقولهم . فى وقت طويل رأى نفسه حامل الثقل
 الفلاح . لا أحد يعينه عليه . حتى منصور صاحبه . إذا سئل عن أصحابه وزملائه .
 قال لافائدة منهم ترجى . اتاهم الممالك على غفلة فعملوا فيهم ما أحالهم الى طواشية
 لم يعرف مثلهم على مر الأزمان . طواشية ينجبون خصيانا . يعمرن بطون النساء .
 لكنهم بلا الستة . معلمهم بصاص ومربيتهم سنية ابنة الخبيزة . الآن يسمعونهم

يجهزون بما يتريد هو في التصريح به . ما الذي جرى ؟ هل أدركته الشيخوخة . هل يمتد مشفر الموسيقى الى فؤاده . الى وجدانه . الى لسانه . يروح بين حلقاتهم ويجيء . يصفى . الاخبار تدور . رسل السلطان يعودون من بلاد ابن عثمان . بهدلهم . انتهك حرمتهم . حلق شعر كبيرهم الأمير مغلباي وشكه في الزناجير . كاد يقتله لولا شفاعة بعض عقلاء العثمانلية فيه . الحرب أمر لا جدال فيه . قصاد ملك الحبشة يطلعون القلعة . الناس يتفرجون عليهم لغرابة هيئتهم . جان بردي الغزالي . يسافر الى نواحي الشرقية يلعب بالسيف في رقاب الفلاحين . يقتل الآلاف حتى تسد الترع بالجثث . موت رجل عجوز كان فريدا في صنع البسبوسة . بموته اختفى صنف لا يعوض . لم يعط سره لانسان . الزيني بركات ينوي الخطبة في الناس . هل تعرفون ربما كان بعض الأمراء وراء طلوع أبو الخير المرافع الى السلطان وطعنه في الزيني .

* * *

الجامع يفيض بالمصلين . عبير الوضوء والحصير القديم . يطلع الزيني المنبر . لحظة بعينها تجيء فتغير كل شيء الى مسار مخالف . فوق المنبر الخشبي يرى خروجه مع سماح يوم شم النسيم . ادراكه نهاية فرحته . يوم كامل تحدث اليها . لم تغب شمسها . يراه الآن معطلا من الأمل . تضج في اذنيه الكلمات . يصفى الى اصوات العرس . ليلة أن ذبح ذبحا ولم يفقده جبريل عليه السلام . لم يبكه قلبه . بل هام كالأبرص . يرى الدنيا ثعبا ضيقا . تقدم له جرعة ماء . عندما حالوا بينه وبين الجرى . سفكت دماؤه فوق صحراء . اجتز البوح من صدره . الزيني يتحدث من فوق العنبر . ابن سيد الناس يتجر في الفول كما يهوى . الشفاه تتسابق في تقبيل زكريا . لمس طرف عباخته . الرجال امام الدكاكين يهزون رعوسهم . يضيقون عيونهم . يا سلام هل رأت القاهرة رجلا مثله . انظروا الى ورعه . الى تقواه . لن يأتي الزمان ببصيص كهذا . الزيني يخطب الناس . في صوته لين ومسكته . هل سعى في زواج سماح . لماذا حضر العرس . باى غرض ؟ اين المرأة العجوز التي تطلع بين الناس . تصيح بكلمتين فقط في وجهه . منذ مدة طويلة لم يرها احد . لم يسمع عنها مخلوق . ربما قتلها . ربما نفاها عن الدنيا . قالوا إنها تذهب إليه في المساء ويبكى بين يديها أمام باب بيته . وإنها تخبره بما جرى وما سيجرى . بما سيأتي به الزمن . لكنها الوحيدة التي تصرخ فيه . سعيد سمعها بأذنيه في اول موكب . منذ سنوات عندما رقص طربا . مل فرحا . الناس يجارون بالدعاء . (حماك الله) . (دام زكريا .. زكريا) . فليقل سعيد ما قالتها هي . كتفاه تنوءان بحمل هم عظيم . الحجارة تنقل صدره . لكنه لا يرقد في هجير مكة . لا تلسعه نيران الرمائل . لا يهتف كبلال . كعمار

ابن ياسر ، احد ، احد ، مصرُ لا يلين كزرد الحديد وعنف السلاسل ، احد احد ، قلها
واطلق صيحة الشهادة ، (عاش زكريا دمت يا زيني) ، ما الذي بقي ليحرص عليه ،
زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا ، سدنته البصاصون ، كاتم سره عمرو بن العدوي ،
ليطرد كهولة ما قبل الأوان ، ليسترد شباب العمر ، ليرفع المشفر الحامي عن اللسان .

« كاذب »

لحظة هيئة طنت في أذنيه ، ذوو الأردية الزرقاء والياقات الصفراء ، زرقاء ،
صفراء ، نفذ السهم ، وتجمدت اليد في الهواء ، فوق المنبر .

« كاذب »

لا يخاف الهجير ، لتغرقه نظرات الاستياء ، السقائين ، الحدادين ، المرخمين ،
البنائين ، الفحامين ، النجارين ، الخبازين ، البصاصين ، ليزحفوا إليه ، هم
لا يعلمون ، تتدحرج حجارة الصخر والجبل ، لا يهتم ، لو ذبحوا ابنه بين يديه .
ولو ، لو منعوا الماء عنه ، لو أخذوا الرأس وعبثوا بالشفقتين . ولو سبقه الحسين
إلى احتمال شرف العذاب .

« أنت تكذب .. »

أهو الصدى ؟؟ أبدا ، ربما ، عجيب ، محير . اصوات أخرى حز الخوف فيها لكنها
تنطق معه في حس موحد شهيد ..

« أنت تكذب .. »

« أنت تكذب .. »

مقدم بصاصى القاهرة

الآن لا يرى ما يقوم به رجاله . لكنه يعرف ما يجرى . لم ير وجه سعيد ويعرفه تماما . لكثرة ما قرأ عنه . يعلم أمورا تخصه لا يدري بها سعيد نفسه . يود لو أسرع الوقت حتى يراه . الوجه الذى قرأ كثيرا عن صمته . هنا سيعرف كل اختلاجة طافت به . ما الذى يجعل وجهه صامتا دائما . لا يتحدث كثيرا . هوايته القديمة رؤية اللحظات الأولى فى وجه إنسان أحيط عمره بقيود . عند الباب الخارجى سيقدم إليه نصف كوب ماء . يشربه معصوب العينين . أى تأثير يحدثه هذا ؟ يقول الشهاب الأعظم . يجب أن تكون الخطوة التى يعبر فيها الإنسان عتبة أبوابنا حدا فاصلا بين عهدين . عندهم ينقسم العمر الواحد قسمين . بحيث يخرج الإنسان من هنا يحمل نفس الاسم لكنه فى حقيقة الأمر شخص آخر .



كوم الجارح

جذع دومة قديم عتيق يحاط بسياج من حديد ، مدينة وثنية ترجم ناسكا ، بغداد الاسلام تلفت حول منصة عالية فوقها المنصور ، الحسين بن منصور الحلاج ، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال ، اللسان الشهيد لا يكف ، أنا الحق ، أنا الحق . تعلق اليد الغليظة ، ساعدها مغطى بالجلد المرصع بفصوص الحديد . يهوى السوط فوق الجسد النحيل ، أترك صاحبه الأحوال والفروع ، كلت يد الجلابد من الضرب ، قطع ذراعى الحسين ورجليه ، الابتسامة فوق شفتى العابد الزاهد ، توحى بالظاهر والباطن ، وجهه ملطخ بدم ذراعيه المتدفق لا يتوقف ، لا يكف ، إنما يندفق من سخاء مبین ، مال المشفر الحامى ليجتز اللسان ، فى الليل انتثر رماد البدن المحروق فوق دجلة أما الرأس فنفى الى خراسان ، تجمعت بغداد ، أغرقت الحسين بن منصور ، ما الزمان هنا إلا امتداد هذه الأيام الثقيلة الغائية ، ظل لرج لا يروح أبدا ، الخير مسكوب والشر باغ والعهر طاغ ، إلى أى الأرجاء ياوى ، إلى أى السبل يلجأ ؟ حيرة غير متوقعة ، غير مرجوة فى نهاية المطاف ، سعيد أرجف قاع روحه ، أضاعوه ، أصوات المدينة تتباعد ، ما أحوجه الى غيبة ، الى إحاطة الروح بجدران الصمت ، الى استرجاع الأيام البعيدة ، ليدرك سر الابتسامة الجماد ، بينما اليدان مذبوحتان والرجلان ، يحاول لم الرماد ، يسأل

الروح ، أى سر ، انصرف منصور تطرده أشباح الزمن الخائن* منصور يرتعش ، يرتجف ، ربما جاء ليلتمس الأمان ، لكن أى أمان ، فى قفاه عينان لا يراها مخلوق ، تكبلان رؤيته ، تحددان طريقه ، منصور نقل ما يقوله الناس « مولانا اختار الزينى وثبت أركانه ، فأى شفيح له يرتجى ؟ » ، أه لو يطلق صيحة الخلاص ويمضى ، لكن الى أين ؟ حتما سيلقى المسيح الدجال ، الى أين ؟ الى السرداب الذى حفره بأظفاره ، أهذه نهاية المطاف ؟؟ أه .. سقط فى كمين متقن ، أعده باغ بعناية .



مقتطف من مذكرات الرحلة الايطالى فياسكوئتى جانتى ١٥١٧ م ٩٢٢ هـ

فيما يبدو ، قدر لى أن اشاهد خلال هذه الرحلة — الثالثة — الى الديار المصرية ، أحداثا كبيرة ، بعد وصولى من بلاد السودان بايام ثلاثة ، نزلت المدينة ، عرفت خروج السلطان الى الشام لمحاربة سلطان الديار العثمانية ، سمعت المؤذنين يدعون لسلطان البلاد بالنصر ، وقيل لى أن القاهرة ارتجت رجا مهولا يوم السبت ، وتحسرت فعلا لوصولى بعد خروج موكب السلطان على رأس جيشه قاصدا الشام ، وحتى لا يفوت أهل بلادى وصف الموكب ، ولأمانة فإننى أنقل عن صديقى الشيخ محمد أحمد بن اياس . وهو من أهل العلم المعروفين فى القاهرة وصاحب تاريخ طويل عن الديار المصرية ، أتمنى لو أتاحت لى فسحة وقت أعرف به أهل وطنى ، وحضر ابن اياس — برغم كبر سنه — خروج السلطان ودون ما رآه ، وسمح لى بنقل ما كتب ، يقول صاحبه ، ابن اياس ..

(.. أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى ، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة ، وكان السلطان راكبا على فرس أشقر عال ، بسرج ذهب وكنبوش وهو لابس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بندقية ، وكان ذلك اليوم غلية فى الأبهة والعظمة ، فإنه كان حسن الهيئة ، تملأ منه العيون ، مبعجا فى المواكب ، ثم أقبل السنجق السلطانى ، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانلى وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش ، فدخل من باب زويلة ، وشق القاهرة فى ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة فى ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام الذين خرجوا كلهم ،

ولم يبق منهم إنسان في بيته ، وبدت وجوههم مرعوشة تأثرا وانفعالا ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان ، فاستمر في ذلك الركب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا .

وفي أعقاب ذلك نزل حوايج خاناه ، فيها مال وذهب وفضة قيل ان ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته الى ان خرج في هذه التجربة ، وفرغ أيضا حواصل الذخيرة عن آخرها ، وأخذ ما فيها من التحف والهدايا ، والآلات السلاح الفاخرة مما كان بها من ذخائر الملوك السالفة ، من سرج ذهب وبلور وعقيق ، وكنابيش زركش ، وغير ذلك من التحف الملوكية . فنزل جماعة من كتاب الخزانة صحبة الحوايج خاناه وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الحوايج محملة على خمسين جملا ، قيل إن جميع هذه الأموال أودعها الغوري بقلعة حلب ، وفي يوم الأحد سادس عشر أرسل السلطان مناديا للعسكر في القاهرة بأن السلطان يرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر ، (طبقا للتقويم الاسلامي) ، فلا يتأخر أحد من العسكر الذين عينوا للسفر ، ولا يحتج أحد بحجة أو عذر ، فلما أقام السلطان في الوطاق ، وعين السلطان بعض القضاة والأعيان ليتولوا المناصب واحوال الناس خلال سفره ، فاستقر بالقاضي محمود بن أجا في كتابة السر ، والقاضي علاء الدين بن الامام في نظارة الخاص ، والقاضي شهاب الدين احمد بن الجيعان مستوفيا لديوان الانشاء الشريف ، والقاضي الزيني بركات بن موسى ناظرا كعادته للحسبة الشريفة ، وواليا للقاهرة ومتحدثا عن جميع انحاء مصر ، وأضيفت الى مناصبه الجليلة استدارية الذخيرة.





● رسم : جادور كَسْبِرُو

وتوافد كبار البصاصين من أركان المعمورة إلى القاهرة . قلب العالم
وبستان الكون .

السراقة الخامسة

اللهم أبعل هذا البلد آمناً
سري لا يطلع عليه مخلوق

لقاهرة جادى الأول ١٩٢٢هـ

رسالة أُعدت، بمناسبة اجتماع
 كبار البصامين في أنحاء الأرض
 وأركان الدنيا الأربعة في القاهرة زمن
 الدنيا، وبستان الكون، لتدريس
 الحقائق، والنظر في ذلك السالبي
 المتبع، وما يستجد منها، ولتبادل
 المعرفة والفوائد أعد في ديوان
 بصائر السلطنة الهاوية، وتلوة
 للشهاب الأعظم زكريا بن راضي
 عفا الله عنه، وعرفه طريقه، ومسالمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى « إن ربك لبالمرصاد »

قال تعالى « وأن الله علام الغيوب »

قال تعالى « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

(صدق الله العظيم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه « الكلام كالدواء ، إن أكثرت منه قتل وإن أقلت منه نفع » .
« أما بعد » :

فلم يحدث أن اجتمع كبارنا في أركان الدنيا قط ، وهذا حدث جلل وعظيم ، إذا كشفت عنه الأزمان المقبلة فحتما ستلقى فيه من الدروس والعبر ما يعرفون منه أننا حملنا عبئا ثقيلا وحملا فادحا ، وإننا عانينا ، وقاسينا ، وضحيننا بالكثير من أجل إرضاء الله تعالى ، جل شأنه ، وما نهدف من وراء لقائنا هذا : إلا استحداث طرق جديدة ، وسبل غير معروفة ، تعييننا على مهامنا الصعبة ، وهذا يساعدها في الوصول الى لب الحقيقة ، وسوف يسهل الأمر لمن يجيء بعدنا ..
والله المعين ..

« نشاء بحكم عملنا ، وما يتعلق به ، أن يحيطنا وضع غريب ، وهذا يتطلب من البصائص الكبير المهيمن على أمور الدولة بأكملها ، حتى البصائص الصغير الذي يتعقب رجلا أو امرأة ، أو ينقل كل ما قيل في مجلس أن يكون صاحب فطنة ونكاء ، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بين الناس أمنا ، إنما لابد من عيشه محبوبا ربما بدا هذا صعبا ، كيف يتأتى لرجل قدر عليه بحكم مهنته أن ينفذ إلى حياة الناس وخبائهم — وهذا مكروه — أن يكون محبوبا ؟ كيف يقصده الخلق ليحل لهم أمورهم ؟ لكن لنلحظ أولا أمرا هاما ..

مهمة البصائص — بلا لف أو دوران — إقامة العدل بين الناس ، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس ، وحيث أن كل أمر في الدنيا لا يتفق عليه اثنان ، مثلا ، هذه القاعة

التي نجلس فيها ، البعيدة عن اصوات الدنيا ، وضجيج أهلها ، لا نراها جميعا في هيئة واحدة ، مثلا كبير بصاصى الهند الأعظم يرانى واقفا هنا ، وكبير بصاصى اليمن يرانى من الجانب الأيسر ، أما كبير بصاصى السودان المبجل فيرانى من مكان آخر بصورة مغايرة ، حتى التراجمة يروننى بهيئات مختلفة وينقلون الى حضراتكم حديثى ليس بنفس الالفاظ ، إنما المعنى ، ومن هنا تصبح لى أكثر من صورة ، والحقيقة أن وضعى واحد لايتغير ، وحديثى يتغير على السنة التراجمة لكن معناه كما هو ، وهكذا .. ما نراه نحن عدلا يراه الآخرون ظلما وجرما .

البصاص لا يعمل من أجل نفسه أبدا ، الغرض الأول والأخير ، إرضاءه سبحانه وتعالى ، ثم يأتى السلطان بعد هذا ، ثم أركان الدولة ، ومادام البصاص مؤمنا بالله ، بربه ، مسلما كان أو مسيحيا ، أو بوذيا ، ويؤمن بمولاه ، فإنه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها ، ورفع الأذى عنها .

ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب من كافة قومه ، لم يخلق هذا قط ، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشر مضطهدا من قومه ، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسوار الطائف فألهب الهجير باطن قدميه . وسال دمه ، ألم يتأمروا على قتله ؟ ألم يحاربوه وتآكل واحدة منهم كبده عمه حمزة نبيته ، ومن قبل أن يتقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشوك ، ودقوا المسامير فى جسده وصلبوه ، أما سيدنا يوسف فأخوته هم الذين القوه فى البئر وحزوا نفس أبيه يعقوب ، حتى البوذا الأعظم امتلأت حياته بالأم ومواجع ، وهذا حال الأولياء الصالحين ، والشهداء والقديسين وخالصة هذه العبر أنه ما من إنسان يجتمع الخاصة على حبه ، بما فيهم من خوارج واختلافات ، وبالغالى . فإن حاكم أى بلدة من بلدان الله ، لابد أن يصبح مكروها من جانب آخر ، والحاكم الأمثل من نجح فى ترغيب الأغلبية فيه ، وتقليل أعدائه ، إذن ، لابد من وجود أعداء يتربصون ويكيدون ، ويتحينون الفرصة للانقضاض ، وهؤلاء إما من الخارج ، أى مخالفين للجنس ، أو الملة ، وفى هذه الحالة لابد من الالتفاف حول الحاكم ، ومهنة البصاص هنا مقدسة ، ولا يختلف فى هذا اثنان ، وإما أعداء فى الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة ، وبين عامة الناس .

الدرس العظيم المستفاد من التواريخ ، أنه فى حالات اندلاع الفتنة فلا بد من حياض البصاص . البصاص يعمل للعدل وحده ، ورمز العدل هو كرسى السلطنة ، كرسى السلطنة ذاته .

إذا تأمر بعض الصفوة ، أو جماعات من العامة على الكرسى ، فلا بد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسى ، هذا واجب ، لكن لنفترض وصول بعض الصفوة المتآمرة ، أو العامة (الغرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا الى تقاليد التملك والسيطرة .

ما هو موقف البصااص هنا ؟ ؟ نقول مادام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسي
الأصلي ، وتمكن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضعف الأول ، كيف يمكنه إقرار
العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه .

ربما ثار سؤال ، هلى يبقى الجديد على القديم ؟ هنا يمكن للحفاظ على المكانة
وضع شروط معينة ، يتوقف تنفيذها على مهارة البصااص وقدرته ، مهارته فى النفاذ
الى جوهر المكنون وخبيايا كل إنسان ، ومادام الانسان يشعر بوجود عين ترى منه
ما تراه بقية العيون وأذن تسمع منه ما لم تسمعه بقية الأذان ، فانه يخشى هذا
الجانب ، ويضع له ألف حساب ، لقد ذكر لنا كبير بصااصى دولة المغرب المعظم انه
حدث منذ مائتى عام أن تعصب كبير البصااصين ، وقتئذ للحاكم الموجود ، بالغ فى
إخلاصه له مبالغة تزيد عن الحد حتى اكتسب عدااء الأمراء والعلماء كلهم ، وعندما
نجح أحدهم فى إزاحة الحاكم ، وتولى مكانه لم يأخذ كبير البصااصين جانب الحيااء ،
إنما جهر بالعداء للأمراء حتى بعد تيقنه من قتل الحاكم ، وهذا عين الغباء ، تسبب
فى إيذاء جمع كبير حوله ، التصرف الأمثل هنا ، الصمت ومراقبة العامة ، حتى
لا يحشروا أرواحهم فيما يدور من صراع ، فينحازوا الى جانب هذا أو ذاك نضع لهم
آلاف الاعتبارات ، وسيحدث كل منا عنهم فى جلسة أخرى، وعندما تستقر الأمور
يبدأ ممارسة عمله ، وإقامة ميزان العدالة ، وربما عدنا من هذه النقطة الى نقطة
أخرى ابتدأنا فيها ، كيف يكون البصااص محبوبا من الناس ، برغم كراهية الخلق
لمهامه ، لعمله .

كيف يكون البصااص محبوبا من الناس ؟

من خصائص البصااص الأعظم ، البصااص الصفوة ، قدرته الفائقة
على اكتساب قدرات الخلق كلهم ، طبيعة البصااص تقضى عليه
التداخل والتعامل مع جميع الناس ، مع عدد كبير من الأجناس ،
آلاف البشر المختلفون فى طبائعهم ونزعاتهم ، لا يوجد شبيهه
للآخر ، والبصااص الحق ، البصااص المكين ، هو من استطاع جمع
خصال البشر أجمعين وهذا صعب ، ربما يبدو محالا ، لكنه سهل
علينا يسير ، يجب على البصااص أن يكون فحاما عندما يتحدث الى الفحامين ، عطارا
نابغا فى العطارة عند حديثه الى العطارين . ساخطا عند استماعه الى الساخطين .
حشاشا عندما يأتس بالحبشاشين ، خاطئا عندما يسلك طريق الخاطئين . مستغفرا
تائبا عندما يسجد بين التائبين . راضيا مع الراضين . يجب عليه أن يتنقل بين إظهار
الكراهية والاعراب عن الحب فى غمضة عين ولا بد أن يقنع فى كل الحالين . لا بد أن

يتقن لهجة الأغنياء ، متواضعا يخالط الفقراء ، سفيها محببا الى السفهاء . حتى إذا جالس النساء عرف طريقه الى قلوبهن وعقولهن الناقصة . هذا مانراه في البصاص المكين . ومن أهم ما نقيس به مهارة بصاص . هو اتساع علومه ومعارفه عن الأشخاص . كلما تبحر البصاص في العلم ، جمع الأصول ، واتقن الفنون ، كان أكثر قدرة على النفاذ الى أحوال الدنيا وأسرارها ، طبعاً هذا يستحيل على كل بصاص . من هنا قلنا بعدم ضرورة إلمام البصاص بالعلوم كالمتبحر فيها ، إنما عليه الإلمام بفكرة عامة ليست سطحية ، عن كل تاريخ وعلم وفن ، فكرة خاصة الطبع ، جليلة المظهر ، من أجل هذا قمت بأعداد مناهج خاصة في سائر العلوم التي فكر فيها الإنسان ، ندرسها في مدارسنا ، لكي يستوعبها رجالى فتنمو قدراتهم ، ولاتعجبوا يا إخوانى البصاصين العظماء ، يامن تملكون سر الكون إذا أخبرتكم عن بصاص شاب من رجالى يمكنه مجادلة أمتن العلماء فى أشد ما يمسه من اختصاصات بدون فكرة سابقة عما يناقشه ، وطريقته تعتمد على الذكاء الحاد الوقد ، وأخذة لبعض الكلمات والأفكار من المتحدث ، ثم تحويلها بشكل خاص والنطق بها على أنها أفكاره هو ، ولو شئتم أحضره إليكم وأتركه لمناقشتكم ، ومن أغراضى التي أنوى إنجازها قبل رحيلى عن الدنيا ، الوصول بكل بصاص عندى ، الى مستوى يفوق هذا الشاب .

الى جانب ما ذكرناه ، نطبق طريقة أخرى فى النفاذ الى خبايا الدنيا ، للوصول الى جوهر الحقيقة ، الاطلاع على الأسرار الأولية ، خصصت لكل طبقة وجماعة ، أفراداً بصاصين ، يتشربون عاداتهم ، وتقاليدهم ، وسائر ما يخصهم ، وكلامى هذا منصب على البصاص الأصلي ، إنما هناك جانب آخر ، هو البصاص (المستصنع) واقصد به البصاص المنضم الينا من نفس البيئة ، بمعنى إذا أردت جمع معلومات معينة عن النحاسين قمت بضم واحد منهم إلى ، بدلا من اللف والدوران ، وإرسال شخص غريب لأبد من وقت حتى يصبح واحدا منهم ، المهم مراعاة السرية التامة بالنسبة للبصاص المستصنع وتمرينه تمرينا متقنا ، بحيث تطوع قدراته لعملنا ، وبالنسبة للمستصنعين يجب اختيارهم من بين أكثر الناس أمانة وثقة واستقامة ، إذا نجح البصاص الأعظم فى ضم مثل هذا ، فإنه نجاح عظيم ، أخبرنا كبير بصاصى بلاد الصين العظيمة أنه نجح فى ضم أكبر العلماء إلى صفه ، والأعيان ، والكهنة خدمة البوذا الأعظم يعملون معه ، يسعون الى رجليه ، وطبيعى أن تلقى من أمثال هؤلاء مقاومة ورفضاً لظنهم ضعة مهامنا وعدم اتساقها مع الشرف والأمانة ، لكننى أقول واثقا أنه ما من إنسان فى الدنيا يستعصى على البصاص المكين . لنمسك ظروف كل إنسان وحياته . وننفذ من خلالها الى ما يمكننا من تطويع وتليين جامد فكره . بشرط أن يتم هذا كله بهدوء ؟ ودون قسوة . وعندى الآن مثال حى . إنسان

هو في أوهج فترات العمر نعد له من سنوات . وسوف أقوم يوما بكتابة رسالة مفصلة للعملية التي نجريها عليه . عندما أصل الى غلتي التي وضعتها منذ البداية . بل أوقن أنه سيشارك في كتابة جزء من الرسالة . يكشف ما جرى له . وما حدث ، بعد أن كان لا يطيق سماع اسمي . ولا هم له إلا تهيج العامة على أولى الأمر . وهنا لا بد من تحية وسلام أوجهها الى زميلنا الأعظم بصاص مملكة الفرنج الغربية على نجاحه العظيم في ضم أطفال المملكة الى صفوفه . لقد زرع روح البص في عقولهم وأطفالهم منذ تعلمهم نطق الكلمات ، فلا يسمع الطفل كلمة من أبيه أو أمه إلا ونقلها . واصدق الخلق هم الأطفال . وشهادتهم لا تكذب أبدا . وهكذا لو نجح كل واحد منا كما نجح زميلنا الأعظم . لتوصلنا الى تحويل البشر أجمعين بعد سنين الى بصاصين . وهذا أمر جليل يتطلب مع كل ملة ودين ، ولزميلنا الأعظم الحق في الاحتفاظ بأسرار طريقته التي حولت الأطفال الى بصاصين فهذا لم يتوصل إليه في غمضة عين ولكن بعد جهد سنين وسنين . لكننا نرجو الاستفادة منه واسمحوا لي أن أبدى إعجابي الفائق به . وبأحواله . لنجعل غلتنا وهدانا في دنيانا وهدفنا تحويل البشر أجمعين الى بصاصين . إن ما نبغى الوصول اليه ، سر الحقيقة . برهان الحق . وهذا شاق وفضيع . فما أكثر الطرق اليه .

كيف نصل الى معرفة الحقيقة الأولية ؟ ؟

ما أتلوه الآن تسمعونه حضراتكم . وعند خروجكم من القاعة ، إذا اختلى واحد منكم بصاحبه . واستعاد ما قلته . هل سيقوله بنفس اللهجة ؟ نفس الألفاظ التي قلتها أنا ؟ بالقطع لا . محال . وعندما نذكر مجلسا . أو صحبة أو رحلة . فلا يمكننا استرجاع ما مررنا به تماما . إنما نحكيه في عبارات لا تقرب ما حدث . لا نقوله كما جرى بالضبط ؟ وعندما اتسلم شخصا متهما بتهيج العامة . سينكر في البداية كيف أعرف الحقيقة إذن ؟ يمكنني ببساطة ذبح أي مخلوق . فزماننا لانسال فيه عن مصير إنسان ، لا يحاسبنا أحد ، لا يطالبنا بدية ، لكنني لست جلادا ، أو غشوما ، أنا أحاول الوصول الى الحقيقة ، وعندما تتكشف ، ستفصح عن أمور أخرى أعم وأدق ، ربما تندثر لو ازهقنا روح قائلها منذ البداية ، ومعرفة ماجرى أمر صعب ، الزمن الماضي ليس موجودا في مكان وزمان معين يمكنني الذهاب إليه فاستعيد ما جرى . أمس أو السنة الماضية لا نلقاها في صورة موجودات ، إنما نلقاها هنا ، في أذهاننا ، فيما يصيبنا من تحولات وتغيرات ، ولكي أصل فعلا الى الحقيقة الأولية ، لا بد أن يلفظها الانسان نفسه ، تلفظ بالقلب والعقل ، بالاقناع والصدق وتؤكدما الأدلة والقرائن . ولكي يلفظ الانسان الحقيقة بحق لي استخدام ما

أراه مناسبة من كافة ألوان الأساليب التي تؤدي بنطق الإنسان بالحقيقة ، ومن هنا فكل مايقوم به رجالنا من مهام وما يطبقونه من وسائل في سبيل كشف الحقيقة أحلته الشرائع كلها . واذكر هنا بالاحترام رسالة كبير بصاصي مملكة البرتغال الأفرنجية ، المتضمنة لوسائل جديدة لانطلاق الإنسان بالحقيقة ، والحق أن جميعها أمور مستحدثة في مجالنا ، أضافت اليها أبعادا طالما تمنيناها وطال اشتياقنا اليها ، وهنا ، اسمحوا لي ذكر ما نتبعه هنا ، من تطويع الظروف نفسها لخدمة رسالتنا .

كيفية تطويع الظروف ؟ ؟

نبدأ بمتابعة الإنسان في حياته ، وليس في سجوننا ، وننفذ اليه من ثغرات ضعفه ، نفسح هذه الثغرات ، نقوض الاسس والأبنية ، وكما ذكرت ، سهل جدا قتل ألف إنسان ، لكن ليس هذا مهما ، ما يهمنى تغيير ما في المخ والقلب ، وهذا صعب ، وللصعب دائما نتصدى ، إذا ثبت لنا شنود شخص عن الخلق ، إذا ثبت انه يهيج الناس ، يفتح عيونهم على الكبراء ، فبدلا من الترسيم عليه ، ورميه في المقشرة ، والمقشرة ياسادتي العظام من أشنع سجون الدنيا ، وأنا شخصيا أتفاخر به ، وأدعوكم الى زيارة وجولة تطلعون فيها على ما أعددناه للمساجين به ولن نخفى عنكم أمرا ، نعود إلى حديثنا فأقول ، نبدأ بدراسة حياة الشخص ، أرقب ظروفه ، ثم اصب مائى على نار الهياج فأخفف لسعتها ، وفي لحظة بعينها انفخها فأجتز حرارتها من قلب الرماد ، أمد سكين الزمن الى عقله فأنزع منه ما يجعله شادا عن بقية الخلق ، حتى لا القاهم جميعا منظوين يوما تحت كلماته ، يرحمون أميرا ، أو يحرقون قصرا ، أو ينهبون سوقا ، أو يهاجمون موكب السلطان ، وكما قلت ما من إنسان فى الدنيا يستعصى أمره على التغيير والتبديل ، يا أصحاب العظمة ، يا كاشفى الحقيقة ، هذا ما نعيه هنا ، ونؤصله عندنا ، ما من مخلوق يظل على حاله ، ما من زهرة تبقى متفتحة ، ما من شجرة تظل سامقة ، ما من امرأة تدوم شابة الى الأبد ، ما من طائر يعلو بلا حد ، ما من نشوة تحيا أبدا ، الشمس تشرق لتغيب ، النهار يطلع ليشيخ ثم يعتصره الليل ، والقمر لا يبقى فى العيون مكتملا ، النهر يبدأ لينتهى ، والغيث بعد حين ينقطع ، والمسافة مهما طالت تقصر وتنتهى ، سادتي ممسكى سر العالم ، ما من إنسان قط يبقى كما هو ، والزمن وحده ليس سببا ، نحن ندعمه ، إذا وجدنا فى نفس المرء ثغرة خوف برغم اشتهاؤه بالشجاعة ، أحوم من بعيد كطائر محلق على ارتفاع شاهق ، كطائر الحدأة عندنا ، لا انقض غارزا منقارى ومخالبى ، إنما أدور ، أدور ، أنزل الى ارتفاع معين ، ثم أطيء مرة اخرى حتى

أخفى ، وأعاد النزول سهما خاطفا ، وشهبا ثاقبا ، كلمح البرق ، كصاعقة انقضت ،
كخاطرة عابرة ، هنا تنتهي مرحلة ، وتبدأ أخرى ، ياسلتي العظام ، ما من إنسان في
الدنيا إلا وفي ميدان نفسه حفر وجراح ، ثغرات وقلاع ضعيفة متهاوية يقع على
عاتقها واجب النفوذ منها ، مرة انفذ على مهل ، متحسبا متسللا لا يسمع لى صوت
ولا أنفاس ولا فحيح ، فجأة أبذر منجنيقى ، انصب مواعى ، أبث رماحى السامة
أشهر سيوفى ثم أهجم مرة واحدة ، أطوق ، أحرق ، أهدم ، أحيل البناء انقاضا
والعمار خرابا والأمان يأسا والأمال فشلا مذبوحا ، والميناء الصالح لرسو السفن
أجعله غير صالح لا يواء ورقة شجر ، إذا كان فى صرح الشجاعة نقطة خوف أحولها
الى بركة ثم محيط ، لو فى قرارة القلب حب مخلوقة ما ، أحيله الى كراهية لا تحد ،
أجعله بغضا ، لو وجد بين الحبيب ومبتغاه عقبات يامل هدمها ، أجعل منها مستحيلا
لا يمكن تخطيه ، أقيم الحدود والحواجر . أحفر الخنادق وأبث كمائنى فأصيب النفس
بجراح تبقى طرية حتى بعد الممات . أبث فى الروح عكارة لا تروق أبدا ، إذا سخط
الإنسان لفقره بذرت له أمال الغنى والجاه ، أذيقه نتفا من حياة الرخاء يتعود عليها ،
حينئذ أحيله مسخا فى عيون الخلق لا يقدر على العودة الى قومه ولا يمكنه حتى
التطلع الى الأمام ، وهكذا بدلا من بتره حيا أحوله وهو يمشى على نفس قدميه
ويحرك ذراعيه ويتحدث بلسانه ينلديه الناس باسمه لكنه فى الحقيقة شخص آخر
وانسان ثان لا علاقة له بالوليد الذى انزلق يوما من رحم الأم أو الفتى اليافع الذى
أختل وزها بين أقرانه ، حتى رجولته أقلبها انوثة ، أضيع معالم الشارب واللحية ،
لا أحلقهما لا أثقب أذنيه وأعلق فيهما الأقراط ، لا أبتز عضوه ، كل ما فيه يبقى على
حاله لكنه لا يبقى ، هنا سيفكر لكن كما أريد أنا ، يثير النفس أيضا ، لكن كما أهدف أنا
وليس كما يحب ويشتهى ، هذا ما أتمه فى الحياه نفسها ، وإذا انتقلنا الى الفترة
التي يمكن للإنسان قضاؤها فى السجن ، هنا أسمح لنفسى مخالفة زميلى كبير
بصاصى البرتغال الأعظم فى بعض ما ذكره فى رسالته ، كان تركيزه كله على الوان
العذاب البدنى ، أبدا عندنا الآن النموذج الذى أشرت إليه ، ما الذى نفعله معه ؟
على سبيل المثال تفتح الباب عليه فجأة فى آخر الليل ، يضحك رجلنا فى وجهه
ضحكة معينة ، ضحكة مدروسة يسأله بلهجة كاللحم البارد الذى تجلط عليه السمن
هل تريد خدمة ، نقدم له كل يوم فى ميعاد معين ربع كوب ماء .. ماء عادى جدا لكن
وقعه عليه أفضع من كى الأصابع ، دبرنا موقعا بحيث أجبرناه على رؤية حبيبته
السابقة التى هام فيها وجدا وهياما وأنشا فيها القصائد ، رأها عارية تماما .. يخور
فوقها زوجها . زوجها وليس أى إنسان آخر وكانت تاتى من الحركات ما جعل شعر
رأسه يشيب فعلا . لحظة الضرب أو التعذيب نفسها لا تؤلم يا ممسكى سر الكون .
إنما ما يؤلم انتظار الإنسان لهذه اللحظة بعينها ،

عند تعذيب شخص ، ما الذى ينتظره أكثر من هذا ؟ لكن المهم أن يعيش فى انتظار دائم هذه اللحظة ، اللحظة المقبلة سيحدث ، ترى لماذا لم يحدث ، مامغزى كوب الماء هل تغير طعمه ؟ طعمه فعلا متغير ، ربما وضعوا فيه سائلا أو عقارا ينسينى زمانى ومكانى ربما أرادوا إفقادى رجولتى ربما يقتلوننى ببطاء . سادتى العظام ، لقد أجرينا تجربة منذ فترة وجيزة تقدر بأيام على إنسان عصبنا عينيه لامسنا رقبتة بحز موسى حزا خفيفا بحيث لم تحدث به إلا جرحا طفيفا جدا لكننا أمسكنا بأنبوبة رفيعة تصل بقربة صغيرة بها ماء دافىء ، صارت القطرات تنزل منسالة ونقول له ، قل أين أموالك ونوقف الدم ، توهم فعلا أن رقبتة تنزف دما غزيرا ، قال لنا كل ما نريده ، بل أكثر ، دلنا على أمير صاحبه اشتهر بظلمه ونهبه للأموال ، صار يزعم ، أوقفوا الدم أوقفوا الدم ، ونحن نحدث أصواتا نوهمه أننا نحاول فعلا إيقاف الدم ، لقد مات الرجل بعد لحظات ، مع أنه لم ينزف دما . لكنه توهم الماء الدافىء دما . وان شرايينه جفت وخلت ومات ، اننى اعصب عيني السجين ، يمشى دائما متوقعا ضربة مفاجئة تأتيه لكن متى ، أين ؟ هذا مايتساعل دائما عنه ، وفى ليلة معينة أدخل الى زنزانته الضيقة النظيفة . (هذا نظام جديد للسجون ونضعه فى سرية تامة) أدخل عليه أحد رجالى على أنه سجين . ولا تمضى ساعات إلا ويدب الشجار بينهما يتشاجران على آتفه الأمور هذا ما أجرينته على الشاب الذى حدثكم عنه ، أمرت رجلى بالاتصالق به أثناء نومه ، قام مفزوعا فلنا منه بنية أضمرها الرجل ليرنقه ثم يناله غصبا ، وهكذا أحيل الحياة الى جهنم أبطنها بشوك فيصبح الموت أملا مرتجى ومتعة بعيدة المنال .

رجاء

اثارنا المطلب الطريف الذى قدمه كبير بصاصى دولة كاجورا الفتية الخاص بما يوده لمهامنا فى الأزمان المقبلة ، وأرجو السماح لى بإضافات بسيطة الى افكاره ، كما أعدت ملاحق خاصة جدا حول عدة مشاكل نواجهها سأقوم بتوزيعها عليكم كل منها مترجم الى لغات حضراتكم ، وأقول متمنيا لا يوجد أمر على الله ببعيد ، ما نراه مستحيلا اليوم . يدخل باب الممكن غدا . وغدا بالنسبة لنا دون حد ، إننى أرى يوما يجىء فيمكن للبصاص الأعظم أن يرصد حياة كل انسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته ليس الظاهر فحسب ، إنما ما يبطنه من خواطر ، مايراه من أحلام ، بهذا نرصد كل شىء منذ مولده نعرف أهواءه ومشاربه بحيث نتنبأ بما سيفعله فى العاام العشرين من عمره مثلا ، فنستطيع منعه أو دعمه قبلها وإذا ما سئل إنسان عن الحقيقة الأولية فأنكرها يمكن للبصاص اإبتعادة الموقف كاملا من

الزمن فيواجه به إن أنكر ، أرى يوما يجيء فيمكن للبصاير معرفة الهمسات ،
الآهات ، تاوهات الجماع بين الرجل وإمراته . إذا ما جرى حديث بين رجلين فوق
قارب يجرى في النيل أدركه هنا ، ويمكنني التدخل في الحديث عند الوقت المناسب
وتوجيهه ، أرى يوما تنزع فيه الأعضاء من جسم الإنسان لتسال عما فعلته ، فلا
يمكنها الإنكار ، أرى يوما تطلق فيه على الناس أرقام معينة ، فيحدد البصاير لأهل
كل حارة أرقاما ، هذا رقم (١) هذا رقم (٢) بحيث لا يحمل شخصان رقمين
متشابهين ، وهذا أمر ناقشته بتوسع وإفاضة في أحد ملاحق التي ستوزع عليكم
وهذا يساعدنا في حصر الخلق ، بدلا من تعدد أسمائهم وتشابهها .

(وبعد)

فما ذكرته أخيرا أخيلة تراودنا ، لكن عندما يصير الأمر حقيقة ، فسوف يقول
بصاير الأزمان المقبلة انظروا ، كان أسلافنا أبعد نظرا وأشد عزيمة .
« وعليكم سلام الله وأمانه »

« كبير بصاير الديار المصرية »

زكريا بن راضي

□ □ □

ذيل (١)

مطلب في كيفية إعداد طعام المساجين
وهرقة نوبتهم وأفضل اللحظات
للانزعة لإقلاق راحتهم.

لا يطلع عليه إلا كبير البصامين بعينه

قام بالترجمة ديوان الترسية
بالمقر الرئيسي لبصامى القاهرة

١٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م

ذيل (٦)

مطلب في الوسائل المقترحة لترقيتهم
الناس، بدلاً من الأسماء، ونص فتاوى
شرعية تبين هذا في سائر الأديان.

لا يطالع عليه الأكبر البصاميين

قام بالترجمة - يوا - لترجمة
بالمقر الرئيسي لبصاميين القاهرة

١٩٢٢ - ١٥١٧ م

ذيل (٣)

مطلب في كيفية الرقابة على الرقابة
أى كيف يرصد بصا من بصاصنا
آخر...

حظ وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديواناً ١٥٥ لترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية

١٩٢٢ هـ

ذيل (٤)

مطلب في كيفية إقناع الناس بوجود
ما هو غير موجود .

نظرة أبيض لكبار البصا صينيون غيرهم

رجاء تسليم هذا الذيل بعد دراسته وقراءته

قام بالترجمة ديوان الترجمة
مقر محتسب الديار المصرية

١٩٢٢ هـ

كوم الجارح

الوقت ذاته من كل عام ، البيت يفتح للمريدين ، طلاب الحق
الجوابين الساعين حبا في أهل البيت ، بعضهم التقى فعلا بالنبي
الياس عليه السلام ، لم يفن ولم يمت ، النبي الياس شرب من نبع
الحياة فما عاد الموت يقربه ، عاش الشيخ أبوالسعود على أمل
اللقاء به ، التزود من حكمته ، الاستماع الى قصص أجيال
اندثرت . الشيخ الكرمانى حكى له مالا يتطرق اليه الشك ، عندما
اجتاز في أول الشباب بلاد فارس ، حيث عبد القوم يوما النور والظلام ، والتهبت
نيران المجوس ، عند البحر التقى برجل يلبس البياض ، أبيض اللحية ، والشارب
وشعر الرأس ، يمشى فتيا عفا كأنه ابن عشرين ، الشيخ الكرمانى كان على وشك
النزول فى قارب ليعبر البحر الكبير ، سلم عليه الشيخ ، من عينيه ينسال بهاء
غريب ، حذره من ركوب البحر ، قال « الدردور عمال ومن ركب هلك » ودواب هذا
البحر لاترحم من يلقي به حظه العائر اليها ، رجع الشيخ الكرمانى ، واختفى الشيخ
الأشيب ، ذهب الرجل ، وبرق خاطر فى عقل الشيخ الكرمانى ، من التقى به وحذره ،
هو ، هو بعينه ، سيدنا الخضر عليه السلام ، فيما بعد عرف هلاك القارب ، انتابته
حسرة ، كيف لم يبق معه ، كيف لم يقتف خطواته ، بعد أن قضى ثلاثة شهور يستقطن
حسرة لا تنبت أملا ، عزم فتوكل ، بدأ طوافه ، عسى أن يلتقى به ، يصحبه ، لكن
محال ، المرء لا يرى سيدنا الخضر مرتين ، مع هذا لم يضع منه الرجاء ، الشيخ
أبوالسعود لم ير سيدنا الخضر ولم يشهد النبي الياس ، فى السرداب ترق
الأحزان ، توخر النفس كمنصل ، سيف حاد ، النبيان الخالدان هجرا الأرض التى يحيا
فيها ، رأى الكثير ولم يرهما ، ارتعش قلبه بمنظر الموتى فى غزوة بربرية ، مدن خيم
عليها وباء حصد وافنى ولم يبق ، عندئذ يطرق باله سؤال الحيرة الأبدى ، لماذا
يموتون بلا ثمن ؟ لماذا جاء الانسان وعاش وعرف الألم والأمل ، إذا كان ذهابه بسيطا
هكذا ؟ فى السرداب سمع ثقة أهل مصر فيه ، سمع كل ما أتاه الزينى من رفع بعض
الأسعار ، من القبض على أشخاص ، ارتقاءه فى المناصب مبرر معقول ، ألا يقول
دائما ، لولا ثقة مولاي وأمامى الشيخ أبوالسعود الجارحى لما قبلت ، أحد المريدين

أخذ بوقوف الزينى خطيبا فى أهالى الصعيد القصى ، أخبرهم بأن الشيخ أبو السعود يدعو لهم ليلا ونهارا ، إنه ياتمنه على الأرض والناس ، إنه يوصيه بالعدل والخير وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه ، بعد فناء عمر طويل يجيء من يستبيحه . لو جاءه النبى الياس المعاصر لكافة الأزمنة فسيقول له . أنت المحق . لم تعرف زمنك . لم تغص فيه لتعرف كوامنه . لكن لا النبى الياس . ولا الخضر عليه السلام سيرشدانه ، فى السرداب خيل له أن الهاتف صاح عليه ، والهاتف يسمع ولا يرى ، ولا يجيء إلا للصالحين ، إما مرشدا أو محذرا منجيا ، أو لائما ، أى أسى يطرق القلب الوجيع المحسور ، كيف ينفذ بصره الى الحقيقة ، يقولون ، مولاه باركه أول سنة لكن لم يهتف الخلق باسمه نسوا وأصبح موقفه عنوانا لكل ما يجرى ، أه لو يصل الى شجرة الحقيقة ، حدثه النساك الزاهدون عنها ، من أكل ثمارها لا يعرف الضلال أبدا ، لو وصل الى الحقيقة كل أمر مهما لف والتوى ، لم يصل الى الشجرة ، لن يرى طيفها ، جاءه درويش عجوز صعيدى بحبات التمر ، سطل اللبن ، أكل وشرب ، يميل عليه هامسا ، مولانا فى الباب رجل اسمه الدمراوى . لا حجاب بينى وبين الخلق .

جاء الدمراوى ، فيما يبدو ميسور الحال .

جئت ساعيا على قدمى يامولاي .

من أى البلاد أنت ؟

منفلوط يامولاي .

الى منفلوط سافر الزينى بعد رحيل السلطان إلى الشام ، جمع أهل الناحية كبيرهم وصغيرهم .. فى البدء حكى عن كل شىء عن حقيقة الأخبار . الغدر الذى يطل من ابن عثمان . قال فيما قال إنه موقن من تحرك ابن عثمان ليأخذ مصر . لكن جند السلطان وفرسان الإسلام سيتولون أمره . قال . مصر محمية بأولياء الله . وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدى أحمد البدوى وسيدى عبد الرحيم القناوى . وسيدى الفولى والقطب القوى سيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى الرفاعى والأولياء أصحاب الأوتاد ومولاي صاحب الكرامات النورانية أبو السعود .

أجرى الدمع من عيون الخلق ، يامولانا ، ثم قال إن خزائن السلطان فى أمس الحاجة الى دراهم ، ورجاهم تقبل ماسيقول ، جمع ضرائب عام واحد مقدما غير السنة التى نحن فيها ، ولما كان الحال صعبا ، والدنيا متشظحة مع الناس ، ضجوا واعولوا ، فتحدث اليهم بلين الكلام ، قال من يملك شيئا ليبيعه ، حاش عنهم أذى الأمراء والمماليك ولو تركهم لجاعوا بسيفوفهم ، وباعوا اولادهم وبناتهم كما تباع المشية ، وهذا ليس غريبا ، حدث من قبل مرات ومرات ، وبين الكلمة والأخرى يذكر

وصية مولاہ الشيخ أبى السعود له ، فصارت الناس يامولاي ، أه سامحنى يامولاي
بكى الدمراوى ، يولى سيدنا الخضر عليه السلام وجهه بعيدا ، يزعم المریدون ،
تعلو الهمهمات ، « بعد أن صرف الناس . إستبقانى مع أربعة من أهالى البلدة ،
أخبرنا بأمر عديدة عن أموالنا فعجبنا فيما بعد ، كيف وصلتہ ، ثم قال إنه سيفرض
على كل منا مبلغا قدره ألف دينار ، قال لابد من الدفع ، العجيب يامولانا ، ضياع اللين
فى حديثه ، نتر فى وجوهنا . أظہر القسوة قال إنه يمهلنا شهرا ، ولو تأخرنا وسيدعو
علينا مولاہ .. فتخرب بيوتنا .

صرف الدمراوى . ورأى السماء مقطبة الجبين . الآن يرجع الفلاحون الى ديار
الطين ، الآن يوقد عساكر السلطان النيران فى سهول حلب ، الآن يتوه ملاحون فى
البحار الغربية ، يجىء سيدنا الخضر يرشدهم الى السلامة ، الآن يضيع صواب
الضالين فى الصحراء ، ينزل الليل صخرا وحجارة ، لا يدركهم إلا النبی الیاس ، وفى
لحظة معينة من الليل لم يعرفها أى إنسان حتى أشد الأولياء ورعا ، فى مكان مجهول
لا تطرقه دابة ، يجتمع سيدنا الخضر وسيدنا الیاس ليلقيا نظرة على بلاد يأجوج
ومأجوج ، حتى لا يكسروا السد ، ويفرقوا العالم . خاطر يضيق به صدر الشيخ . هل
نقد بعض الیاجوج الى دنيانا ، وتنكروا فى هيئة البشر ؟ سيهجر السرداب حيننا ،
خلا البيت من مجىء سعيد .

« يا فرج .. »

جاء المرید الشيخ . لا يعرف الطريق اليه إلا مرة كل سنة ، فى ميعاد بعينه .
إمض إلى الزينى بركات ، ارتد شال عمامتک الأحمر ، ناد عليه ، قل له أن يأتى
عندى الليلة .. لا تدعه يغيب .



الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر مقدم بصاصى القاهرة
عاجل وهام

تقرير مرفوع الى الشهاب الأعظم زكريا بن راضى ، كبير بصاصى السلطنة

فى الجزء الأخير من هذه الليلة ، توجه الزينى بركات بن موسى ،
استدار الذخيرة ومتولى حسبة الديار المصرية ، والى القاهرة ،
والتحدث عن الوجهين القبلى والبحرى الى كوم الجارج ، بعد
استدعاء الشيخ أبوالسعود الجارجى العارف بالله ، وعندما دخل
اليه أجلسه بين يديه ، مال الزينى عليه ، لكن الشيخ لم يراع هذا ،
ونتر فى وجهه ، يا كلب .. لماذا تظلم المسلمين ؟ لماذا تنهب
أموالهم ، وتقول كلاما تنسبه الى . أبدي الزينى دهشة حاول الانصراف ، لكن الشيخ
قام ، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج) .. أمره بخلع عباءة الزينى عنه ، تجمع
حوله الدراويش أحاطوا به ، أمر الشيخ فضرب رأس الزينى بالنعال حتى كاد يهلك ،
ثم أمر بشك الزينى فى الحديد ، ثم أرسل الى الأمير علان .. وأيقظه .. وقال له : اطلع
شاور نائب السلطان الأمير طومانباى فى أمره ، وأعلمه ان هذا الكلب يؤذى
المسلمين ، وفى الحال طلع الأمير علان الدوادر الكبير الى نائب السلطنة ، وأيقظه ،
وأخبره بما جرى ، وقال الأمير طومانباى ليفعل الشيخ أبوالسعود مايبدو له ، وحتى
ساعة كتابة هذا ، مازال الزينى بركات بن موسى محتجزا عند الشيخ أبو السعود ،
وقال الشيخ لمريديه « أبقوا الأمر سرا يوما أو يومين حتى أستخرج منه ما نهبه من
أموال الغلابة ، ثم نشره على حمار ، ونخلص الدنيا منه » وحتى الآن لا يعلم العامة
بما جرى ، وإن تساعل البعض عن عدم ركوب الزينى لصلاة الفجر كعادته ، ومن
ناحيتنا ، بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد فى كل فج ، وخاصة كوم الجارج ، ونمى
الى علمنا ، أن دراويش الشيخ ومريديه ، وكافة أرباب الطرق الصوفية ، والفقراء فى
بر مصر سيعلمون الخبر ويهيجون الخلق .

عليكم امان الله تعالى

(مقدم بصاصى القاهرة)

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ

ديوان سر نائب الشهاب الأعظم
زكريا ، المختص بأحوال ابن عثمان
وأموره

مصيبة كبيرة

بعد تضارب الاخبار ، وكثرة القيل والقال ، ورد إلينا ، منذ لحظات حقيقة ما جرى ، فبادرنا بإرسال الاخبار إليكم ، وناسف لعدم تمكننا من الحضور بأنفسنا لانشغالنا باستقصاء الحقائق ، لقد وقعت كايئة عظيمة ، طمت وعمت ، وتفاصيلها ، إن السلطان الغورى دهمته عسكر سليم العثمانلى يوم الأحد خامس وعشرين رجب (وهو يوم نحس مستمر) ، وكان السلطان قد صلى صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه إلى تل الفار . وقيل هناك قبر داود عليه السلام فركب السلطان وصار يرتب العساكر بنفسه ، فكان أمير المؤمنين على ميمنته ، وحوله أربعون مصحفا في أكياس حرير صفراء على رؤوس جماعة اشراف ، وفيهم مصحف بخط الامام ، عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وحوله أيضا جماعة من الفقراء ، هم خليفة السيد البدوى ، ومعه اعلام حمر ، والسادة الاشراف القادرية ، ومعهم اعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى ومعه اعلام خليفتى ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها ، باعلام سود ، وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خير بك نائب الحلب .

قيل اول من برز إلى القتال الاتابكى سودون ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القراصنة دون الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا ومعهم جماعة من النواب ، فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة ، واخذوا منهم سبعة صنماجق ، واخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق ، فهم ابن عثمان بالهروب او بطلب الأمان ، وقتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان ، كانت النصره لعسكر مصر اولا ، وياليت لو تم ذلك . بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قال للمماليك الجلبان لا تقاتلوا او خلوا المماليك القراصنة تقاتل وحدها فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال . وبينما هم على ذلك وإذا بالاتابكى سودون قد قتل فى المعركة . وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم من الميمنة من المعسكر . ثم ان خير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . وأشيع بين الناس أن خير بك نائب حلب كان

موالسا على السلطان الذى ظل واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المعاليك صار يصيح فى العسكر ، يا اغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلى رضاكم . فلم يسمع له احد قولا وصاروا يتسحبون من حوله شيئا بعد شيء . فالتفت الى الفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا الى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم . وصار ما يجد له من معين ولا ناصر . فانطلق فى قلبه جمرة نار لا تنطفىء وكان ذلك اليوم شديد الحر . كثيف الغبار . كان نهارا غضب من الله تعالى على عسكر مصر . ولما تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه فى الحال خلط فالج . فابطل شفته . وارخى حنكه . فطلب ماء فاتوه بماء فى طاسة ذهب شربه ومشى خطوتين وانقلب من على فرسه إلى الأرض ، فاقام نحو درجة ، وخرجت روحه . ومات من شدة قهره . وقيل فقعت مرارته . وطلع من حلقه دم احمر ، ولم يعثر على اثر . ولم يعلم له خبر . فكان الأرض انشقت وابتلعتة فى الحال .

ولم تستغرق هذه الواقعة الا من طلوع الشمس إلى بعد الظهر . وانتهى الحال على امر قدره الله تعالى . تحول ابن عثمان عن مرج دابق الى حلب فملكها من غير مانع . واستولى على مال السلطان وتحفه واسلحته التى خرج بها من بر مصر . هذا ملخص ما جرى فى الشام ، نسأل الله ان يقينا شر ما يجيء من احوال ، وسوف نرسل ما يرد اليها أولا باول .
عليكم امان الله تعالى

نائب الشهاب الأعظم

المختص باحوال ابن عثمان واموره

عمرو بن العدوى

لماذا ارسل إليه ؟؟ هل انكشف أمره وافتضح ؟ او انكسار العسكر واقترابه وكثرة الاشاعات واضطراب الاحوال ، حتى بيت ابنة الخبيزة لا يستطيع المضى إليه شحت يده بعد امتلاء ، الماوى فى الرواق ضاع ، لا يجمعه الا بيت واحد من اهالى البلدة ليلة او ليلتين ، ثم يمضى الى غيره لتقبله العيون بالنظرات نفسها ، لا يعرف ما سيقوله مقدم بصاصى القاهرة ؟ لكن هل يقنعه الى أمره مع كل هذه المشاغل والامور المضطربة ؟ لا يدري ، الآن يعبر حارات العطوف ، يخاف لو راه احد المجاورين ، حتى من حرصوا على صحبتته يوما خوفا وخشية ،

جهروا له بالعداء هذه الليلة وجد نفسه ضائعا فيها ، قابله خارج الرواق كل من ينام بجواره ، بالقرب منه ، زملاؤه فى حلقة الدرس ، شوام ومغاربة وافغان وقفوا يرقبون ما يجرى ، حمزة ثيابه ربطوها تحت قدميه ، قال الشيخ حمزه أكبر من فى الرواق سنا واقدامهم فى طلب العلم وتحصيله ، امض عنا ياشيخ عمرو ، لا ترنا وجهك ، يد حجرية هوت فوقه ، كاد يزعق فيهم ، أتعرفون الى من تتكلمون ، إلى من يزعمون ؟ فى هذه اللحظة رأى نفسه .. يجلس امام مقدم بصاصى القاهرة ، كان اذا جلس الى التجار . الى المجاورين ، يزهو اذ يسترجع حديث المقدم إليه ، يأسف لأنه لا يمكنه التصريح بذلك ، زهو داخله كلما رأى انسانا ، باستطاعته ارسال أى شخص الى المقشرة ، هل نسوا هذا ، لكن عرقا غزيرا انبثق من جلده ، بلل ثيابه ، ما الذى جرى يا شيخ حمزة ، واطلقت العيون شررا ، صاح الشيخ صلاح الصعيدى : امش يخرّب بيتك كما خربت بيوت الناس ، تقدم الشيخ بهاء الحق ، خلع مركوبه ، منعه الشيخ حمزة ، اذيتنا وعددت أنفاسنا ونقلت سكناتنا وحركاتنا ، « ذنب الشيخ سعيد ، والشيخ مبروك فى رقبته » يوم لم يعمل له حسابا ، ما الذى جرى له ، يذهبون الى شيخ الجامع يوقعون فى أمره كل ما لم يجرؤوا على قوله من قبل ، يأمره بطرده من الرواق ومن حلقات الدراسة ، من الأزهر ، بفضحه ، نظر الى مدخل الرواق ألن يجتاز عتبة الباب أبدا ، ألن يصغى إلى أنفاسهم ، الى هلوسات احلامهم ، ما الذى سيكتبه إذن فى تقاريره ؟ أه ، لن يرحمه الرجل ، فشل ولم يتقن إخفاء نفسه ، وهذا يساوى الموت بالنسبة للبصاص ، الى اين يمضى ؟ تطل عليه أيام بعيدة طاف فيها بالبيوت . يستجدى الدراهم بتلاوة القرآن ، لن يجرؤ على دخول بيت منها ، بقجة ثيابه ، إلى اين ؟ ايعود إليهم ، يطلب الصفح والسماح ، يحكى لهم عن أمه التى لا يعرف مقرها الآن ، سنوات مرت على خروجها ، لا يعرف الطريق إليها ، لم تهتد إليه ، ربما تصل الى الرواق ، لا تلقاه الآن ، تسعى حول المسجد كسيحة عمياء كسيرة الفؤاد ، لو حكى لهم عنها ربما رقوا له ، ادرك انه نسى وجه أمه ، صورتها ، لو قابلها فلن يعرفها ، لو تعيش فهى ميتة فى قلبه منذ سنين ، حمل ثيلبه ولى هاربا ، الطرق عليها كمدة ، كأن الدم المسفوح فى مرج دابق غطى تراب القاهرة ، الناس جروحهم طرية ، فى كل بيت مناحة ، أما جرحه فنافذ حتى النخاع ، سب الشيخ حمزة ، لعن المجاورين ، بل لعن فى سره البصاصين . من يدري ، ربما كشفوا أمره لغرض فى عقولهم ، ربما اشاع مقدم البصاصين بالقاهرة حقيقته ، اشرف على فضيحته ، مرة سمع الشيخ حمزة يسب كبير بصاصى السلطنة ، أهمل ولم يرفع ما حدث ، أهو الكسل ؟ الآن يتمنى لو عرف الشيخ حمزة بموقفه ، ارتعش ، توقف مكانه . سمع صرخة غامضة غريبة طالعة من احشاء العطوف ، ربما يذبح انسان ، لا قيمة لذهاب رأس واحد ، فما أكثر الرعوس التى راحت فى مرج دابق ، لو أمسكوه الآن فى هذه

الساعة لظنوه يجس الأحوال ، يراسل ابن عثمان ، الرجم مصير هين عندئذ ، لن ينقذه زكريا نفسه ، ربما يدبر له مقدم بصاصى القاهرة ملعوبا ليتخلص منه تماما ، يمسكه بعض البصاصين الآن يزعمون عليه « بصاص لابن عثمان » اذن فليسرع ، كل شىء يولى ، كأنه لم يذهب إلى ابنة الخبيزة ، لم يضاجع لطيفة الحلوة ، كأنه لم يستمع إلى هيفاء اللذيذة ، لم يدرس العلم ، لم يحفظ الحديث ، أه لو بقى فى البلدة بجوار أمه ، يعمل فلاحا ، عنده زوجة وأطفال ، تصر البوابة عند فتحها صريرا ثقيلًا ضبتها الضخمة توجهه ، نفس الممر ، عبره مرات ، ارتجف ، هل سيخطو فوقه راجعا الليلة ؟؟ لا يعرف ما سيفعل به ، فى أولى حجرات البيت طالعه نائب مقدم بصاصى القاهرة .

« اجلس »

لم يلامس ظهره مسند المقعد ، رأى نفسه بعين الرجل ، أدرك نحول بدنه ، اصفرار وجهه .

« فضحت نفسك .. وفضحتنا »

انعقد لسانه ما الذى سيفعل به ؟؟ عندما وصل اليه الرسول فى الفسطاق ، أعد كلاما كثيرا يقوله ، كل ما يرجوه تدبير المأوى ، يمكنه العمل خادما ينظف الحشايا ويغسل الأواني ، ألم يبذل الجهد كله فى خدمته ، هل خاب تقرير واحد أعده من قبل ، ألم يتسبب فى كشف أمر عشرات المهيجين ، الآن لا يجد كلمة واحدة فوق ما فكر فيه ، قام نائب مقدم بصاصى القاهرة ، لاحظ عمرو أنه متعب ، تمنى لو قال له « استرح .. لا تتعب نفسك » لو بدله عادى الكلام ..

« سوف تسبب لنا متاعب » ..

قلب عمرو حمامة ابتل ريشها ، يلمس ما تقر فى أمره ، من خلال كلمات الرجل وحركاته ، أثناء مشيه ومجيئه فى الحجر ، ضرب قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى ..

« ستبقى عندنا وقتا حتى يبت فى أمرك » .

« هنا » ؟؟

ورأى عمرو ظلام الليل أبديا ، طاف حوله خيال هائم ، لا يدري أين صاحبه وتمنى لو اقترب من النائب وهمس برقة « اهتم بنفسك ، صحتك على غير عاداتها ، فيجاوبه النائب ، قائلا .. « رعك الله يا عمرو وأبقاك .. »



سعيد الجهينى :

بخرقه ممزقة قديمة ، اقبل حمزة بن العيد الصغير ، ينظف
الموضع المعتاد من الدكة .. لك وحشة ياشيخ سعيد .. سنتان
وأكثر .. هانت عليك العشرة ..

ضيق سعيد عينيه ، تعب البصر وامتنع عن تمييز القريب من
الاشياء ، أصدق حمزة فى قوله ؟؟ او يتظاهر ؟؟ احقا يجهل ما
جرى ؟؟ ألم يبلغه الامر ؟؟ وإذا تجاهل فلا بد من غرض خفى
يستحق تظاهرة ؟ ألم يسمع صدفة حديثا تبادلته بعض المجاورين المترددين على
دكانه ، حمزة يدعك يديه بعضهما البعض ، فى الترحيب حرارة لا تخفى ، هل أوصوه
بافتعالها ؟؟ أصدروا عن نظراته ما يدفع الريبة والشك إلى قلبه ؟؟
« غيبته لم تطل يا ريس حمزة .. »

فى كلمات قليلة رد ، ليفهم حمزة أو أى بصاص آخر يقف قريبا منه ، يختبئ فى
الدكان ، فى أى مكان لا يراه ، انه لا يبدي الشكوى مما حدث ، سعيد عليم بمراقبتهم
له ، فى مكان بعينه ، فوق مساحة ارض بذاتها ، فراغ محدد يقف انسان يرصد
كلماته ، الناس الذين يلقاهم ، العبارات المتبادلة بينهم ، كل ما يقوله ، يرفع ويوضع
تحت تحليل عميق ، لا يمر معنى خفى الا وأدركوه ، ومهما مضت السنون ، حتى ولو
بقي فى عمره يوم واحد ، يمسكونه ، يحاسبونه حسابا عسيرا وهم قادرون على
إذاقته فى يوم ما لا يذوقه انسان فى مائة عام من الام ومواجع ، يبذلون جهدا
لتصحيح مساره وتقويمه ، الا يضرب الأب اولاده ؟ يقسو عليهم ؟ يرقب الطرقات ،
الشتاء يورث القلب حسرة ، دفقة دم ، تعيد إليه وقع اقدام مقبلة فى طرقات طويلة لا
نهاية لها . وجوه ترمقه بهدوء ، ببرود . وعيون تنفذ إلى نسيج احلامه ، ارهقهم
كثيرا ، فاهتموا به طويلا ، اخبروه بالفاظه التائهة القليلة التى يطلقها عادة اثناء
نومه فى الرواق ، زمان احد اصحابه أخبره بها ، كثيرون يتحدثون وهم نيام ، الفاظهم
مبهمة ، أما هو فلا ينطق الا لفظا او لفظين « الأول » ، « الآخر » ، « الأمس » « غدا » ،
« المثنى » ، « المفرد » ، سألوه عن معانى الكلمات شهرا بأكمله ، فى كل مرة يقسم انه لا
يدرى ، رحموه وصدقوه ، ترفقوا به وصدقوه ، ترفقوا به ، فى مرات استعادوا
احاديث تبادلها مع آخرين على فترات متباعدة فى حياته ، توالى عليه الأسئلة حول
مغزى الكلمات توضح الشروح ، توضح الفروق ، تضاهى الحروف حروف الجر ،
وعلامات الاستفهام طلاسما تسد أبوابا فى نفسه ، فكوها مع ظنه الدائم باستحالة
هذا ، ازالوا ارصاها . نفذوا من اضيق الثقوب ، اغلقوا طاقات ، ردموا ممرات
وساحات ، الآن ينتبه إلى نفسه فجأة ، كيف يفكر فيما فعلوه به ، ربما أدركوه وعرفوا

ما يفكر فيه ، يفهمون أنه يحاول تشويه اعمالهم ، أنه ينسب إليهم فظائع لم تحدث ، نعم لم تحدث ، لم تحدث ، ألا يوجد عقار ما يمنع الانسان من التفكير في أمور بعينها ، الآن تتدافع إليه أصداء صرخات مجهولة ، آدميون يتألمون ، حناجر تعجز عن تفرغ طاقات الألم ، ركود الهواء في الحفر المغلقة ، ملمس السلاسل ، يهز رأسه ، ينفي الخواطر ، يبيد الأفكار ، ما مر به أحلام ثقيلة ، فعلا أحلام .

« بالصلاة على النبي .. اللهم اكتب لنا الستر .. »

الابتسامة على وجه حمزة بن العيد الصغير ، كانت كلماته تبدو طيبة ، الود المنسال من عينيه ، الآن لا يدري القصد والهدف . في نفس هذا الموضوع رأى سماح ألف ألف مرة ، ذكراها تدفق الدم من الاوردة والشرايين ، سماح كيف احبها يوما ؟ كيف عانى ما عاناه ؟ لفظ الاسم بصوت عال من الطاقة . سمع ورأى ما يسقط النجوم الأعلى ، ما يهوى بالنفس من شموخها ، أدرك العطن جوهره . ظن انها لا تمس ، دب الخراب الى وجه مليح ، بارت الأرض . أفنى الوباء أمالا . ظن يوما انه سيعبر المحيطات ويمشى عبر الربع الخراب من العالم ، يعلو جبال قاف ويمضى إلى واق الواق ، يرسو في جزر لا يسكنها أحد ، يأكل الحديد ويشرب النار . فقط لو تصحبه الآن يتساءل ؟ كيف ، كيف احبها يوما ، لا يدري أين هي ؟ أين تسكن ؟ في القاهرة أم رحلت إلى الارياف مع الراحلين في الايام الأخيرة ، لابد انها انجبت طفلا يقول لزوجها يا ابي ، يقول لها يا أمي .. لابد ان معالم وجهها تغيرت ، يدها غلظت ، كأنه يذكر شخصا غريبا عنه يعيش وراء المحيط ، عرفه يوما غير ان عكارة في قرارة الروح ، نقطة عنبر اسود لا تروح . لا يدري ما الذي دفع إليه الآن ذكرى رجل عرفته القاهرة كلها منذ اعوام قضى سنين لم يقرب امرأة . وعندما اشترى بماله الذي أفنى العمر في اقتنائه جارية حلوة صغيرة . لكنها بعد ايام استغاثت منه . استعانت عليه بالزيني ، الزيني خلصها من الرجل . طاش عقله وراح يدور الشوارع في عينيه حيرة ولهفة وقع به خبل ، ياه كانت سماح حربة مغروسة في قلبه لم يعرفها . وارق الدمع من أجلها . يقول الآن . الحمد لله انه لم يتزوجها . كان شخصا أخر حكي له ما جرى ، قصه عليه . أما هو فلم يعرفه ، قرب كوز الحلبة . الطعم مغاير في الخلق ، هل نسي المذاق ؟ لو اشتهى الحلبة عندهم لجاعوه بها ..

« اللهم استرنا واحمنا يا كريم »

في البداية اقبل عليه ، لكن اسى الوجه الخفى ، الصد الذي لا يبين في عينيه ، حفر رفيعة طويلة حولهما ، كأنه قام من النوم توا ، كأنه يعاني حزنا فادحا ، أو انتهى فورا من بكاء طويل ، حمزة بن العيد الصغير ، يرى حاجزا يقوم بينهما .

« أنستنا يا شيخ سعيد .. »

فى الجو غليان ، انه يمشى على الرصيف المحيط بصحن المسجد المكشوف من وراء الأعمدة ، ينظرهم ، لا يقرب حلقات المناقشة الا وقت الدرس ، حتى وقتئذ ينأى بنفسه ، لن يدع فرصة للظن أن يهمس لأحدهم ، يرى العيون تبرق والعشرات يخرجون الى ظاهر القاهرة ، يشيلون أحمال التراب ، يحفرون للمدافع التى اجتهد السلطان طومانباى فى صنعها ، رذاذ الحديث ينفذ إلى أذنيه .

« لو خرج طومانباى وقابلهم فى الصالحية وهم متعبون ولا طعام عندهم لكنهم استراحوا يامشاىخ ، والآن يسعون الى الريدانية .. »

« أنا أرى ان يخرج طومانباى ويلتف مع الصحراء .. ويباغتهم عند بلبيس . لكن أن يحفر فى الريدانية وينتظرهم هنا فهذا ما لاتحمد عقباه .. »

« ربما اقنعه الأمراء بهذا لغرض فى أرواحهم . »

« هل شك واحد منا فى خاير بك من قبل ؟ »

« فى الجو رائحة ننتة يا مشايخ »

إذا سألته احد جاوبه بهزة رأس لا يعنى شيئاً ، ابتسامته موجزة تبتر الحديث ، يعرف ان اصحابه رقوا له ، يختمون ما جرى له ، لايهمه ما يقولون ، يرجو الا يثيروه بالحديث ، كل كلمة تقال وتضيق فى الهواء لا تغنى عندهم ، يقطع الممر الطويل المبلط برخام قديم ، يداه وراء ظهره ، يروح ويجىء ، فيه خوف غامض من الخروج الى الفراغ ، كأنه لو مشى فى خط مستقيم سيختل ميزانه ، يسقط مرفوع الذراعين مرجوف الوجه ، يطلب نجدة لن تصل أبداً ، وغوثاً منقطعاً ، ومدداً لا امل فيه لو أكثر من التجول لراته ألف ألف عين ، كل عينين لانسان واحد ، لو أنه حدد الناس الذين يمضى بينهم ، فى الليل اذ يوشك شيخ الرواق على اغلاق الباب ، يقوم من مرقدته تتتابع انفاسه بسرعة ، يكاد ينطق رجاء مكتوماً فى صدره ، الا يغلق الباب ، كأنه لن يفتح أبداً ، لا يأتيه النوم الا بعد دوار رأسه ، انكتم نفسه ، ضياع حسه ، لا ينام نوماً ، إنما يغشى عليه ..

« فى الجيزة خمسون الفا من العربان .. »

المجاورون يروحون ويجيئون ، ثمة جدد فيهم أصغر سناً ، جاعوا بعد ذهابه فى الرحلة « كما يسميها بينه وبين نفسه » فى حلقة كتلة صلبة كالبنطقة ، لو ان ما يجرى الآن جرى منذ عامين فقط ، عامين ؟ كأنهما عشرات السنين ، زمن قائم بذاته ، هل سيقف هكذا ؟ يتجنب الاقتراب من حلقات المناقشة ، ما يدفع طعاماً الى دمه ، ما يحيره ، كيف يسمع الآن باقتراب جيوش ابن عثمان ، تكاد تلامس أرض الريدانية ، خيولهم تدوس الديار المصرية ، طاحت سيوفهم فى رقاب أهالى الشرقية وبلبيس ، ربما اجتاحوا فى طريقهم بلدة ، قرية ، سماح لجات إليها مع زوجها ،

استباحوا عرضها في صحن جامع قديم ، العرض الذي لم يهتك في خياله يوما وراه متمرغا تحت سليل الأمراء في لحظات قهر ، سعيد يتقلب فوق حصير شائك ، ما أبعد المسافة وأناى الترحال بينه وبين زمن ترعشه فيه مظلمة بسيطة ، ضرب إنسان في عرض الطريق ، تتكاثف الحيرة والحسرة ، كيف لا يحركه ما يجرى من أمور ؟ انتفض الشامي والمغربي ، القريب والبعيد ، الحريم يهتفن بالدعاء لطومانباى ، حتى العيال الصغار ، ربما يخشى أن يفهم حماسه خطأ ، لو زعق ، لو جهر بالدعاء ربما تضايقوا . يريدونه هادئا وادعا ، إذا هتف لطومانباى من يدرى أن الدعاء سيسمع بنصه ؟ رأى نساء الجمالية الفقيرات في العطوف الجوانية والروم والباطنية يقفن امام مشهد السيدة نفيسة حسيرات ، تعلو اصواتهن بنصرة طومانباى ، ورفعة جند مصر عسكر الاسلام . في داخل المسجد رعوس معممة ، يقيمون الصلاة في غير أوقاتها يقرأون البخارى ، شبان صغار عاب عليهم يوما انقطاعهم ، وترددهم في مواجهة جور الأمراء ، الآن يبدون همة لا يدرى من أين جاءتهم ، أحقا لامهم فعلا ؟ لكنه لا يخطيء الوجوه المنكسرة ، معالم الغربية يراها ، حتى فى ابنية الحوارى .



لحظة الغروب تجسد الموت ، الأسى رقرق ، عبثا صفاء النفس ، الأذان حزين يدفع بالعمر مائة سنة ، يعمق الغربية لمن لا بيت له ولا زوجة ولا امل يرتجى ، كان الريف البعيد محى من المكان والزمان ، الأشرعة لا تهدي القوارب الى بر الأمان ، تمضى امرأة تلتف فى حرير أصفر ، حتى الخيال لم يعد قادرا على تجريد الثياب ، لو جاءت بلقيس نفسها ، لو رقصت أمامه فى حجرة مغلقة نائية ، لن تهتز حتى جذور شعيرات رأسه .



طفل ضئيل ، صغير الجسم ، دامع العينين ، الأصبع فى الفم ، حيرة أول العمر . يبحث عن أبيه ، يبحث عن أمه ، لا يدرى سعيد ، الطولة المخوزقة فى عينيه أثارت خوفا غامضا ، فى قلبه شفقة تنسال . توقف يرقب الطفل . إنتبه الى خطورة ما اقدم عليه . باى كلام يفسر وقفته المفاجئة امام الطفل . طفل صغير يبكى رأى نفسه ممددا فوق حشية قديمة . أطفال يصيحون . نساء يلطمن الخدود ، أه لو يرثى الانسان حيا ، لاقام النعى وجاءته الندابات من كل فج عميق . لو يصلب نفسه على باب زويلة . يقضى دامع العينين . كهذا الصنم الواقف فى جزيرة لم يرها ابدا وسط البحر المحيط . كلما اقترب منه انسان يلقى الدمع هاطلا من عينيه . السوق خال . الحركة خفت من الطرقات . كأنها أوردة القلب الخالى . التفت وراءه . الطفل الباكي يتوسط الطريق . قدماء رفيعتان كقلم البسط .

تنوء ان يحمل جسمه . كل اهتزازة منه تجسد أول العمر الشقى لا يعرف ان يمضى ؟
رأى بعينى عقله امرأة وقعت بين القفف فى سوق الليمون انتابها خلط فالج ارتمت
على ظهرها لا تدرى ما حولها . تطفطف ريماً من فمها . زحف الى ثديها طفل يتلمس
سريان الحياة منه . متى رأى المنظر . متى انتابه غم ؟



بحرص عظيم استقصى اخبار ، يقينا علم بخروجه ، فى الرواق خطر له ان ينسرب
تحت الظلام ، يطلع عليه ، لكن هذا أسهل الطرق لانكشاف أمره ، كلما انقضى يوم ،
يطلع فيه إلى كوم الجارح ، أدرك أن المسافة تنأى ، ربما لن تطأ قدماه صحن البيت ،
لن يتنسم هواء المبلل بماء الورد ، منذ أعوام لم يخطر بباله قط ، لم يكن يقبل أى
تصور ليوم كهذا ، لم يطلع الى كوم الجارح ، لكنه فى حذر راح يستقصى احوال
مولاه ، عرف أن الأمراء عندما عرضوا السلطنة على طومانباى تمنع ورفض ، لم
يجدوا امامهم الا الشيخ أبى السعود ليقنع طومانباى بتولى السلطنة ، سعيد يراه
بوجهه الصافى ، ربما أخذه التردد . لا ينسى تدخله الى جانب الزينى بركات . ثم
خيبة رجائه ومسعاه ، أبدا أبدا لم يخب رجأؤه ، بعد عودته من الرحلة طلب منه رجل
اتاه دائما هناك ، جالسه اياما طويلة ، طلب منه الذهب الى دكان حمزة كالمعتاد ،
ولو جاءت سيرة الزينى امامه ، لو تساعل الناس عن سر اختفائه يقول (رجاء الرجل
بأدب) إن الزينى فى مكان قريب ، يعد العدة ويجمع المال والسلاح ، ولم يمانع
سعيد ، وائى مأخذ فى هذا ، تساعل الناس فى الدكان عن غيبة الزينى قال « أنه يرسل
الاتباع إلى بلاد مصر . يستنفر مشايخ العربان لارسال رجالهم الى القاهرة » يذكر
يوما شخصا افرنجيا بدا مصغيا لكل ما يقال ، استراب فى أمره ، بعد أيام عرف الناس
الحقيقة ، الشيخ ابو السعود نفسه قبض على الزينى ورماه فى بيته ، خجل سعيد
من نفسه . خالف أمرا اتاه مولاه ، لكنه معذور لم يدر ، ثم أن الرجل رجاء بأدب ،
مطلب بسيط ، لم يخطيء فيه ، أرسل الشيخ إلى الأمراء الا يخونوا مولاهم
والا يغدروا ولا يخامروا عليه وأن يساندوه فى تصديه لابن عثمان العازم على أخذ
مصر ، يعرف سعيد أن كثيرا من المريرين ، قدموا من كافة القرى والانحاء ، يلفون
رعوسهم بشيلان حمراء وخضراء سيدى أحمد البدوى ارتداها يوما ، مد يده فأحضر
الاسرى من بلاد الكفر ، الشيخ ابو السعود يخرج يوميا الى الخلاء يحمل المقاطف
مع العسكر ، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما بيديه من نشاط لا يناسب أبدا لحيته
البيضاء وشيبته ، كبر العامة وهللوا ، لو رآه مولاه فسيسامحه ، يحرقه الشوق إلى
رؤيته لكنه لا يدرى رد الفعل هكذا أطلقوه وتركوه لا يحددون له مسارا .
يطلب سعيد كوز الحلبنة المعتاد ، يطحنها حمزة الآن ، يضيف إليها البندق

المبشور ، ولو طلب الزبون يحمرها في السمن تصبح افطارا حلوا شهيا الذ من اكل
القول النبات في مطعم المراغى امام زواية العميان ، العسكر يعبرون الطريق ، شيء
ثقيل يقع في مكان قريب ، لم يبدأ سعيد شرب الحلبة ، صاحب وجه غريب يقترب
منه ، لم يره ابدا ،

« شيخ سعيد ؟ »

« ايوه ، »

« لو سمحت .. معى لحظات .. »

الريح صائب ، ابيدا رحلة من جديد ، ايعدو ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟

« ابدا .. مقدم بصاصى القاهرة يطلبك . ليس المفروض ان اقول لك . لكننى اشفق

عليك ، اعرف رقتك وما يمكن ان يطوف بك ..

يطل حمزة ..

« لم تشرب الحلبة يا شيخ سعيد ، لم تشرب الحلبة ، لا حول ولا قوة إلا بالله ..



نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

يا ساكني مصر

الجهاد

الجهاد

الجهاد

« وما النصر الا من عند الله »



زكريا بن راضى

لم يتوقف لحظة واحدة من المقطم الى بركة الرطل ، الحوارى مغلقة . الناس يسرعون الى غير هدف ، فى الصباح الباكر ، انطلقت إشاعة فى المدينة كالنار فى العشب الجاف ، أقسم البعض انهم رأوا جيوش ابن عثمان تجىء من ناحية الفسطاط ، تفاجيء طومانباى من الخلف ، ارتعب الناس ، ارتجفت قلوبهم ، لا أحد يصحب زكريا غير مبروك ، يمشى مجاورا له ، العتمة فى الضوء ، زعيق الجند العابرين يجسدون فى نفس زكريا شيئا خفيا ، يدرك أنه يعايش الآن أحداثا جساما لا تتكرر إلا مرات فى عمر الدنيا ، من قبل يتغير السلطان ، يجىء آخر ، لكنهم أفراد جماعة واحدة ، أما الآن فالجماعة نفسها مهددة ، آخرون غرباء لا يوقفهم أحد ، يرثى لطومانباى ، يعرف أى وضع صعب يلاقيه ، عكارة تشاؤم تأوى الى روح زكريا ، هو الوحيد فى مصر العالم بحقيقة ما سيجىء . لا يستريح إلى وقفة جان بردى الغزالي بجوار طومانباى ، وعنده أدلة وشواهد ، ابن عثمان وباء جاء فى غير ميعاده ، وباء لا علاقة له بانخفاض ماء النيل ، شر مسلط . عسكره همج ، يعرف زكريا ، أحوالهم بهائم لا نظام لهم ، أسرع الخطى ، يهرب من إدراك نتيجة يراها محدقة ، هذا ماسيناقتشه مع الزينى بعد قليل ، هذا الزينى الذى نفذ الى عمره ، فكره وروحه ، فحول ما حول وابدل ما ابدل ، عندما قبض على الزينى أدركته دهشة بل مسه خوف ، سنوات طويلة يكيد فيها للزينى ، فى زمن هيج عليه مصركلها عند واقعة الفوانيس ، لن ينسيه شيئا أبدا أن الزينى دفع الى بيته بوسيلة الرومية ، الزينى أيضا تسبب فى قتلها ، أن يوارى جسدها البلورى وحشة القبر ، منذ شهر أدرك أن الزينى لم ينشئ نظاما خاصا به يجس الأخبار والأحوال ، لم يتبعه بصاص واحد ، إنما هم رجال المحتسب العاديون ، سنين طويلة وزكريا يجهد نفسه ، يبذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكى يعثر على بصاص واحد يتبع الزينى . لم يستطع رجاله ، أيقن من براعة رجال الزينى فى التخفى . عمل لهم ألف حساب وحسبا ، أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة ، تمنى زكريا لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزينى ، والا يدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزينى ، بنى نظاما فى الهواء أوجده ولم يوجده ، عانى زكريا مرارة الخديعة أياما لكنه اضمر فى نفسه إعجابا خفيا للزينى ، فعلا أن يوجد زكريا بمفرده فى زمن واحد أمر لا طعم له ، كل منهما مخلوق لصاحبه ، وجود الزينى أفاد زكريا ، حببه الى قلوب الخلق بعد كره ومقت ، زكريا طور أساليبه وطرقه حتى يواجه مكر الزينى وخداعه ، غير الفائدة المباشرة التى أباها الزينى فى عديد من المواقف ، أفكاره الصالحة من أجل تطوير أعمال البصاصين ، يبتسم

زكريا . الزينى الذى عرض عليه كل ما قدمه على أسس انه بعض الطرق المتبعة فى نظامه هو الخاص بمراقبة الخلق ، اى إنسان فى مصر يعلم بوجود جماعتين ، جماعة بصاصين تتبع زكريا وجماعة تتبع الزينى ، هذا كله وهم أشاعه الزينى ، لكن الأوضاع ستجد فيما لو ، لو اجتاحت وباء العثمانلية مصر ؟ هذا ما سيناقشه زكريا مع الزينى ، بيته فى المقطم لا يحوى ورقة ، الآن شهاب الحلبي وديوانه وكل ما يحويه فى المقر السرى للزينى بحلوان ، أيضا الدفاتر والجداول التى أدرج فيها اسم كل مخلوق يدب على بر مصر حتما سيحتاجها فى الأيام القادمة ، زمان عندما امسكوا على ابن ابي الجود وتولى الزينى الامر راح يوزع اوراقه ، قتل معشوق السلطان وغلّامه ، حتى الآن لم يصل الى سر العلاقة المكتومة ، مات الغلام ، مات السلطان ، فكم يبدو الزمن بعيدا ، سنوات طويلة فى كل يوم منها يؤكد قراره بالاجهاز على الزينى ، فرص عديدة سنحت له ، عندما أرسل الشيخ ابوالسعود واحضر الزينى وبهدله ، ليلتها عندما بلغه الامر ، قص شعر رأسه ، لا بد من حزم سريع ، هذا امر لا هزل فيه ، ها هو الزينى بين يدي رجل صالح تقي كلمته لا ترد عند الامراء ، الكبير والصغير ، باستطاعة زكريا استنفار اعوانه من كل فج عميق يثير الناس على الزينى ، وينشر الفضائح عليهم ، يمكنه إرسال قوائم طويلة بالأموال التى يكتنزها الزينى ، الدر والحجر البلخش واليواقيت والفيروز واكوام الذهب ، رسالة موجزة تقول لمولانا هذه هى المواضع التى كدس فيها الزينى امواله ، حيرة اعتصرته ، فى تواريخ طلائفة الاسماعيلية قرا مرة ، الفداوى المرسل لقتل عظيم او كبير تواجهه فى مهمته لحظات ، لحظات يجب الحسم فيها ، ليس ، مهما صحة القرار او خطؤه ، المهم هو اتخاذ قرار ، ربما اضاع التردد حياة الفداوى نفسه ، المهم اتخاذ القرار فى ذاته ، درس قديم طالعه زكريا ، فى الليلة نفسها قرر ، الزينى يجب الا يروح هدرا ، أرسل فى طلب ابراهيم بن السكر والليمون ، المعلم ابن كيفه استنفر اذانه وعيونه المنبئة فى انحاء الأرض ، بذكاء عظيم ، بكافة الطرق عليهم التحدث الى العامة عن عدل الزينى وتقواه وصلاحه ، تذكير العامة بما اتاه لهم ، ثم ينطلقون الى ما فعله الشيخ ابوالسعود الجارحى ، صحيح ، الشيخ ولى من اولياء الله وفيه بركة ، ولكن ما للمشايخ وامور السلطنة ؟ ما للنسك وامور الدنيا ؟ لو انشغلوا بامور الدنيا لضلوا سواء السبيل ، وعندما شرع الشيخ ابوالسعود فى تجريس الزينى بركات على حماره ، شهره فى الطرقات راكبا بالمقلوب قرر الامير علان الدوادار الكبير ، شنقه على باب بيت قريبه محتكر الفول فى مصر ، بالفسطاط ، أرسل زكريا مكتوبا عاجلا الى طومانباى يشير فيه الى مال جسيم لدى الزينى ولا بد من رد المال الى خزانة السلطنة ، لو شنق لضاع المال ، والبلاد فى اشد الحاجة اليه ، ثم هناك امور هامة

تدخل تحت نطاق السرية معلقة معه وموته يعنى التسبب فى اضرار كثيرة تمس
الأمراء والعامه والسلطنة ذاتها ، خاصة فى هذه الأوقات العصيبة مع الرسالة نفسها
أرسل خطابا صغيرا يطلب فيه من طومانباى الاقلال من عدد مرات نزوله وظهوره بين
الناس حتى لا تضيع هيئته من بين العامة ، ولا يتعودوا رؤيته ، يعلم زكريا تماما أن
الزينى يفضل الشنق على إنقاذ زكريا له ، أمثال الزينى يتقبلون ما أقدم عليه زكريا
بأنفة ، عندما أعيد الى بيت الشيخ أبو السعود ، ورجعوا فى شنقه ارتاح زكريا ، من
يدرى ؟ ربما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينقذه إلا الزينى ، زمان مضطرب لا يؤمن
فيه المرء على روحه ولا عياله خاصة من كان وضعه مثل زكريا ، الآن يقترب من بركة
الرطل ، من الطبيعى لم ينزل الى المدينة ، لم يتجول فى أسواقها ، يرسلون اليه
التقارير باستمرار ، حتى من البلاد التى اجتاحتها ابن عثمان ، بعض نوابه راح
شهيدا ، لم يتصور انه سيرى الخراب هكذا بين الخلق ، المآذن حروف تجمدت فى
الهواء ، ابنه يس وحريمه فى أقصى الصعيد ، يعاوده نفس الاحساس ، يعيش فى
زمن يشهد أحداثا كبيرة يندر وقوعها ، بيت الزينى يبدو أخيرا ، بعد قليل يصفى
اليه ، ثانى لقاء بينهما منذ خروج الزينى ، ياه ، ألم يكن غيبا عندما فكر آلاف المرات
فى الخلاص منه ، ابتسامة خفية على شفثيه ، لكنه أحقا فكر فى هذا ؟ أحقا ؟



نداء

نداء

يا أهالي مصر
ينهى اليكم الخنكار العظيم
فاسمعوا
من خبا عنده مملوكا شنق
من داري على أموال مملوك شنق
فاسمعوا وعوا

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من دل على مكان طومانباي
له ألف دينار
من أحضره حيا أو ميتا
له ألف دينار
من حامى الحرمين ، والبحار
سليم شاه ،
الخنكار العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من رأى منكم
الشيخ أبا السعود الجارحي
من لمح منكم
درويشا من دراويش
الشيخ أبي السعود
الذين يثيرون الفتنة
ويهاجمون العسكر
ليحضره الي وطلق جند الخنكار
وله الجزاء العظيم
له الجزاء العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من أخفى منكم جوارى ونساء المماليك
شنىق بغير معاودة

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
لا يخرج أحدكم بعد المغيب
لا يرتدى أحد لثاما
ومن ضبط شنىق
يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
استكينوا
استكينوا
ومن خالف شنىق



● إنت منا .. إنت بتاعنا

السراة والسارس

كوه الجراح

سعيد الجهيني

للقبر ضمة لا ينجو منها إنسان . يضغط ضلوع المؤمن والكافر .
يمحو الأول والآخر ، يفرق المثني ، ويشنت الجمع ، يساوي الظاهر
بالباطن ، تعرف كل نفس ما أتت ، وتتحدث الأعضاء عما ارتكبت ، أي
ذنب جنت ؟ ويعرف سعيد طريقه إلى الوعر ، إلى كوم الجراح ،
ينقبض قلبه ، مستقر الغبال والرماح ، لم يخطئه هدف في ساحة
المعارك والطعان ومنذ رجوعه يود لو رأى مولاه ، لحظة لا قبلها
ولا بعدها ، يسمع لهجته ، يعرف أي الأفكار تدور في عقل مولاه حوله هو ، شخصه
هو ، أتى الزمان الذي لا يعرف فيه الابن أباه ، يسأل الأخ عن أخيه فينكره حتى
لو جاوره وقوفا ، أتى اليوم الذي ترمى فيه كل ذات حمل حملها ، وتري الناس
سكّري وما هم بسكّاري ، في الهواء خمدة ، أهي القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، في
الهواء زمّة ، أهو الدخان الذي يظهر قبل قيام الساعة ؟ الجند الغرباء يفتضون
الإبكار على باب جامع المؤيد ، عند القبة التي انحنى فوقها مرات ومرات ، خلع
حذاءه ، ودخل المسجد العتيد يملأه خشوع .

ما الذي بقي إذن ؟؟ ربما ظهر المسيح الدجال ، ينزل من المقطم . يطلع من حوارى
الحسينية ، يخرج على الناس فجأة من الخليج ، من النيل قبل ميعاد الوفاء ، من
جزيرة الروضة ، من الهرم الأكبر ، يركب دابته التي تجس أخبار الدنيا له ، يطول
الليل ، يصحو القوم فلا يلقون إلا ظلاما مستمرا عتيماً ، أول خيوط الضوء تدير
العقول ، ها هي الشمس تطلع من الغرب ، ليس قرصاً من ذهب ، إنما فطيرة رخوة
سوداء ، ما الذي بقي إذن ؟؟ أظهر أيها السفيناني ، لينفخ في الصور ، النفخة
الأولى ، والثانية ، والثالثة ، تقبض الأرواح ، ويجيء الخراب ، أربعون ألف سنة ،
الوخز في الصدر ، أي مرض خلفته الأيام ، لكن أي أمر يخشاه ، والروح ساحة
خرائب ، البيوت لا تأمن ساكنيها ، ما الذي بقي إذن ؟؟

* * *

نعرف يا سعيد أنك تتعنى رؤية مولاك ، هذا من حقل طبعاً .. يا سلام يا أخي من
علمنى حرفاً صرت له عبداً ، أنت نطقت باسمه مرات أثناء نومك ، يا شعلان .. أي اسم
رده سعيد في نومه عندما أويتاه زمناً ؟

« الشيخ أبو السعود .. لم يذكر غيره .. »
« أرايت .. أذهب إليه ، لا تخف ، بالعكس نحن نريدك أن تعود . سيرتك معه
كألزمن الأول تملأ ، نريدك أن تصبح محل ثقته .
لا تخف منك ، اذهب إليه ، ارم على قدميه ، ابك ... ابك فعلا .
سيسألك ، أين غبت عنه بعد عودتك ، قل له منعوني ، لكنني ضربت الآن بمنعهم
عرض الحائط وجئتك ، العن أجدادنا ، استمطر الخراب علينا ، قل ما تريد يا سعيد ..
ما تشاء ، لأبد أن تحيي ثقته بك .
أنت ابنه الذي لم ينجب وأنجبه . »

دار حول باب الوزير ، مشهد السيدة فاطمة النبوية ، قدماه تقطعان الطريق ، هذه
البيوت لم يرها من زمن ، وهج الآمال ، رغبة الطواف ، الجرى ، الاندفاع ، الحب ،
ملاسة يد حنون ، طعام هنى بعد غروب شتوى عتيق ، أبدا ، لم يطف به شيء من
هذا ، أخيلة قديمة مخوزقة ، ذكريات بالية كحصيرة عتيقة داستها آلاف الأحذية ،
إلى الممرات الطويلة ذهب ، حفر صغيرة بالجدران ، رأى آدميين ، « أتعرف هذا ؟
كان أميراً كبيراً عظيماً جليل الشأن ، له في الحبوس أربعة وثلاثون عاما ، يبول
مكانه ، يأكل مكانه ، نسي اسمه ، فعلا نسي اسمه ، نسي الألفاظ والحروف وحركات
الصوت وسكناته ، حفرة أخرى ضمت سجيناً صبياً ، لا يعرف الضوء . ولا طعمه ،
في عينيه بريق أزرق كعيون القطط في السواد العقيم ، عمره عشرون ، كلها قضاها
هنا ، ربما بدا خروجه إلى الدنيا كذهابك أنت إلى السجن ، بين حجارة الصخر تذوى
الأعمار ، تفنى ، تغرب ، بين حجارة الصخر ، أوفى الحجرات الضيقة النظيفة
المخيفة ، يتمدد صاحبه منصور الآن ، فما الذي بقي إذن ؟ »

« ما نطلبه منك . ما نريده . الاستفادة من عظاته وحكمه . أن نعرف ثمين القول الذي
يردده . آراءه في الناس . ما ينويه بالنسبة لطومانباي . منذ دخول الخفكار تعرف أن
بقاءه في البيت . لكن هناك مريدين يمضون إليه . من هم ؟ إلى أين يذهبون ؟ هناك
من يزعم بنية الشيخ على الخروج في أثر طومانباي . لكن هل تصدق هذا أنت ؟ هل
يدخل عقلك أن الشيخ أبي السعود ، الشيخ الطيب الصالح ، الورع التقى . يمكنه
حمل سيف وذبح رقبة ؟ أنت أدري الناس به . إذا كانت هذه نيته فعلا . فهذا تغير
لأبد أن نعلمه . لا شيء . لنستفيد منه ونفيد . كيف يتحمل العمر الكبير الحرب
والهجوم ؟ والكر والفر ؟ طبعاً .. لا تخبره عما نريد . أنت بهذا تنقل تعاليمه وحكمه

الى الخلق كلهم عن طريقنا . بقيت مسألة ثانية .

* * *

البيت هادىء مستكين . أحلى العمر قضاء هنا . هنا رتل عمره ترتيلا . غناه عذبا .
يخطو عتبة البيت . بأى عينين يواجهه . بأى المعانى المتبقية فى حدقتى العين .

* * *

نعرف انك قادر على هذا . وإلا فلماذا لجأنا إليك . نحن نطلب معونتك . يا سعيد .
أنت قريب منا . أنت منا . أنت بتاعنا .

* * *

أنت منا .. أنت بتاعنا ..

* * *

« أما المسألة الثانية ، تعال . اقترب .. يا شعلان أخرج .. أخرج لحظات لأن
ما سأقوله سر عظيم لن يسمعه إلا سعيد وحده . »

« طبعا أنت ولا أى مسلم مؤمن يرضى عما فعله ابن عثمان بنا ، من هنا عزم
الزينى بركات ، وبالمناسبة ، فهو يهديك السلام ، ويعتذر لك ، بوده لو رآك ، لكن
عيون العثمانلية تندس حول بيته ، المهم ، عزم الزينى وتوكل على الله ، أن ينشئ
جماعة تعمل فى السر لا فى العلن ، جماعة من الشباب الشديد المجاهد أمثالك ، تقلق
راحة الخنكار ، تهدم أركان الخيانة ، ما نطلبه منك يسير ، أن تقدم إلينا أسماء
الشباب القادر ، الذى لا يتردد بالتضحية بذاته ، بنفسه ، قدم لنا الأسماء ، ونحن
سنعرف طريقنا إليهم ، سنعرف كيف نقنعهم ونضمهم إلى صفوف الجهاد ، اتفهمنى .
يا سعيد : اتفهمنى ؟

طيب كرر على .. ما الذى أطلبه ؟

أهكذا عاد يتطلع حوله ، هنا جثا أمام مولاة ، هذه الأرض ابتلت بماء غسل فيه
التمر ، هنا لفظ باسمها ، لا حس فى البيت ، السرداب مهدوم ، أين راح مولاة ؟
ما الذى بقى إذن ؟ أه لو يراه لمحمة ، سيقول كل شيء ، يبوح الخفى ، ينثر العطن ،
يفتح جرحه ليشفى لو يراه لمحمة ، بعدها تفنى الدنيا ، يعرف أن لفضة ود ، ونظرة
صفاء ستقبله ، يسمع المولى كوابيسه ، يبني ما تقوض ، لم يخطر بباله أبدا أنه
سيأتى إلى هنا يوماً ولا يلقاه ، ما الذى بقى إذن لو رآه لباح بالقديم والجديد ، أه ،
لا فرصة للرجوع ، بعينى عقله يرى مولاة ، أمازال مولاة ؟ يراه ساعياً فى الأرياف ،
يستنفر الخلق ، من يده ، من يهديه إليه ، ذهب مولاة ، ما الذى بقى إذن ؟؟

* * *



● رسم : اوجین دیلاکروا - متحف الفنون بامریکا .

السرادق السابع

سعيد الجهنى
آه، اعطوني وهدوا صوني



● رسم : جين باربولت - متحف اللوفر - باريس .

خارج السرادق

مقتطفون أخير من مذكرات الرحالة
طالبندقي .

فيا سكونتي جانتي ٩٢٣ هـ

في ترحالى الطويل ، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن ، بعد انقطاعي غامرت ونزلت إلى الطرقات ، فى الهواء حوم الموت باردا لا يرد ، رجال ابن عثمان ، يدورون فى الطرقات ، يكبسون البيوت ، لا قيمة للجدران . الأبواب ملغاة فى هذا الزمن ، الأمان مفقود ، ولا فائدة من أى توسل أو رجاء ، لا يثق الإنسان أبداً من طلوع النهار عيه ، فى حارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة ، مقلوعة النهدين ، تلفت حولى ، البلاط المضلع والتراب ، فى بيت ناء عاط طفل لم أدر ابن من هو ؟ عند سبيل مياه قرب باب زويلة رأيت بشراً انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية ، إدخال سيخ محمى فى الضلوع ، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة ، لسان أحدهم مدلى ، سؤال أبله معلق ، لماذا جرى ما جرى ؟

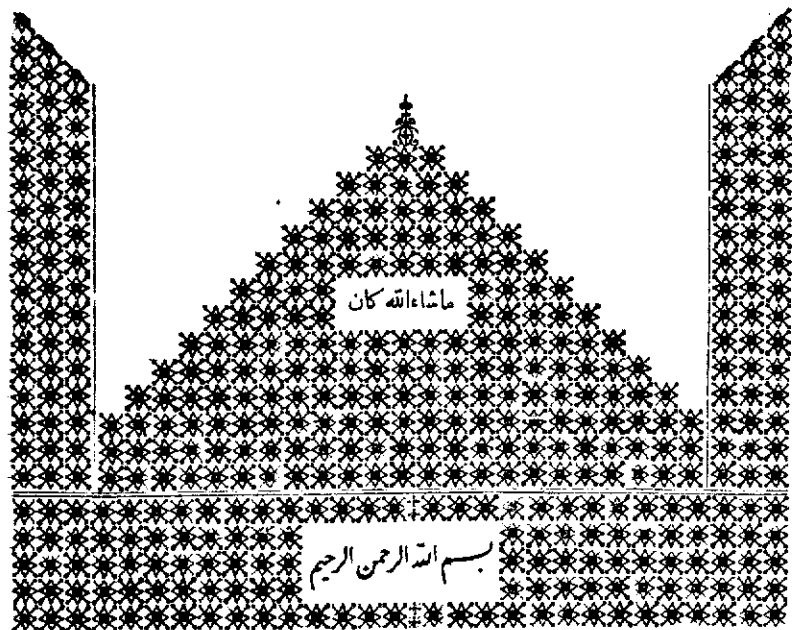
العيون برقوق عطن ، لم يهدأ المنادون طوال الليل والنهار ، اللهات يشتد وراء طومانباى سلطان البلاد المختفى ، خاصة بعد ظهوره المفاجيء فى جامع شيخون ، والتفاف الخلق حوله ، ثم هجومه على ابن عثمان فى بولاق ، سمعت أنه بمجرد ظهوره فى أى مكان يلتف حوله القوم وكأنهم يعرفون ميعاده ، سمعت أن جماعات كبيرة من الدراويش (رجال الدين) انضموا إليه ، راحوا يغيرون على جنود العثمانية ، الذين يتطرفون فى مشيهم إلى حارات نائية ، أو طرقات بعيدة ، يقتلون منهم ما استطاعوا ، أثار هذا الفرع بين الغزاة ، طولبوا بالتزام الحذر . والمشى جماعات ، صباح اليوم طلعت فوق السطح رأيت الأسى شفيفا كثيبا فوق المدينة ، كأن البيوت نفسها أسالت دمعا ، رأيت وجه صديقى الشيخ محمد أحمد بن إياس قبل دخول العثمانية بيوم واحد ، فى تقاطيعه رقدت نبوءة بالهزيمة المقبلة ، كان منكسرا ، لم أره من ليلتها ، سمعت ممن أثق به أن طومانباى ظهر فى الصعيد .

وانه جمع آلاف العربان المسلحين حوله . وقيل ان وليا من اولياء الله (قديس)
كان يقيم في القاهرة ، هجر بيته وانطلق إلى الريف يقيد فيه نارا حامية يستنفر
الشعب ، وأخبرني محدثي أن عمر هذا القديس يقدر بمائة عام ، بل ازيد ، وأنه أوتى
شجاعة عظيمة ، وقال محدثي انه شرب من نبع الحياة ، ومن شرب من نبع الحياة
لا يموت أبدا ولا يهزم قط وفعلا انطلق في اثره مئات من الشبان الصغار ، والرجال
والنساء ومعظمهم لم يشاهده مرة واحدة أثناء إقامته في القاهرة ، وأخبرني محدثي
ان هذا الولي (القديس) يطوى معه بيرقا رهيبا ، يقال له البيرق النبوي ، ومتى
نشره تهب أمة مصر من ادناها إلى اقصاها ، فتضع السيف في رقاب الغزاة ، ولا ترد
حتى تغنيهم ؟ أبدت الشك لمحدثي وسألته ، لماذا لم ينشر هذا البيرق الآن ؟ قال
واثقا إن هذا لا يتم إلا بأمر من عنده ، وأشار إلى السماء ، بكى محدثي وهو شيخ من
مشايخ الأزهر ، قال : جاء في الكتب القديمة . « مصر كذاتة الله من ارادها بسوء قصمه
الله » . اليوم فقط نودي في الناس بالأمان قلت لأنزل استقصى الأخبار ، أدركت
مخاطرتي فالغزاة لا أمان لهم يعلنون الأمان وينقضونه وجدت بيت صاحبي الشيخ
ريحان مهتما محروقا ؛ لم يدلني أحد إليه ، سمعت ظهور الرجل الذي تحدثت عنه
كثيرا في رحلتي الثانية ، الزيني بركات ، قال بعض المشايخ انه يحاول لم الشبان
لمجاهدة ابن عثمان لكن احدهم أبدى شكاً في مقصد الزيني ؛ خاصة بعد طلوعه إلى
القلعة مرات عديدة وجلوسه مع خاير بك او قاتا طويلة ، وعلمت ان خاير بك (سبق
ان تحدثت عنه) أبدى رضاه على الزيني ؛ فعندما دخل الغزاة مصر ؛ كان الزيني
في بيته مغضوبا عليه من طومانباي السلطان السابق ، وكان مجردا من كل وظائفه ،
ينوب عنه في أهمها أحد نوابه السابقين شخص اسمه عبد العظيم الصيرفي ، لم
ينقض اليوم إلا وتحقق ما سمعت من اخبار قبيل العصر سمعت المنادي يدق طبلا ،
وقفت منتظرا ، رأيت ثلاثة جياذ سوداء يمتطي كل منها فارس يحمل في يده ميزانا
وصنجا وعلما رسم عليه شعار المحتسب ؛ سيفا مسلولا ؛ وخلفهم جواد أبيض ركب
« الزيني بركات بن موسى » ووراءه ركب شخص بدين لم اعرفه ؛ الطريق خال ،
الخراب الخفي ساع في الفراغ ، الدكاكين كلها مغلقة ، حول الموكب الصغير فاحت
رائحة نتن ؛ تطلع مارة قلائل ، اصغوا إلى دقات الطبل هزوا رؤوسهم ؛ لم يتوقفوا
حاذاني الركب ورأيت الزيني يضع لثاما حول وجهه ؛ لا اذكر ملامحه فلم التق به
إلا مرة واحدة ؛ لا بد ان أسعى إليه ؛ صاح المنادي ؛

يامر خاير بك بتعيين الزينى بركات بن موسى محتسباً للقاهرة ؛ وكل من له شكوى
أو مظلمة عليه بالتوجه إليه ، ثم يتوقف المنادى لحظة ويتلو أمراً من الزينى نفسه ،
أصغيت ؛ ينادى موضحاً العملة العثمانية الجديدة حلت محل العملة المملوكية
القديمة ؛ تابعت الركب المتجه ناحية باب الفتوح عند المنحنى اختفى ؛ وابتعد
النداء الخافت فى خواء شاحب .

جمال الغيطانى

الجمالية ١٩٧٠ - ١٩٧١



لكل أول وآخر ولكل بداية ونهاية



● رسم : ادوارد لين

الخراب الخفى ساع فى الفراغ .
وما كان أصبح فى حكم العدم .



● رسم هوراس فيرنيه - مجموعة والاس الفنية بلندن

وقيل بظهور جيش ابن عثمان عند
الريدانية فأهتزت القاهرة .



● رسم چيروم - معرض ايسترن انكاونترز

عندما اجتمع كبار البصاصين في
القاهرة ليتدارسوا ، كيفية تغيير
الانسان .



● رسم : جيروم - مجموعة والاس الفنية بلندن .

هناك يزعم سعيد ، لن يرهب عينا
لن يخشى أذناً تتسمع ، أو تقريراً
يرفع عنه .



● رسم : ادوارد لين

لكل انسان ، مهما علا شأنه ،
أوقل ، أوراق مدون فيها كل شيء
عنه .



● رسم : إدوارد لين .

الشيخ أبو السعود الجارحي ،
يمشي عبر الأفئدة ، فوق القلوب .



● رسم : چيروم - مؤسسة كريستي بلندن .

يا أهالي مصر
الجهاد
الجهاد



● اسم : لويجي مايير .

وفيه خرج الناس في القصف
والفرجة عن الحد .



● رسم : ادوارد لين .

أَلَسْتُمْ عِيُونَ السُّلْطَانِ ، أَلَسْتُمْ
أَذَانَهُ ، إِذَا عَمِيَتْ عَيْنٌ ، أَوْ طَرَشَتْ
أُذُنٌ ، كَيْفَ يَعْرِفُ أَحْوَالَ الْخَلْقِ إِذْنٌ ؟



● رسم : دافيد روبرتس .

لا يدري انسان ، أن ثمة خيطا
يشد ويربط كل أرباب المغاني
والمنشدين إلى كبير البصاصين .